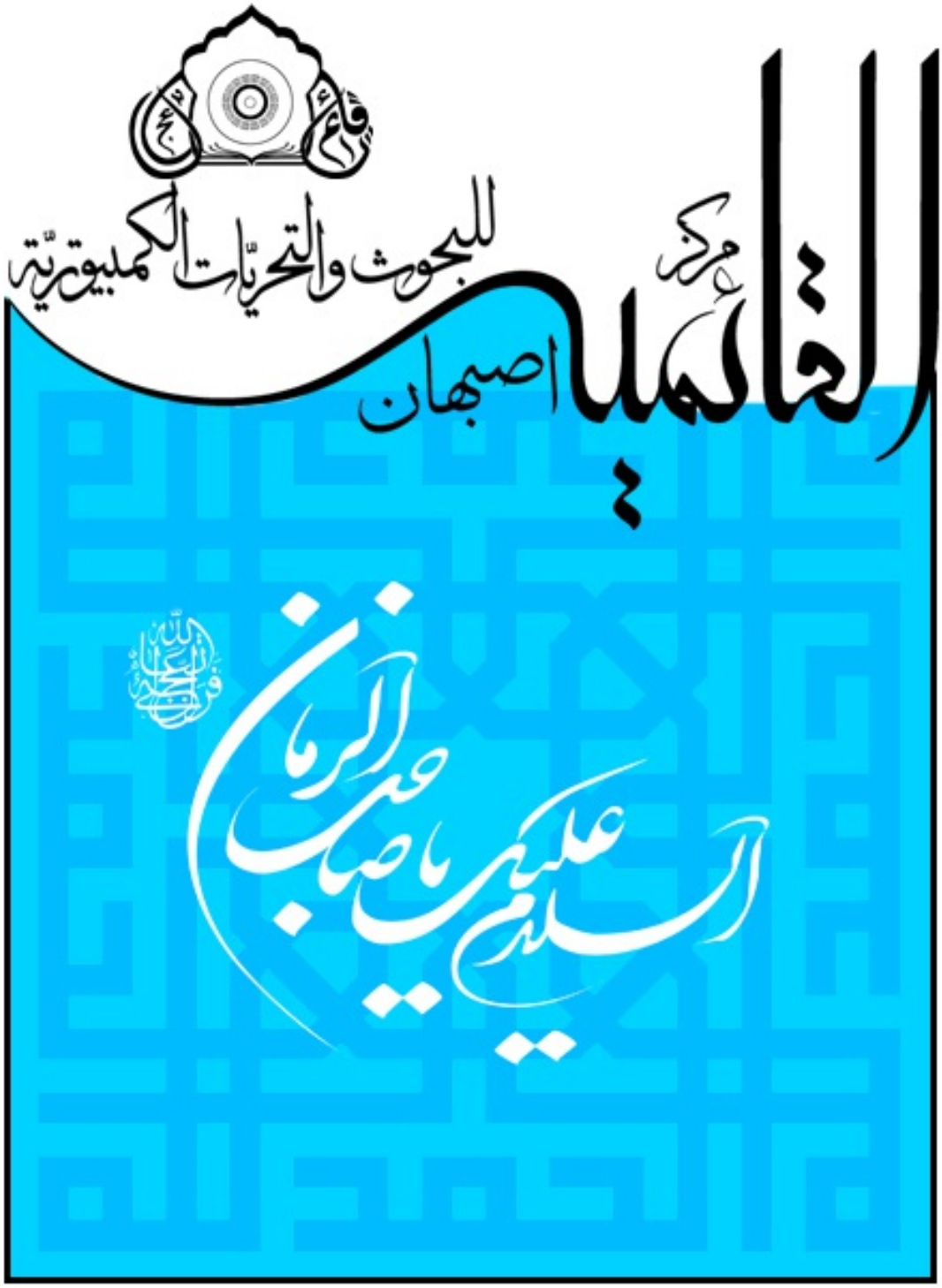

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

البداية للمبتدئين

الدكتور عبد العليم محمد

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

مناهج المفسرين

كاتب:

عبدالحليم محمود

نشرت فى الطباعة:

دارالكتاب المصرى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
مناهج المفسرین ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
المقدمة فی تعریف التفسیر و انواعه ----- ۱۲
الإمام سفیان الثوری و تفسیره ----- ۱۴
الإمام ابن قتیبة و تفسیره ----- ۱۷
معانی القرآن لأبی زکریا الفراء ----- ۲۰
الإمام سهل بن عبد اللّه التستری و تفسیره ----- ۲۳
اشارة ----- ۲۳
تفسیر سهل بن عبد اللّه التستری ----- ۲۴
الإمام الطبری و تفسیره ----- ۲۶
معانی القرآن للزجّاج ----- ۳۰
تحصیل نظائر القرآن للحکیم الترمذی ----- ۳۳
شیخ الحنفیة ببغداد الجصاص و تفسیره ----- ۳۷
اشارة ----- ۳۷
مؤلفاته ----- ۳۷
أحکام القرآن ----- ۳۷
منصب قضاء القضاة ----- ۳۷
تلامیذ الجصاص ----- ۳۸
تفسیر الجصاص «أحکام القرآن» ----- ۳۸
نموذج من أحکام القرآن ----- ۳۸
الحاکم النیسابوری و تفسیره ----- ۳۹
الامام السلمی و تفسیره ----- ۴۲

متشابه القرآن للقاضی عبد الجبار بن أحمد الهمدانی ----- ۴۴
الإمام القشیری و تفسیره لطائف الإشارات ----- ۴۷
شیخ الشافعیة ببغداد الکیا الهراس و تفسیره ----- ۵۰
اشارة ----- ۵۰
و أنشد الشریف ----- ۵۱
فتاویه ----- ۵۱
مؤلفاته ----- ۵۱
أحکام القرآن ----- ۵۱
اشارة ----- ۵۱
نموذج من «أحکام القرآن» ----- ۵۲
الواحدی النیسابوری و أسباب النزول ----- ۵۳
الکشاف عن حقائق التنزیل و عیون الأقاویل فی وجوه التأویل ----- ۵۵
اشارة ----- ۵۵
رحلته ----- ۵۶
ابن العربی و تفسیره (أحکام القرآن) ----- ۵۸
مؤلف هذا التفسیر هو ----- ۵۸
تفسیر ابن العربی: أحکام القرآن ----- ۶۰
تفسیر الإمام ابن الجوزی «زاد المسیر» ----- ۶۱
تقدیره ----- ۶۱
حیاته ----- ۶۲
شیوخه ----- ۶۲
الواعظ ----- ۶۳
مؤلفاته ----- ۶۳
و من تفسیره ----- ۶۴

تفسير ابن عطية ----- ۶۵
اشارة ----- ۶۵
و اليک نماذج من تفسير ابن عطية ----- ۶۷
تفسير الإمام البغوى ----- ۶۸
المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ----- ۷۱
الفخر الرازى و تفسيره ----- ۷۴
اشارة ----- ۷۴
مؤلفاته ----- ۷۵
تلامذة الرازى ----- ۷۶
نموذج من تفسيره ----- ۷۷
الإمام الطبرسى و تفسيره مجمع البيان لعلوم القرآن ----- ۷۸
تفسير الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه ----- ۸۱
الإمام أبو العباس المرسى و تفسيره ----- ۸۷
تفسير أبى العباس المرسى ----- ۸۹
أبو حيان الأندلسى و تفسيريه (البحر المحيط) و (النهر الماد) ----- ۹۱
اشارة ----- ۹۱
مؤلفاته ----- ۹۱
شعره ----- ۹۲
تفسير أبى حيان البحر المحيط، و النهر الماد- و منهجه فيهما ----- ۹۲
اشارة ----- ۹۲
نموذج من تفسيريه البحر المحيط، و النهر الماد (أولا: من البحر المحيط): ----- ۹۳
البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزملكانى ----- ۹۴
الإمام ابن تيمية و منهجه فى التفسير ----- ۹۸
اشارة ----- ۹۸

جهاده السیاسی ----- ۹۸
نقد ابن تیمیة ----- ۹۹
(تفسیر ابن تیمیة) ----- ۹۹
منهجه فی التفسیر ----- ۹۹
ابن جزی و کتابه التسهیل ----- ۱۰۲
اشارة ----- ۱۰۲
تفسیره ----- ۱۰۳
الإمام النسفی و تفسیره ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
مؤلفاته ----- ۱۰۶
صفاته ----- ۱۰۶
وفاته ----- ۱۰۶
تفسیر النسفی ----- ۱۰۶
ما یؤخذ علی تفسیره ----- ۱۰۷
نماذج من تفسیر النسفی ----- ۱۰۸
الإمام ابن کثیر و تفسیره ----- ۱۰۹
بصائر ذوی التمییز فی لطائف الکتاب العزیز للفیروز بادی ----- ۱۱۱
اشارة ----- ۱۱۱
المقصد الأول ----- ۱۱۲
«بصیرة»- أنا انزلناه ----- ۱۱۳
المتشابهات ----- ۱۱۳
فضل السورة ----- ۱۱۳
بصیرة فی الرزق ----- ۱۱۴
النیسابوری المتوفی سنة ۷۲۸ ه ----- ۱۱۴

اشارة ----- ۱۱۴
تفسیر النیسابوری ----- ۱۱۵
الإمام البیضاوی و منهجه فی التفسیر ----- ۱۱۷
الدر المنثور فی التفسیر بالمأثور للحافظ جلال الدین أبو الفضل عبد الرحمن بن أبی بکر السیوطی ----- ۱۱۹
الإمام أبو السعود و تفسیره ----- ۱۲۲
السراج المنیر للخطیب الشربینی ----- ۱۲۵
روح البیان فی تفسیر القرآن لاسماعیل حقی ----- ۱۲۷
فتح القدیر للإمام الشوکانی ----- ۱۳۰
الإمام الألوسی و تفسیره روح المعانی ----- ۱۳۳
اشارة ----- ۱۳۳
التفسیر ----- ۱۳۴
حاشیة الإمام الصاوی علی الجلالین ----- ۱۳۶
الإمام جمال الدین القاسمی و تفسیره محاسن التأویل ----- ۱۳۹
اشارة ----- ۱۳۹
طریقته فی التألیف ----- ۱۴۰
تفسیر القاسمی ----- ۱۴۰
نموذج من تفسیر القاسمی ----- ۱۴۳
الإمام محمد عبده و تفسیره ----- ۱۴۳
اشارة ----- ۱۴۳
تفسیره ----- ۱۴۵
الأستاذ رشید رضا و تفسیره ----- ۱۴۸
اشارة ----- ۱۴۸
مؤلفاته و آثاره ----- ۱۴۹
الخلافة ----- ۱۴۹

منهجه فی تفسیره ----- ۱۴۹
نموذج من تفسیره ----- ۱۵۰
تفسیر ابن بادیس ----- ۱۵۲
تفسیر جزء تبارک للشیخ عبد القادر المغربی ----- ۱۵۳
التحریر و التنویر للشیخ محمد الطاهر بن عاشور ----- ۱۵۶
الشیخ المراغی و تفسیره ----- ۱۵۸
تفسیر الشیخ محمود شلتوت ----- ۱۶۱
تاج التفاسیر لکلام الملک الکبیر للامام محمد عثمان المیرغنی ----- ۱۶۵
ضیاء الاکوان للشیخ احمد سعد العقاد ----- ۱۶۷
تفسیر محمد فرید وجدی ----- ۱۷۱
اشارة ----- ۱۷۱
ملامح من حیاته ----- ۱۷۳
و من نماذجه ----- ۱۷۴
تفسیر الألفاظ ----- ۱۷۴
تفسیر المعانی ----- ۱۷۵
التفسیر الواضح للشیخ محمد محمود حجازی ----- ۱۷۵
اشارة ----- ۱۷۵
المفردات ----- ۱۷۷
المعنی ----- ۱۷۸
و نموذج آخر ----- ۱۷۸
المفردات ----- ۱۷۸
المعنی ----- ۱۷۸
المنتخب فی تفسیر القرآن ----- ۱۷۹
اشارة ----- ۱۷۹

مميزات هذا التفسير ---------- ۱۸۰

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية ---------- ۱۸۱

مناهج المفسرين

اشارة

نام کتاب: مناهج المفسرين

سرشناسه : محمود، منيع عبدالحليم

Mahmud, Mani Abd al -Hahim

عنوان و نام پديدآور : مناهج المفسرين/ تاليف منيع عبدالحليم محمود

مشخصات نشر : قاهره : دارالکتاب المصری؛ بيروت: دارالکتاب اللبنانی، م ۲۰۰۰ = .ق ۱۴۲۱ = .۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری : ص ۳۹۲

وضعيت فهرست نويسی : فهرستنويسی قبلی

يادداشت : پشت جلد به‌انگليسی:Manahig al mufasireen.

موضوع : تفسير -- فن -- تاريخ

موضوع : مفسران

رده بندی کنگره : BP۹۱/۵/م۳م۸ ۱۳۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م ۸۰-۳۳۱۰۹

تاريخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱

نوبت چاپ: بی‌نا

المقدمة فی تعريف التفسير و انواعه

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم الحمد للّه رب العالمين و الصلاة و السّلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد و على آله و صحبه و من اتبع هديه إلى يوم الدين، و بعد:

فلقد حظى القرآن الكريم و هو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد- حظى بالتفاف أعلام الأمة الاسلامية حوله لفهم نصوصه المطهرة و العمل بما تتضمنه من أحكام عديدة فيها صلاح الحال و المآل لهذه الأمة الكبيرة.

ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ.

(سورة الأنعام الآية ۳۸) و لقد تنوعت المصادر التى استقى منها المفسرون مناهجهم لفهم كتاب اللّه لمحاولة التعرف على فهم دقائقه و إبرازها فى صورة لائقة لتكون فى متناول الإنسان المسلم الذى يحب كتاب اللّه تلاوة و فهما و العمل بما يحويه هذا الكتاب من خيرى الدنيا و الآخرة، و لقد اعتمد المفسرون على مصادر عديدة تحددت منها مناهجهم و تعددت بتعدد تلك المصادر.

و كان أهم تلك المصادر:

۱- ما أثر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى بيان معنى المجمل من القرآن و إيضاح المعنى القرآنى و تقريبه.

فعن ابن عباس قال: سأل رجل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

قال: أ رأيت قول اللّه:

كَما أَنْزَلْنا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ.

(سورة الحجر الآية ۹۰) قال: اليهود و النصارى.

قال: الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ! ما عضين؟

قال: «آمنوا ببعض و كفروا ببعض».

و قد فسر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الآية الكريمة:

هَلْ جَزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسانُ.

(سورة الرحمن الآية ۶۰) بقوله: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة.

و يروى أن أبا بكر قام فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ. (سورة المائدة الآية ۱۰۵) و إنا سمعنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم اللّه بعقابه. و أبو بكر رضى اللّه عنه يقول: يا رسول اللّه كيف الصلاح بعد هذه الآية؟

لَيْسَ بِأَمانِيِّكُمْ وَ لا أَمانِيِّ أَهْلِ الْكِتابِ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً. يُجْزَ بِهِ. (سورة النساء الآية ۱۲۳) فكل سوء عملنا يجزينا به؟

فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

مناهج المفسرين، ص: ۷

غفر اللّه لك يا أبا بكر، أ لست تمرض؟ أ لست تنصب؟ أ لست تحزن، أ لست تصيبك اللأواء؟

- قال: بلى.

- قال: فهو ما تجزون به.

و لقد عرف هذا النوع الذى برز فى تفسير بعض المفسرين بالتفسير بالمأثور، و من أهم مصادره التى يعتمد عليها (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور) للإمام جلال الدين السيوطى- حيث اعتمد على ما أثر عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و صحابته الأجلاء فى تقرير المعانى لكثير من آيات القرآن الكريم و من أبرزهم ابن عباس رضى اللّه عنهما الذى حظى بصحبة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خادما و متعلما مع حظوته بدعاء الرسول صلّى اللّه عليه و سلم فكان فقيه الأمة و حبرها الذى لا يجارى علما و فقها فى الدين و معرفة بالتأويل.

و لقد كان القرآن الكريم، و لا يزال محورا للثقافة الإسلامية منذ أن تألفت أمة بقيادة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم. جمعها على التوحيد للّه سبحانه و تعالى و خلافته فى الأرض، فرأى المسلمون فى آيات القرآن الكريم حثا على النظر و التأمل فيه و تدبر آياته:

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ، وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ. (سورة ص الآية ۲۹) أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ. (سورة محمد الآية ۲۴) و من ثم نشأ- زيادة على التفسير بالمأثور-: (التفسير بالرأى) القائم على التدبر و الفهم لكتاب اللّه سبحانه و تعالى و الاستعانة فى ذلك بالعلوم الخادمة لهذا الغرض الجليل و هى كثيرة تعددت و تنوعت فمنها علوم العربية نحوها و صرفها و بلاغتها و ما روى عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قولا و عملا و غير ذلك من العلوم الكثيرة.

مناهج المفسرين، ص: ۸

و اختلفت أنظار المفسرين و طرقهم و مناهجهم فى التفسير تبعا لاختلاف مشاربهم، فمنهم من غلبت عليه النزعة الفكرية العقائدية فتوسع توسعا كبيرا فى شرح الآيات المتصلة بهذه المعانى، و منهم من غلبت عليه النزعة الفقهية الشرعية فتوسع توسعا كبيرا فى هذه النواحى و هكذا من توسع فى القصص و الأخبار و من توسع فى الأخلاق و التصوف و المواعظ و آيات اللّه فى الأنفس و الآفاق و

غير ذلك.

كذلك كان من المفسرين من أطال و منهم من أوجز و اختصر و منهم من توسط بين هذا و ذاك.

و لقد ترك هؤلاء و هؤلاء ثروة علمية ضخمة. أبانت عن جهود أمة ..

خدمت كتاب ربها و عنيت به عناية فائقة ... لا يسبقها فى ذلك أمة .. حفظا و ضبطا و شرحا و استنباطا لمسائل الشريعة الغراء لتكون الأمة الإسلامية كما أراد اللّه لها خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف، و تنهى عن المنكر و تؤمن إيمانا حقيقيا باللّه سبحانه و تعالى.

و لم تقف الحركة الفكرية عند المسلمين يوما بالنسبة لكتاب اللّه سبحانه بخاصة فى هذا العصر الحديث الذى امتاز بالتقارب بين الأجناس، و تكاثرت وسائل الاتصال فيه بين الأمم و الشعوب و انتعشت فيه وسائل العمران البشرى على وجه العموم، و ما زالت هذه المناهج فى تفسير القرآن إلى الآن على ما كانت عليه فى السابق من تفسير بالمأثور، و تفسير بالرأى، و تفسير جامع بين المأثور و الرأى، و ما زال القرآن هو الكوكب الدرى الذى يضىء الطريق للساكنين، و ينشر ضياءه فى الخافقين، أما ما أضافه العلماء فى العصر الحاضر إلى ذلك، فهو ما يتصل بما أشار إليه القرآن الكريم من أفكار علمية، و حقائق كشف عنها التقدم فى عصرنا الحاضر، و يسرف بعض الناس فى ذلك فيحملون القرآن ما لا يحتمل أو يخرجون باللفظ عن معناه الذى يتطلبه السياق.

و على كل حال فهى- إن حسنت النية- محاولات فيها اجتهاد يسير فى إطار الآية القرآنية الكريمة:

مناهج المفسرين، ص: ۹

سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُ (سورة فصلت الآية رقم ۵۳) و سنعرض فى أحاديثنا التالية لجهود العلماء فى كشف أسراره و توضيح معانيه، و توجيه الأبصار إلى النور الذى يحتويه.

و لا يسعنا فى ختام هذه المقدمة إلا التوجه بالشكر لفضيلة الامام الأكبر دكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر حيث كان لى عظيم الشرف أن يكتب فى مناهج المفسرين عن:

۱- الإمام سفيان الثورى و تفسيره ۲- الإمام القشيرى و تفسيره.

۳- الإمام ابو الحسن الشاذلى و تفسيره ۴- الإمام ابو العباس المرسى و تفسيره فله عظيم الشكر و جزيل الامتنان دكتور: منيع عبد الحليم محمود مدرس التفسير و علوم القرآن كلية أصول الدين- جامعة الأزهر

مناهج المفسرين، ص: ۱۱

الإمام سفيان الثورى و تفسيره

ولد سنة سبع و تسعين، و خرج من الكوفة إلى البصرة سنة خمس و خمسين و مائة و توفى بالبصرة سنة إحدى و ستين و مائة.

و كان عالم هذه الأمة و عابدها و زاهدها.

و كان لا يعلم أحدا العلم حتى يتعلم الأدب و لو عشرين سنة.

و امتنع مرة من الجلوس للعلم، فقيل له فى ذلك، فقال:

و اللّه لو علمت أنهم يريدون بالعلم وجه اللّه لأتيتهم فى بيوتهم و علمتهم، و لكن إنما يريدون به المباهاة، و قولهم حدثنا سفيان.

و كان إذا جلس للعلم و أعجبه منطقه يقطع الكلام و يقوم و يقول:

أخذنا و نحن لا نشعر: و هذه منزلة فى الأخلاق و محاسبة النفس تعز على من رامها و تطول.

برز سفيان فى الحديث حتى وصل إلى أعلى مراتبه فكان: أمير المؤمنين فى الحديث- و كما أن للمؤمنين أميرا فى مسائل الدنيا فان للمحدثين أمراء و كان منهم سفيان.

كان أبوه من ثقات المحدثين، و كان من غير شك أول من لقن سفيان العلم، فنشأ سفيان- دون اختيار منه- بين كتب الحديث، و تفتحت عيناه على جو من العلم يتسم بعبير النبوة و تسوده جوامع الكلام، و اتجه آليا فى دراسته وجهة أبيه، و فى ذلك يقول هو:

(طلبت العلم فلم تكن لى نية ثم رزقنى اللّه النية).

أى أنه طلب العلم أولا بحكم العادة البحتة، ثم وفقه اللّه سبحانه لأنه يقصد به وجه اللّه.

مناهج المفسرين، ص: ۱۲

و لكن مما يجدر ملاحظته أن المحدثين إذ ذاك ما كانوا يأخذون على تدريس الحديث أجرا فلقد كانوا يتمثلون قوله تعالى:

قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرى لِلْعالَمِينَ.

(سورة الأنعام الآية ۹۰) و فى سبيل طلب العلم قدم له أهله كل معونة و هيئوا له ما يمكن- و هو نزر يسير- من المساعدة، و فى ذلك تقول أمه:

(يا بنى، أطلب العلم و أنا أعولك بمغزلى، و إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى فى نفسك زيادة فى الخير فان لم تر ذلك فلا تتعبن نفسك).

و يكفينا فى هذه الكلمة أن نأخذ منها:

۱- أن الجو الذى كان يعيش فيه سفيان كان جو تقشف.

۲- أن هذا الجو كان يتسم بالتقوى و الصلاح.

و نشأ سفيان بين «أب» من ثقات المحدثين، و أم تريد أن تعوله بمغزلها ليطلب العلم. من أجل زيادة النور فى قلبه.

و بدأ سفيان يتعلم اتباعا لأبيه، و استجابة لرغبة أمه.

و ما إن دخل دور الشباب حتى بدأ يفكر جديا فى أمر معيشته، يقول سفيان:

لما همت بطلب الحديث، و رأيت العلم يدرس، قلت: أى رب، إنه لا بد لى من معيشة، فاكفنى هم الرزق، و فرغنى لطلبه، فتشاغلت بالطلب فلم أر إلا خيرا و أعلنها فى صراحة صريحة:

عليك بعمل الأبطال: الكسب من الحلال، و الإنفاق على العيال.

و لما سئل عن الحلال ما هو؟ قال:

تجارة برة، أو عطاء من إمام عادل، أو صلة من أخ مؤمن، أو ميراث لم يخالطه شىء.

مناهج المفسرين، ص: ۱۳

و يوصى سفيان من عنده قدر من المال أن يصلحه أى يثمره، فيقول:

من كان فى يده من هذه التجارة شىء فليصلحه، فانه زمان من احتاج كان أول ما بذل دينه.

و من أجل كل ذلك طلب سفيان المال عن طريق التجارة، و سافر متاجرا.

و مع كل ذلك فما كان سفيان صاحب ثراء عريض، و ما كان ليتمنى أن يكون صاحب ثراء عريض لقد وهب نفسه للعلم و وهبها للعلم لوجّه اللّه سبحانه و تعالى، و ما كان هدفه من المال إلا حفظ ماء وجهه و من أجل ذلك لم يكن يستغرق فى التجارة و إنما كان يتاجر بقدر كسب ما يكفيه ثم يكرس باقى وقته للعلم.

كان سفيان الثورى معنيا بالقرآن عناية كبيرة، و لا يتأتى أن يكون الأمر على غير ذلك، فالقرآن فى حياة المسلم هو الأساس الأصيل الذى بدونه لا يكون اسلام، يقول الوليد بن عقبة:

كان سفيان الثورى يديم النظر فى المصحف، فيوم لا ينظر فيه يأخذه فيضعه على صدره.

و يقول عبد الرازق:

كان الثورى جعل على نفسه، لكل ليلة جزءاً من القرآن و جزءا من الحديث فيقرأ جزءا من القرآن ثم يجلس على الفراش فيقرأ جزءا من الحديث ثم ينام.

و كان سفيان يقول: سلونى عن التفسير و المناسك فإنى بهما عليم.

و من أجل عناية الثورى بالقرآن يقول الأوزاعى:

لو قيل لى اختر رجلا يقوم بكتاب اللّه و سنة نبيه صلّى اللّه عليه و سلم لاخترت لهما الثورى.

مناهج المفسرين، ص: ۱۴

و مع عناية الثورى بالتفسير فانه لم يفسر القرآن على الطريقة المعروفة الآن و هى تتبع القرآن من أوله سورة سورة. و آية آية، حتى ينتهى إلى آخره، دون أن يترك آية بدون تفسير.

كان سفيان- إذن- يفسر آية من هنا و آية من هناك ... إنه كان يفسر الآية التى تحتاج إلى نوع من الشرح و الإيضاح الذى يحتاجه بعض الناس لقصورهم فى اللغة، أو لقصورهم فى الثقافة.

و إذا فسر الإنسان القرآن كلمة كلمة، و آية آية ... و سورة سورة، على هذا النسق الحالى، فقد قيد القرآن- فى و همه و فى و هم من اتبعه- بفكرته بثقافته، بعقليته، بهواه إن كان صاحب هوى ...

و ما من شك فى أن أسلوب القرآن يتحكم فى المفسر، و لكن المفسر مهما حاول أن يستجيب إلى أسلوب القرآن فانه يجد مجالا للتأويل حتى يصل إلى ما يرى- بحسب مستواه- أنه حق.

و مع ذلك و مع كل ما قاله المفسرون مع قدماء و من محدثين، و رغم مئات الشروح التى وضعت للقرآن فان القرآن ما زال غضّا نضرا جديدا، فياضا بالمعانى، سيلا بالإلهامات، و من أجل هذه النضرة، و من أجل ترك أبواب الإلهامات يوحيها القرآن كل يوم لقارئه، لم يفسر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم القرآن كلمة كلمة، و سورة سورة، و إنما هى كلمة من هنا و آية من هناك، بحسب الظروف و المقتضيات ... و انظر مثلا كتاب التفسير فى صحيح البخارى أو فى صحيح مسلم أو فى غيره من كتب الصحاح فستجد أن تفسير رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إنما هو على ما ذكرنا ...

و لم يحاول كبار الصحابة تفسير القرآن على الوضع المألوف عندنا الآن، ذلك لأنهم كانوا يرون أن القرآن فى انطلاقه الموحى و فى نظرته الملهمة باستمرار، و فى تأثيره الروحى و الأخلاقى يجب أن لا تحده حدود، و أن لا تقيده قيود ذهنية بشرية.

و من أجل بقاء استمرار القرآن فياضا بالهداية، لا يحجب نبعه الصافى

مناهج المفسرين، ص: ۱۵

حجاب من مراء أو من جدل، التزم سلفنا الصالح الخطة المحكمة: تفسير كلمة من هنا أو آية من هناك، بحسب الظروف و الأحوال ...

و سار سفيان الثورى على نسقهم، بل إنه فى الأغلب الأعم من تفسيره التزم أن يعزو كل رأى الى صاحبه، و أحب من الذين تحدثوا فى التفسير طائفة معينة، و آثر من بين هذه الطائفة «مجاهد» ...

و لم يكن للثورى تفسير للقرآن معروف منشور، و كان الذين يتحدثون عن الثورى فيما يتعلق بتفسيره للقرآن انما يأخذون من ذلك متناثرات فى مختلف الكتب.

و لكن توفيق اللّه سبحانه و تعالى صاحب الأستاذ «امتياز على عرشى» مدير مكتبة رضا ببلدة رامبور بالهند، فعثر على تفسير القرآن الكريم للثورى، رواه أبو جعفر محمد عن أبى حذيفة النهدى عن الثورى فصححه و رتبه و علق عليه ...

بيد أن هذا التفسير الذى نشر فى سنة ۱۳۸۵ ه- ۱۹۶۵ م لم يستوعب آراء الثورى فى التفسير ففى جلية الأولياء و فى تفسير الطبرى و فى غير ذلك من الكتب كثير من آراء الثورى فى التفسير.

و لعلنا فی المستقبل نجد شبابنا الذین یشرعون فی کتابة رسائل الدکتوراة، أو یحبون البحث العلمی الجاد ینقبون عن آراء الثوری فی التفسیر، و ینشرون قدر المستطاع کل آراء الثوری فی التفسیر سواء صدرت عنه شخصیا أو اختارها من بین آراء الصحابة أو التابعین رضوان اللّه علیهم.

و الثوری له جوانب کثیرة خصبة تحتاج الی دراسة، فهو صاحب مذهب فقهی لا یقل فی عمقه و فی صدقه عن المذاهب المشهورة، و هو مذهب لم یجد من تلامیذ الثوری من یقوم علی نشره و هو منشور أیضا فی ثنایا کتب الفقه و التفسیر و الحدیث.

و لعلنا نجد من شبابنا من یقوم بمهمة جمع آراء الثوری فی الفقه، فیکون لنا مذهب اتباعی من أصدق المذاهب و أخلصها.

مناهج المفسرین، ص: ۱۶

و کان للثوری مسند فی الحدیث یحتوی علی آلاف من أحادیث رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم. و الثوری ثقة فی الحدیث، و لعلنا نجد أیضا من شبابنا من یتفرغ- ابتغاء مرضاة اللّه تعالی- لجمع أحادیث الثوری، و اعادة مسنده من جدید ...

نموذج من تفسیره:

عن مجاهد فی قوله عز و جل:

وَ تَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبابُ. (سورة البقرة الآیة ۱۶۶) قال: تواصلهم فی الدنیا.

و عن أبی جعفر فی قول اللّه تعالی:

وَ الْغارِمِینَ وَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِیلِ (سورة التوبة الآیة ۶۰) قال: الغارمین المستدینین بغیر فساد.

و ابن السبیل المجتاز من الأرض إلی الأرض.

و عن ابن عباس فی قوله تعالی:

أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْیاً. (سورة مریم الآیة ۷۴) قال: الأثاث المال، و الرئی المنظر.

و عن عکرمة قال: سئل ابن عباس:

أ کان اللیل قبل أو النهار ..؟ فقرأ:

أَ وَ لَمْ یَرَ الَّذِینَ کَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ کانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما. (سورة الأنبیاء الآیة ۳۰) ثم قال: هل کان بینهما إلا ظلمة؟ ذلک لیعلموا أن اللیل قبل النهار.

و عن مجاهد فی قوله:

سِیماهُمْ فِی وُجُوهِهِمْ. (سورة الفتح الآیة ۲۹) قال: الخشوع و التواضع ...

مناهج المفسرین، ص: ۱۷

الإمام ابن قتیبة و تفسیره

هو الإمام العالم الفاضل أبو محمد عبد اللّه بن مسلم بن قتیبة الدینوری و قیل المروزی، الإمام النحوی اللغوی المصنف فی فنون التفسیر و الحدیث و غیرهما من الفنون. ولد سنة ۲۱۳ ه.

و سکن بغداد، و حدث بها عن ابن راهویه، و تتلمذ لکثیر من المشاهیر کمسلم بن قتیبة والده، و القاضی یحیی بن أکثم و أبی حاتم السجستانی و شبابة بن سوار و الجاحظ.

و روی عنه ابنه أحمد و ابن درستویه و غیرهما، و أخذ عنه العلم کثیر من العلماء کأحمد بن مروان المالکی. و قاسم بن إصبغ الأندرسی و أبو القاسم عبد اللّه بن محمد الأزدی و غیرهم.

تولی ابن قتیبة قضاء الدینور مما یدل علی غزارة علمه وسعة فضله و تفرغ للبحث و الدراسة و الجمع و التحصیل، ثم مارس التألیف

فطال فيه باعه، و ظهر به فضله، و كان من كبار المجتهدين، و من مؤلفاته الهامة ما يلى:

أدب الكاتب.

عيون الأخبار.

تأويل الحديث.

تأويل مشكل القرآن.

غريب القرآن.

المعارف.

الشعر و الشعراء.

الاختلاف فى اللفظ و الرد على الجهمية.

مناهج المفسرين، ص: ۱۸

و يهمنا من هذه الكتب ما يتصل بالتفسير و علومه حيث تبدو خدمته للقرآن واضحة، و منهجه فى تأويل الكتب المتصلة بعلومه سليما غاية السلامة، نافعا كل النفع.

و قد تحدث ابن قتيبة فى كتابه تأويل مشكل القرآن عن القرآن فقال:- الحمد اللّه الذى نهج لنا سبيل الرشاد، و هدانا بنور الكتاب، و لم يجعل له عوجا، بل نزله قيما، مفصلا بينا.

لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. (سورة فصلت الآية ۴۲) و شرفه و كرمه، و رفعه و عظمه، و سماه روحه و رحمة، و شفاء، و هدى و نورا.

و قطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، أبانه بعجيب النظم عن جيل المتكلفين و جعله متلوا لا يمل على طول التلاوة، و مسموعا لا تمجه الآذان، و غضا لا يخلق على كثرة الرد و عجيبا لا تنقضى عجائبه، و مفيدا لا تنقطع فوائده .. و نسخ به سالف الكتب، و جمع الكثير من معانيه فى القليل من لفظه، و ذلك معنى قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

(أوتيت جوامع الكلم).

فإن شئت أن تعرف ذلك فتدبر قوله سبحانه:

«خذ العفو و أمر بالعرف و أعرض عن الجاهلين».

كيف جمع له بهذا الكلام كل خلق عظيم، لأن فى أخذ العفو صلة القاطعين و الصفح عن الظالمين، و إعطاء المانعين.

و فى الأمر بالعرف تقوى اللّه، وصلة الأرحام، و صون اللسان عن الكذب و غض الطرف عن الحرمات.

مناهج المفسرين، ص: ۱۹

و إنما سمى هذا و ما أشبهه عرفا و معروفا لأن كل نفس تعرفه، و كل قلب يطمئن إليه.

و يستطرد فى التمثيل لإيجاز القرآن فى اللفظ مع وفرة المعانى التى تدل عليها الألفاظ القليلة .. و مما ذكره فى ذلك قوله تعالى:

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَ لَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ؟ وَ مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تَهْدِى الْعُمْىَ وَ لَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ؟. (سورة يونس الآية ۴۲، ۴۳) كيف دل على فضل السمع على البصر، حين جعل مع الصمم فقدان العقل و لم يجعل مع العمى إلا فقدان النظر.

و كان من المنافحين عن لغة العرب، الكاشفين عن أسرارها، الموضحين لمزاياها و خصائصها و إنه يقول عن العرب و ما خصهم اللّه به من العارضة و البيان و اتساع المجال.

و إنما يعرف فضل القرآن من كثرة نظره، و اتساع علمه، و فهم مذاهب العرب و افتنانها فى الأساليب، و ما خص اللّه به لغتنا دون

جميع اللغات، فإنه ليس فى جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة و البيان، و اتساع المجال ما أوتيته العرب خصيص من اللّه لما أرهصه فى الرسول، و أراده من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله علمه، كما جعل علم كل نبى من المرسلين من أشبه الأمور بما فى زمانه المبعوث فيه:

و يطول بنا المقام لو استعرضنا ما ذكره من أمثلة على ذلك، و يكفينا هنا قوله:

مناهج المفسرين، ص: ۲۰

و لو أن قائلا قال: هذا قاتل أخى بالتنوين، و قال آخر: هذا قاتل أخى بالإضافة لدل التنوين على أنه لم يقتله، و دل حذف التنوين على أنه قد قتله:

و يتعرض ابن قتيبة لبعض المعانى المقصودة من الآيات التى عجز عن فهمها كثير من الناس، و ظن البعض أنها تعارض العقل.

و من أجمل ما ذكره فى ذلك ردا على ما قيل عن تكرار الكلام و الزيادة، و مما يقوله فى ذلك.

و أما تكرار الأنبياء و القصص، فإن اللّه تبارك و تعالى أنزل القرآن نجوما «أجزاء متفرقة» فى ثلاث و عشرين سنة، بفرض بعد فرض تيسيرا منه على العباد، و تدريجا لهم إلى كمال دينه، و وعظ بعد وعظ، تنبيها لهم من سنة الغفلة، و شحذا لقلوبهم بمتجدد الموعظة، و ناسخ بعد منسوخ، استعبادا لهم، و اختبارا لبصائرهم يقول اللّه عز و جل:

وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا.

(سورة الفرقان الآية ۳۲) الخطاب للنبى صلّى اللّه عليه و سلم و المراد و المقصود به بالتثبيت أنه هو و المؤمنون.

و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السّامة عليهم أى يتعهدهم بها عند الغفلة و دثور القلوب.

و لو أتاهم القرآن نجما واحدا لسبق حدوث الأسباب التى أنزله اللّه بها، و لثقلت جملة الفرائض على المسلمين، و على من أراد الدخول فى الدين، و لبطل معنى التنبيه، و فسد معنى النسخ، لأن المنسوخ يعمل به مدة ثم يعمل بناسخه بعده.

مناهج المفسرين، ص: ۲۱

و كيف يجوز أن ينزل القرآن فى وقت واحد. افعلوا كذا و لا- تفعلوا .. و لم يفرض اللّه على عباده أن يحفظوا القرآن كله، و لا- أن يختموه فى التعلم، و إنما أنزله ليعملوا بحكمه، و يؤمنوا بمتشابهه، و يأتمروا بأمره، و ينتهوا بزجره، و يحفظوا للصلاة مقدار الطاقة و يقرءوا فيها الميسور.

و كان أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و رضى اللّه عنهم و هم مصابيح الأرض، و قادة الأيام بمنتهى العلم، إنما يقرأ الرجل منهم السورتين و الثلاث و الأربع، و البعض و الشطر من القرآن الا نفرا منهم وفقهم اللّه لجمعه، و سهل عليهم حفظه ..

و كانت و فود العرب ترد على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فيقرئهم شيئا من القرآن فيكون ذلك كافيا لهم.

و كان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن الأنباء و القصص مثناة و مكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم، و قصة عيسى إلى قوم، و قصة نوح إلى قوم، و قصة لوط إلى قوم.

فأراد اللّه بلطفه و رحمته أن يشهر هذه القصص فى أطراف الأرض، و يلقيها فى كل سمع و يثبتها فى كل قلب، و يزيد الحاضرين فى الإفهام و التحذير ..

و ليست القصص كالفروض، لأن كتب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كانت تنفذ إلى كل قوم بما فرضه اللّه عليهم من الصلاة، و عددها و أوقاتها و الزكاة و سننها، و صوم شهر رمضان و حج البيت، و هذا ما لا تعرف كيفيته من الكتاب .. و لم تكن تنفذ بقصة موسى و عيسى و نوح و غيرهم من الأنبياء، و كان هذا فى صدر الإسلام قبل إكمال اللّه الدين، فلما نشره اللّه عز و جل فى كل قطر، و بثه فى آفاق الأرض، و علم الأكابر الأصاغر، و جمع القرآن بين الثقلين زال هذا المعنى و اجتمعت الأنباء فى كل مصر، و عند كل قوم ..

هذه بعض الملامح لتفكير ابن قتيبة و علمه فيما يتصل بالقرآن. و كل

مناهج المفسرين، ص: ۲۲

ما صدر منه فى ذلك ينبئ عن فكر ناضج، و علم واسع، و حرص على الروح العلمية السليمة، العاملة على كشف الشبهات، و إزالة الأباطيل، و بيان وجه الحق فيما تعرض له من شئون.

و كان ابن قتيبة معنيا بالرد على الشبه التى تثار حول النصوص الدينية و خاصة من المعتزلة و نحوهم ملتزما للمنهج العلمى فى ذلك، فاستحق ثناء العلماء عليه.

قال ابن خلكان:

كان فاضلا ثقة سكن بغداد، و حدث بها عن اسحاق بن راهويه و أبى اسحاق إبراهيم بن سفيان بن سليمان و أبى حاتم السجستانى و تلك الطبقة و تصانيفه كلها مفيدة.

و قال الذهبى فى المغنى عنه: صدوق.

و قال الخطيب: ثقة.

و كانت وفاته فجأة سنة ۲۷۶ ه، إذ أكل هريسة فأصابته حرارة فصاح صيحة شديدة ثم أغمى عليه، ثم أفاق، فما زال يتشهد حتى مات- اللّه و نفع بعلمه ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۳

معانى القرآن لأبى زكريا الفراء

كان والده زياد الأقطع محبا لآل البيت، متفانيا فى حبهم.

و كلمة «الأقطع» فى اسم والده هى و سام شرف ألحق باسمه بسبب حبه لآل البيت، فقد قطعت يده فى حربه مع سيد الشهداء الإمام الحسين رضى اللّه عنه:

و إذا كان هناك من يسمى: أمير المؤمنين فى الحديث- كسفيان الثورى- فإنه كان يحلو لثعلب العالم الكوفى الكبير أن يسمى الفراء: أمير المؤمنين فى النحو و هو لقب استحقه الفراء بجدارة.

و إذا كان قد بلغ القمة فى النحو، فإن ابن خالته هو محمد بن الحسن الفقيه الشيبانى صاحب أبى حنيفة كان قمة فى الفقه.

و من أظهر أساتذة الفراء: على بن حمزة الكسائى- فى النحو، و سفيان بن عيينة فى الفقه و الحديث.

و كان الفراء معنيا بعلم القراءات- و أجاده إجادة كبيرة و قد أخذه عن الكسائى، و محمد بن حفص.

و هذه العقلية التى تمحضت- أو كادت- لدراسة علوم اللغة و النحو و ما إليهما لا يأتى أن يكون عندها الاستعداد الفطرى لعلم الكلام و لكن طموح الفراء أبى إلا- أن يحاول إتقان علم الكلام فاخفق و ذلك لأن طبيعته هى طبيعة النحويين، و عن ذلك يقول أديب العربية أبو عمرو الجاحظ:

«دخلت بغداد سنة أربع و مائتين حين قدم إليها المأمون- و كان الفراء يحبنى، و يشتهى أن يتعلم شيئا من علم الكلام، فلم يكن له فيه طبع.

مناهج المفسرين، ص: ۲۴

لقد أخفق فى دراسة علم الكلام، و لكنه كان يحب أن يشتهر بالاعتزال و الفلسفة، و ليس له فيهما قدم.

و أما تظاهره بذلك، فإنما كان تقربا للمأمون. فإنه ما كان أحد يتقرب منه إلا إذا كانت له ميول اعتزالية، و مرن لسانه على استعمال مصطلحات فلسفية.

و مع إخفاقه فی علم الكلام، فإنه برع فی علوم كثيرة، يقول ثمامة بن اشرس- و هو من أئمة المعتزلة، و كان مقربا من المأمون- يقول عن الفراء:

رأيت له أبهة أدب فجلست إليه، فناقشته عن اللغة، فوجدته بحرا و عن النحو، فشاهدته نسيجا وحده، و عن الفقه: فوجدته فقيها عارفا باختلاف القوم، و فی النجوم: ماهرا، و بالطب: خبيرا، و بايام العرب و اشعارها: حاذقا.

و اشتهر الفراء و ذاع صيته، فاستدعاه الرشيد، و أنس له، و جنی الفراء من وراء ذلك ثروة و منزلة فألف التردد على أبواب الأمراء و الملوك فقد اتصل بالمأمون، و يروى المؤرخون له أن المأمون عهد إليه أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو، و ما سمع من العرب، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار. و وكل بها جوارى، و خدما للقيام بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه، و لا تتشوق نفسه إلى شیء حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، و صير له الوراقين، و الزمه الأمناء و المنفقين، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود، و أمره المأمون بكتبه فی الخزائن.

و أنس المأمون به كما أنس الرشيد، و أدناه المأمون إلى درجة أن و كل إليه تعليم أبنائه و مع أنه كان يتردد على أبواب الأمراء و الوجهاء و الملوك، فقد كانت له ميزات حسنة نذكر منها:

أنه كان متقشفا بطبيعته، و كان المال الذى يأتيه فی أثناء العام يجمعه إلى موعد معين يفارق فيه بغداد إلى الكوفة، حيث أهله و عشيرته فيمكث بالكوفة

مناهج المفسرين، ص: ۲۵

أربعين يوما بين أهله و عشيرته يتفقد أحوالهم و يتودد إليهم و ينفق عليهم ما ادخره أثناء العام، ثم يعود من جديد إلى بغداد ...

وصلة الأرحام من أنفس القربات فی دين الإسلام الحنيف و من الأمور التی تذكر بالخير للفراء هذا الموقف الكريم.

يروى ابن النديم خبرا يحكيه أبو العباس ثعلب أن السبب فی إملاء الفراء «الحدود» هو أن جماعة من أصحاب الكسائی صاروا إليه و سألوه أن يملی عليهم أبيات النحو ففعل، فلما كان المجلس الثالث قال بعضهم لبعض: إن دام هذا على هذا علم النحو الصبيان و الوجه أن يقعد عنه:

فغضب و قال: سألونی القعود- يعنی للمحاضرة و الإملاء- فلما قعدت تأخروا، و اللّه لأملئن النحو ما اجتمع اثنان- فأملی ذلك ست عشرة سنة! و وثق به المأمون و بعلمه، فاتخذه معلما لاولاده.

و نأتی الآن إلى (كتاب المعانی) و يذكر ثعلب أن السبب فی تأليفه أن عمر بن بكير كان من أصحابه، و كان منقطعا إلى الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن بن سهل ربما سألنی عن الشیء بعد الشیء من القرآن فلا يحضرنی فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لی أصولا، أو تجعل فی ذلك كتابا أرجع إليه فعلت! فقال الفراء لأصحابه:

اجتمعوا حتى أملی عليكم كتابا فی القرآن- و جعل لهم يوما حضروا فخرج إليهم، و كان فی المسجد رجل يؤذن و يقرأ بالناس فی الصلاة و كان يكتب عن الفراء الوراقون- و هم تجار الكتب- و مع أن عدد من كان يحضر الدرس لا يكاد يحصى فإن الذى حرص على الكتابة هم: الوراقون و لما انتهى الفراء من الإملاء خزن الوراقون الكتاب ليبيعوه بثمن مرتفع جدا، و شكا الناس إلى الفراء فاحضر الوراقين و أخذ يتحدث معهم فی خفض ثمن النسخ فلم يفلح معهم و ذلك لجشعهم.

مناهج المفسرين، ص: ۲۶

لقد أعلنوا أنهم ينسخون الخمس و رقات بدرهم، و لم يجد معهم الحديث الإنسانی! و عند ذلك أعلن الفراء أنه سيملی من جديد، و بدأ فعلا، و جاء الناس باقلامهم و محابرهم و لما رأى الوراقون ذلك أتوا إلى الفراء و رضوا أن ينسخوا كل عشر ورقات بدرهم، و تم الاتفاق على ذلك.

و عن هذا التفسير يقول ثعلب:

«لم يعمل أحد قبله مثله، و لا أحسب أن أحدا يزيد عليه».

و قد كان من الطبيعي أن الفراء كان مهمّا- و في الدرجة الأولى- بالنحو كعلم له خطره. من بين العلوم، ثم استخدمه في تفسير القراءات و تعليل وجوهها من العربية و يمكن أن يقال ان اهتمامه الزائد بالقراءات هو الذي جعله يهتم اهتماما مماثلا- بالنحو! و القراءات ليست علما للعلم فقط. و إنما هي مرتبطة بالمعنى ارتباطا وثيقا، و من هنا كان اهتمام كثير من المفسرين بها.

و كما اهتم بالقراءات و بالنحو، فإنه اهتم بأسباب النزول و اهتم من قبل ذلك و من بعد بجمال الأسلوب القرآني، و بالمعنى اهتماما كبيرا، و ما كان ذلك إلا من أجل الدقة في بيان المعنى لتقريره.

نماذج من تفسيره:

و نذكر هنا عددا من النماذج المختصرة:

ففي مجال اهتمامه بتوجيه القراءات و ما تدل عليه من معنى يذكر في تفسير قوله تعالى من سورة النجم.

الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَ الْفَواحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ.

(الآية ۳۲) يقول: قرأ يحيى بن وثاب «كبير» و فسر عن ابن عباس أن كبير الإثم هو: الشرك فهذا موافق لمن قرأ «كبير الاثم» بالتوحيد- يعني: الإفراد دون

مناهج المفسرين، ص: ۲۷

الجمع «كبائر»- ... ثم يقول الفراء: و قرأ العوام: كبائر الإثم و الفواحش- فيجعلون كبائر كأنه شيء عام و هو في الأصل واحد، و كاني استحب لمن قرأ «كبائر» أن يخفض «الفواحش» ... قال الفراء: و ما سمعت أحدا من القراء خفض «الفواحش» ...

و عن جمال الأسلوب القرآني الذي يكشف عنه الفراء نجد تفسيرا لقوله تعالى:

وَ الْعادِياتِ ضَبْحاً، فَالْمُورِياتِ قَدْحاً ... فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً .... (سورة العاديات الآية ۱، ۲، ۴،) قال: يريد به الوادي- و لم يذكر «الوادي» قبل ذلك و هو جائز لأن الغبار لايثار إلا من موضع. و إن لم يذكر إذا عرف اسم الشيء كني عنه، و إن لم يجر له ذكر.

قال اللّه تعالى:

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ. (سورة القدر الآية ۱) يعني القرآن و هو مستأنف سورة، و ما استأنفه في سورة إلا كذكره في آية قد جرى ذكره فيما قبلها كقوله حم وَ الْكِتابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنْزَلْناهُ.

و قال تبارك و تعالى:

إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوارَتْ بِالْحِجابِ. (سورة ص الآية ۳۲) يريد: الشمس، و لم يجر لها ذكر.

و في مجال اهتمام الفراء بالصناعة النحوية نجد له بعض النوادر الجملية.

ففي قوله تعالى:

مناهج المفسرين، ص: ۲۸

وَ إِذا مَسَّ الْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ، ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ.

(سورة الزمر الآية ۸۰) يقول الفراء: نسي ما كان يدعو إليه: ترك الذي كان يدعوه إذا مسه الضر، يريد اللّه تبارك و تعالى.

فإن قلت فهلا قال: نسي من كان يدعوه، قلت: إن «ما» قد تكون في موضع «من» قال اللّه تبارك و تعالى:

قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ. وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ. (سورة الكافرون الآية ۱، ۲، ۳،) يعني اللّه تبارك و تعالى.

و قال عز و جل.

فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ.

(سورة النساء الآية ۳) فهذا وجه و به جاء التفسير- و مثيله: «أن تسجد لما خلقت بيدي» و قد يكون نسي ما كان يدعو إليه يراد به:

نسى دعاءه إلى اللّه عز و جل من قبل، فإن شئت جعلت الهاء فى قوله «إليه».

و إن شئت جعلتها للّه عز و جل، و كل مستقيم ...

نفع اللّه الناس بتفسير الفراء و بعلمه الغزير.

و صلى اللّه و سلم و بارك على سيدنا محمد و آله و صحبه.

مناهج المفسرين، ص: ۲۹

الإمام سهل بن عبد اللّه التسترى و تفسيره

اشارة

من أعلام العلماء، و ائمة التصوف، الزاهد الورع، و العابد المتقشف، أبو محمد سهل بن عبد اللّه التسترى، ولد فى تستر بالأهواز سنة ثلاث و مائتين من الهجرة و عاش فى القرن الثالث الهجرى، ذلك القرن الذى حفل بالأئمة الكبار فى كل فن من الفنون.

نشأ سهل فوجد امامه فى جنح الليل خاله محمد بن سوار، قائما يتبتل إلى اللّه و يضرع إليه و يناجيه، يصلى فى خشوع؛ و يدعو فى خضوع، و يقضى الليل ساهرا فى عبادة خاشعة آسرة، جذبت سهلا إليه، و ربطته به، و حببته فيه.

و مرت أيام فإذا بالخال يقول:

يا سهل: أ لا تذكر اللّه الذى خلقك؟

قال سهل: يا خال، كيف أذكره؟

فقال الخال: قل بقلبك عند تقلبك فى ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك: «اللّه شاهدى، اللّه معى، اللّه ناظر إلى» يقول سهل: فقلت ذلك ثلاث ليال ثم أعلمته به، فقال لى: قل فى كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته، فقال: قل فى كل ليلة: احدى عشرة مرة، فقلت ذلك، فوضع فى قلبى له حلاوة، فلما كان بعد سنة قال لى خالى:

احفظ ما علمتك و دم عليه إلى أن تدخل القبر فانه ينفعك فى الدنيا و الآخرة.

مناهج المفسرين، ص: ۳۰

و استمر سهل على ذلك سنين، و وجد حلاوة للعبادة، و أحس بهذه الحلاوة تملأ جوانحه و تسرى بين كل ثنايا شعوره، و تملك عليه جميع أقطار نفسه، و لما تعود الذكر و تمرس به و أصبح له وردا، و أصبح له غذاء، توجه إليه خاله قائلا:

يا سهل: من كان اللّه معه، و هو ناظر إليه، و شاهده، أ يعصيه؟

إياك و المعصية؟

و لكن كيف يتجنب المعصية و هى أمامه فى كل شىء إنها فى الطريق، إنها فى العمل إنها فى كل مجال. إن عليه أن يهئ نفسه و يعدها اعدادا كاملا للخير، و من أجل ذلك اعتزل، و تفرغ للعبادة و التهجد و الذكر و كان لا يزال صغيرا لم يذهب إلى الكتاب بعد ..

و أرسلوه إلى الكتاب، فاشترط ان يكون ذهابه ساعة من نهار حتى لا ينفرط عقد عبادته، و لا يتشتت ذهنه.

و ذهب إلى الكتاب. و ضم إلى العمل العلم، و إلى الذكر فيوضات الخير النابعة من داخل القلب، لقد حفظ القرآن، و تفقه فى امور الشرع لقد حفظ القرآن و هو ابن ست سنين، و شغله الذكر و الاستغراق فى العبادة عن متطلبات الحياة المادية العادية.

لقد تغذى بالذكر فخف احتياجه إلى ما سواه، و كان يكتفى بخبز الشعير، و كان يأكل أقل القليل منه.

يقول الإمام ابن عربى، صاحب الفتوحات المكية ..

رحل إلى عبادان، و توجه إلى شيخ من كبار الشيوخ، فسأله عن مسألة فأجابه، فأعجب به، و لزم خدمته، و أقام عنده مدة ينتفع بكلامه و يتأدب بآدابه، و لما حصل ما شاء اللّه له من علوم الشيخ عاد إلى تستر، و اشتهر فى مقام الزهد و التهجد و العبادة.

مناهج المفسرين، ص: ۳۱

ثم أخذ فى السياحة إلى شتى الأقطار، و رحل إلى كثير من البلدان، و قابل العديد من الأولياء و العلماء.

لقد حصل العلم بسلوكه، و حصل العلم بتلقيه و مدارسته. لقد ضم إلى الشريعة الحقيقة، و استمرت سياحته سنين، و عاد إلى تستر ... عاد إليها على نور من ربه، و بدأ دعوته إلى اللّه على هدى و بصيرة، و لم يبدأ الدعوة إلى اللّه إلا بعد أن أذن اللّه له.

يقول صاحب كتاب صفة الأولياء و مراتب الأصفياء:

ذكر سهل التسترى، و هو ابن سبع سنين و ساح فى طلب العلم و هو ابن تسع سنين و كانت تلقى مشكلات المسائل على العلماء ثم لا يوجد جوابها إلا عنده و هو ابن إحدى عشرة سنة، و حينئذ ظهرت عليه الكرامات.

و بلغ سهل النضوج العلمى و النضوج الروحى بتوفيق اللّه تعالى بعد جهاد و مجاهدة بعد ذكر و عبادة، بعد صوم و سياحة، و حينما أذن اللّه له فى الدعوة إليه، أخذ يدعو إلى اللّه على بصيرة، و يرسم الطريق إليه على هدى.

و لم تقتصر دعوته إلى اللّه على التربية و تعليم السلوك، و لم تقتصر دعوته على القول و الموعظة الحسنة، لقد ترك مؤلفات قيمة فى مجالات متعددة، و شارك فى أنواع من العلوم- و من أشهر كتبه ..

رقائق المحبين.

مواعظ العارفين.

جوابات أهل اليقين.

قصص الأنبياء.

هذا فضلا عن تفسيره المشهور.

و لقد امتاز سهل بتعظيمه للسنة، و بتعظيمه للشريعة.

لقد ذهب إلى أبى داود- صاحب السنن زائرا- و استقبله أبو داود فى

مناهج المفسرين، ص: ۳۲

احترام و اعزاز. و قبل سهل فم أبى داود، لأنه ينطق بالسنة و يلغها للناس.

و أبان سهل بذلك عن تواضع جم، و احترام عميق للسنة و لمن يخدمون السنة.

و من كلماته الحكيمة الدالة على كمال الاقتداء:

«ما عبد اللّه بشىء أفضل من مخالفة الهوى» «ما أعطى أحد شيئا أفضل من علم يستزيد افتقار إلى اللّه» و كانت وفاته بالبصرة سنة ثلاث و ثمانين و مائتين بعد حياة مباركة، رحمه اللّه و نفع به.

مناهج المفسرين، ص: ۳۳

تفسير سهل بن عبد اللّه التسترى

هذا التفسير من التفاسير التى تمثل بحق التفسير الصوفى للقرآن الكريم.

فمؤلفه له القدم الثابته فى مجال السلوك الصوفى القائم على أساس من الشريعة و الاقتداء بالرسول صلّى اللّه عليه و سلم.

و قد تكلم على بعض آيات من القرآن مبينا ما ألهمه بشأنها.

و قد جمع أقواله أبو بكر بن أحمد فى كتاب «عرف» بتفسير التسترى، و هو هذا التفسير الذى نعرفه الآن، و الذى طبع فى كتاب

متوسط الحجم باسم .. «تفسير القرآن العظيم».

و الناظر فى هذا التفسير- يلمح عليه دلائل التفسير الصوفى المستقيم، و يرى فيه تحقيق قول المؤلف ..

«أصولنا سبعة .. التمسك بكتاب اللّه تعالى، و الاقتداء بسنة رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أكل الحلال، و كف الأذى، و اجتناب الآثام، و التوبة، و أداء الحقوق.

لقد سار سهل فى إطار القرآن، و عرف ما قاله الأئمة أو كثير من الأئمة فى تفسير الآيات، و لكن القرآن لا يمكن أن يحيط أحد بأقطاره، و لا يمكن أن تكون المعانى اللغوية الضيقة هى كل ما عبر عنه القرآن، إنها- إن عبرت- فإنها تعبر عن ظاهر.

و لكن القرآن الكريم ليس هو ما يظهر للناظر منذ الوهلة الأولى.

إن وراء ظاهره أسرارا لا تتعارض مع هذا الظاهر، و لكنها توضحه و تجعله نافذا إلى القلوب جاذبا للنفوس، آسرا للأرواح. إنها ما عبر عنه الرسول صلّى اللّه عليه و سلم بقوله:

مناهج المفسرين، ص: ۳۴

(لكل آية ظهر و بطن، و لكل حرف، حد و مطلع) و يرى سهل أن ظاهر الآية التلاوة، و باطنها الفهم، و حدها الحلال و الحرام و مطلعها: اشراق القلب على المراد بها فقها من اللّه عز و جل، فالعلم الظاهر علم عام و الفهم لباطنه، و المراد به خاص، قال تعالى:

فَما لِهؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً (سورة النساء الآية ۷۸) «أى لا- يفقهون خطابا. و تفسيره على هذا الأساس يتجه إلى بيان بعض ما تشتمل عليه الآيات من إشارات، و ما تدل عليه من الهامات. فيبرز بعض ما يفهمه من دلائل هذه الآيات.

و قد تحدث كثير من العلماء عن هذا النوع من التفسير.

و يرى إمام ابن الصلاح أن ما ورد عن الصوفية المعتبرين من التفسير لم يذكره الصوفى على أنه تفسير للآية و لا ذهب به مذهب الشرح لها، و إنما ذلك ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن فإنه النظير يذكر بالنظير.

أما ابن عطاء السكندرى الصوفى الشهير فإنه يوضح المفهوم الحقيقى لهذا النوع من التفسير «التفسير الصوفى» فيقول:

اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام اللّه و كلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة لظاهر عن ظاهره، و لكن ظاهر الآية مفهوم منه، ما جلبت له الآية و دلت فى عرف اللسان، و ثم افهام باطنه تفهم عند الآية و الحديث لمن فتح اللّه قلبه، و قد جاء فى الحديث:

«لكل آية ظهر و بطن» ثم يرد على من يقول:

إن فى هذا النوع من التفسير إحالة لكلام اللّه و كلام رسوله و صرفا لهما عن معانيهما و ما يقصد بهما، فيقول:

مناهج المفسرين، ص: ۳۵

ليس ذلك بإحالة، و إنما يكون إحالة لو قالوا:

لا معنى للآية إلا هذا و هم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها، موضوعاتها و يفهمون عن اللّه تعالى ما أفهمهم.

هذا هو الذى نراه فى هذا النوع من التفسير كتفسير سهل بن عبد اللّه.

ان سهلا لم يقم بتفسير تقليدى، يتبع فيه القرآن، و يؤلف فيه تفسيرا شاملا يجمع ما استطاع جمعه من المعانى اللغوية و الشرعية و الأخلاقية و الكونية، و ما إلى ذلك من المجالات التى تحدث عنها القرآن.

لقد تحدث عما أحس به من آثار وقوع الآية على قلبه، و ما نضح به شعوره المؤمن فى هذا المجال، و لم يقل إن هذا تفسير كما يقول المفسرون و لم يقل إنه التفسير الوحيد الذى لا تقبل الآية سواه.

على أن سهلا- رحمه اللّه- لم يقتصر فى تفسيره على الجانب الإشارى من القرآن الكريم.

لقد ذكر فى أحيان كثيرة المعنى الظاهر للآية، و الذى شاركه فيه أكثر المفسرين قبل أن يذكر المعى الإشارى أو بعض ما يرى أنه

المعنى الإشارى؟

و لقد اقتصر فى أحيان أخرى على المعنى الظاهر، و لم يتحدث عن معنى إشارى و فى أحيان أخرى اقتصر على المعنى الإشارى لوضوح المعنى الظاهر أو شهرته متداولا بين الناس.

أنظر إليه عند تفسير قوله تعالى:

ظَهَرَ الْفَسادُ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ. (سورة الروم الآية ۴۱) يقول:

«مثل اللّه الجوارح بالبر، و مثل القلب بالبحر و هو أعم نفعا و اكثر خطرا» هذا هو باطن الآية، أ لا ترى أنه سمى قلبا لتقلبه و بعد غوره.

و هذا التفسير صغير الحجم، سهل المأخذ، يحوى الكثير من الإشارات

مناهج المفسرين، ص: ۳۶

اللطيفة التى لا تخالف ظاهر القرآن، و من الممكن أن تكون مما يشير إليه لفظ الآية، و يحتمله معناها.

و قد جمع فيه كثيرا من حكايات الصالحين و أخبارهم، و وجه الأنظار كثيرا إلى ما يذكر النفوس و يطهر القلوب و يسوق إلى الصلاح

و من نماذجه الطيبة:

سئل سهل عن قوله تعالى:

وَ لكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِما كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وَ بِما كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ. (سورة آل عمران الآية ۷۹) قال محمد بن سوار:

الربانى الذى لا يختار على ربه أحدا سواه و هو اسم مشتق من الربوبية:

و قال سهل: الربانيون هم العالون فى الدرجة من العلم بالعلم كما قال محمد بن الحنفية لما مات عبد اللّه بن عباس رضى اللّه عنهما:

لقد مات هذا اليوم ربانى هذه الأمة و إنما نسب إلى الرب لأنه عالم من علمه، كما قال:

«من أنبأك هذا»؟ قال: نبأنى العليم الخبير فنسبه إلى النبوة بما علمه اللّه عز و جل، و كل من أنباك بخبر موافق للكتاب و السنة فهو منبئ.

و قال عمر بن واصل: الربانيون هو المجموعون من العلماء، كما قال على رضى اللّه عنه:

الناس ثلاثة: عالم ربانى، و متعلم على سبيل النجاة، و همج رعاع أتباع كل ناعق.

قوله سبحانه:

وَ تَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ.

(سورة الفرقان الآية ۵۸)

مناهج المفسرين، ص: ۳۷

سئل ابن سالم عن التوكل و الكسب بأيهما تعبد الخلق؟

قال: التوكل حال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و الكسب سنته، و إنما سن الكسب لهم لضعفهم حين أسقطوا عن درجة التوكل الذى هو حاله، فلم يسقطهم عن درجة طلب المعاش بالكسب الذى هو سنة، و لو لا ذلك لهلكوا ..

قال سهل: من طعن فى الكسب فقد طعن فى السنة، و من طعن فى التوكل فقد طعن فى الإيمان.

مناهج المفسرين، ص: ۳۹

الإمام الطبرى و تفسيره

إذا ما جئنا بالحديث عن ابن جرير الطبرى و تفسيره فقد جئنا شيخ المفسرين بلا منازع لقد كان ابن جرير أديبا ذا أسلوب- يندر أن يصل إليه فحول الأدباء، لا تحس حينما تقرأه بتكلف أو تصنع بل تحس بالبلاغة و الفصاحة تنساب انسياب الماء الرقراق، أو تهدر

هدير الأعصار المجتاح، و فى كلا الأمرين تكون بصدد الاسلوب المتقن الآسر.

و كان ابن جرير فقيها. صاحب مذهب فى الفقه، يؤسفنا أن لم يعن به أحد و هذا المذهب الفقهى يصلح أن يعنى به أحد طلبة الدكتوراة فيكون رسالة نفيسة تفيد العلم و تلقى بأضواء نفاذة فى الفقه الإسلامى.

و كان ابن جرير مؤرخا من كبار المؤرخين، و له تاريخه المستفيض المشهور، و كان محدثا من كبار المحدثين، لقد كان أمة وحده.

و لنسر معه فى تسلسل حياته و فى أقوال العلماء عنه و عن تفسيره، فيكون ذلك تفصيلا لما ذكرناه.

هو الإمام المفسر المؤرخ أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ...

ولد بآمل سنة خمس و عشرين و مائتين، و اتجه منذ بواكير حياته إلى طلب العلم و دراسة علوم الدين، فحفظ القرآن و هو ابن سبع سنين، و كتب الحديث و هو ابن تسع سنين، و رحل فى طلب العلم إلى كثير من مدن الإسلام ملتقيا بعلمائها، متعرفا على أخبارها، متزودا مما تذخر به من ألوان الثقافة، حتى توفر له من المراجع و المعارف ما مكنه من تأليف الكتب النافعة الجامعة التى خلدت اسمه، و رفعت ذكره، و وضعته فى مكانه البارز بين علماء الإسلام.

مناهج المفسرين، ص: ۴۰

لقد رحل إلى الرى فسمع بها محمدا بن حميد الرازى و غيره من مشاهير المحدثين.

ثم انتقل عنها إلى البصرة فسمع محمدا بن المعلى. و محمدا بن بشار المعروف ببندار ..

ثم رحل إلى الكوفة فسمع من هناء بن السرى، و أبى كرب محمد بن العلاء الهمدانى و انتهى به المسير فى بلاد العراق إلى بغداد فنهل مما تذخر به من علم. و استفاد مما تحتوى عليه من ألوان الثقافة الدينية.

و تجاوز بغداد إلى الشام فقرأ القرآن على العباس بن الوليد البيرونى بقراءة الشامين و استفاد منه ...

ثم انتهى به المسير إلى مصر فلقى بها من مشاهير العلماء محمدا بن عبد اللّه بن الحكم و المزنى و محمدا بن اسحاق بن خزيمة و تلاميذ بن وهب.

و عاود رحلة العودة إلى طبرستان ثم انقطع للتدريس ببغداد حتى وافته منيته فى عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر و ثلاثمائة.

دفن فى داره برحبة يعقوب و لم يغير شيبه ...

صنف الكثير من الكتب مثل.

كتاب التفسير.

و كتاب التاريخ.

و كتاب اختلاف الفقهاء.

و كتاب تهذيب الآثار و تفصيل الثابت عن رسول اللّه من الأخبار و هو الذى سماه القفطى شرح الآثار.

و كتابه ذيل المذيل ..

مناهج المفسرين، ص: ۴۱

و قد طبع تفسيره و تاريخه و شطر من كتاب اختلاف الفقهاء و مختارات من ذيل المذيل ..

و قد استفاض العلماء فى الحديث عن ملامح شخصيته و معالم حياته فى شتى الجوانب و مختلف الاتجاهات.

و قال الخطيب:

كان ابن جرير أحد الأئمة. يحكم بقوله، و يرجع إلى رأيه، لمعرفته و فضله، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، فكان حافظا لكتاب اللّه بصيرا بالمعانى فقيها فى أحكام القرآن، عالما بالسنن و طرقها، صحيحها و سقيمها. و ناسخها و منسوخها. عارفا بأقوال الصحابة و التابعين، و من بعدهم من المخالفين فى الأحكام، و مسائل الحلال و الحرام عارفا بأيام الناس و أخبارهم.

و قال أبو العباس بن سريج:

(محمد بن جرير الطبرى فقيه العالم): أما عن تفسيره فقد ظهر فيه:

۱- تحرزه قبل تأليفه.

۲- و نشاطه فى إعداده.

۳- و سروره بإتمامه.

لقد ظهر تحرزه فى قوله استخرت للّه تعالى فى عمل كتاب التفسير، و سألته العون على ما نويته ثلاث سنين قبل أن أعمله، فأعانني ..

و ذكر المؤرخون أنه حدث نفسه بهذا التفسير و هو صبى، و استخار اللّه فى عمله، و سأله العون على ما نواه ثلاث سنين قبل أن يعمله، فأعانه سبحانه.

ثم لما أراد أن يملى تفسيره قال لأصحابه:

(أ تنشطون لتفسير القرآن؟) ...

قالوا و كم يكون قدره؟ ..

مناهج المفسرين، ص: ۴۲

فقال: ثلاثون ألف ورقة.

فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه، فاختصره لهم فى ثلاثة آلاف ورقة ..

و الناظر فى هذا التفسير يلمح ما بذله ابن جرير من جهد كبير فى إتمامه، لقد اعتنى فيه بجمع الآثار، و تحقيق الأخبار، و مدلولات اللغة، و أحكام الشرع، و أبدى رأيه مرجحا و موضحا و فاتحا المجال للاجتهاد و الاختيار ..

و قد قدم لتفسيره بعد الحمد و الثناء و الصلاة على خاتم الأنبياء فقال: ثم أما بعد: فإن من جسيم ما خص اللّه به أمة نبينا محمد صلّى اللّه عليه و سلم من الفضيلة، و شرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة، و حباهم به من الكرامة السنية، حفظه ما حفظ عليهم- جل ذكره و تقدست أسماؤه- من وحيه و تنزيله، الذى جعله على حقيقة نبوة نبيهم صلّى اللّه عليه و سلم دلالة، و على ما خصه به من الكرامة علامة واضحة، و حجة بالغة، أبانه به من كل كاذب و مفتر، و فصل به بينهم و بين كل جاحد و ملحد و فرق بينهم و بين كل كافر و مشرك، الذى لو اجتمع جميع من بين أقطارها جنها و إنسها، و صغيرها و كبيرها، على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا .. فجعله لهم فى دجى الظلم نورا ساطعا، و فى سدف الشبه شهابا لامعا و فى مضلة المسالك دليلا هاديا و إلى سبل النجاة و الحق حاديا ...

يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.

(سورة المائدة الآية ۶۱) حرسه بعين منه لا- تنام، و حاطه بركن منه لا- يضام، لا تهى على الأيام دعائمه و لا تبيد على طول الأزمان معالمه، و لا يجوز عن قصد المحجة تابعه. و لا يضل عن سبل الهدى مصاحبه، من اتبعه فاز و هدى و من حاد عنه ضل و غوى، فهو موئلهم الذى إليه عند الاختلاف يئلون و معقلهم الذى

مناهج المفسرين، ص: ۴۳

إليه فى النوازل يعقلون، و حصنهم الذى به من وساوس. الشيطان يتحصنون و حكمة ربهم التى إليها يحتكمون، و فصل قضائه بينهم الذى إليه ينتهون، و عن الرضا به يصدرون و حبله الذى بالتمسك به من الهلكة يعتصمون ..

ثم تحدث عن بعض مهمات تتعلق بالقرآن بين يدى تفسيره ..

فتحدث عن إتقان معانى اى القرآن و معانى منطق من نزل بلسانه القرآن من وجه البيان و الدلالة على أن ذلك من اللّه تعالى ذكره هو الحكمة البالغة، مع الإبانة عن فضل المعنى الذى به باين القرآن سائر الكلام.

ثم فصل القول فى البيان عن الأحرف التى اتفقت فيها ألفاظ العرب و ألفاظ غيرها من بعض أجناس الأمم ..

ثم تكلم عن اللغة التى نزل بها القرآن من لغات العرب.

ثم تحدث عن قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أنزل القرآن من سبعة أبواب الجنة و ذكر الأخبار الواردة بذلك .. ثم فصل القول فى الوجوه التى من قلبها يوصل إلى معرفة تأويل القرآن.

ثم ذكر بعض الأخبار التى رويت بالنهى عن القول فى تأويل القرآن بالرأى.

ثم ذكر الأخبار التى رويت فى الحض على العلم بتفسير القرآن و من كان يفسره من الصحابة ..

ثم ذكر الأخبار التى غلط فى تأويلها منكرو القول فى تأويل القرآن.

ثم ذكر الأخبار عن بعض السلف فيمن كان من قدماء المفسرين محمودا علمه بالتفسير و من كان منهم مذموما علمه به فمن المحمودين ابن عباس يقول عبد اللّه بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس». و من المحمودين أيضا مجاهد يقول الثورى: «إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسك به» أما الذين لم يكن لهم فى التفسير قدم راسخة فمنهم الكلى و كنت أمر عليه طرفى النهار

مناهج المفسرين، ص: ۴۴

و لم أكتب عنه و منهم ابو صالح باذان، كان الشعبى رضى اللّه عنه يمر به.

فيأخذ بأذنه فيعركها و يقول:

[تفسر القرآن و أنت لا تقرأ القرآن].

ثم ذكر القول فى تأويل أسماء القرآن و سوره و آية.

و انتقل بعد ذلك إلى التفسير.

و هو فى تفسيره يبدى رأيه ثم يستشهد عليه بالآثار و الأخبار مستعينا فى ذلك بقواعد و أقوال السابقين ..

فعن تأويل قوله تعالى:

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ. (سورة البقرة الآية ۲۱) قال: فأمر جل ثناؤه الفريقين اللذين أخبر اللّه عن أحدهما أنه ...

سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ.

(سورة البقرة الآية ۶) لطبعه على قلوبهم و على سمعهم.

و عن الآخر أنه يخادع اللّه و الذين آمنوا بما يبدى بلسانه من قبله: آمنا باللّه و باليوم الآخر، مع استبطانه خلاف ذلك، و مرض قلبه، و شكه فى حقيقة ما يبدى من ذلك و غيرهم من سائر خلقه المكلفين .. بالاستكانة و الخضوع له بالطاعة، و أفراد الربوبية له و العبادة دون الأوثان و الأصنام و الآلهة، لأنه جل ذكره هو خالقهم و خالق من قبلهم من آبائهم و أجدادهم، و خالق أصنامهم و أوثانهم و آلهتهم فقال لهم جل ذكره: فالذى خلقكم و خلق آباءكم أجدادكم و سائر الخلق غير كم و هو يقدر على ضركم و نفعكم أولى بالطاعة ممن لا يقدر لكم على نفع و لا ضر.

و كان ابن عباس فيما روى لنا عنه يقول فى ذلك نظير ما قلنا فيه، غير أنه

مناهج المفسرين، ص: ۴۵

كان يقول فى معنى «اعبدوا ربكم».: وحدوا ربكم ... و قد دللنا على أن معنى العبادة الخضوع للّه بالطاعة و التذلل بالاستكانة ... و الذى أراد ابن عباس- ان شاء اللّه- بقوله فى تأويل قوله (اعبدوا ربكم) و حدوه، أى أفردوا الطاعة و العبادة لربكم دون سائر خلقه.

حدثنا محمد بن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال اللّه:

يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكَمُ للفريقين جميعا من الكفار و المنافقين، أى و حدوا ربكم الذى خلقكم و الذين من قبلكم ..

ثم قال:

و هذه الآية من أدل دليل على فساد قول من زعم أن تكليف ما لا يطاق إلا بمعونة اللّه غير جائز إلا بعد إعطاء اللّه المكلف المعونة على ما كلفه، و ذلك أن اللّه أمر من وصفنا بعبادته و التوبة من كفره بعد إخباره عنهم أنهم لا يؤمنون، و انهم عن ضلالتهم لا يرجعون.

و قوله (لعلكم تتقون) تأويله: لعلكم تتقون بعبادتكم ربكم الذى خلقكم و طاعتكم إياه فيما أمركم به و نهاكم عنه و افراد كم له العبادة لتتقوا، سخطه و غضبه أن يحل عليكم، و تكونوا من المتقين الذين رضى عنهم ربهم:

و كان مجاهد يقول فى تأويل قوله: «لعلكم تتقون» تطيعون ..

حدثنا ابن وكيع قال: حدثنى أبى عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله (لعلكم تتقون) قال: لعلكم تطيعون ..

قال أبو جعفر: و الذى أظن أن مجاهدا أراده. بقوله هذا لعلكم أن تتقوا ربكم بطاعتكم إياه، و إقلاعكم عن ضلالتكم ....

من هنا استحق كتاب جامع البيان عن تأويل القرآن للطبرى ثناء العلماء، فقال ابن خزيمة:

مناهج المفسرين، ص: ۴۶

نظرت فيه من أوله إلى آخره و ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير و لقد ظلمته الحنابلة.

و قال أبو حامد الأسفرائنى:

لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيرا و قال القفطى:

لم ير أكبر من تفسير الطبرى و لا أكثر فوائد.

و قال السيوطى:

كتاب الطبرى فى التفسير أجل التفاسير و أعظمها فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال و ترجيح بعضها على بعض و للإعراب و للاستنباط، فهو يفوق بذلك تفاسير الأقدمين.

و قال السيوطى:

(جمع فى تفسيره بين الرواية و الراى) و لم يشاركه فى ذلك أحد قبله و لا بعده.

و انتهت به الحياة كما قال ابن كامل عشية الأحد ليومين بقيا من شوال سنة عشر و ثلاثمائة، و دفن فى دار برحبة يعقوب، و لم يغير شيبه، و كان السواد فى رأسه و لحيته كثيرا، و كان أسمر إلى الأدمة أعين، نحيف الجسم مديد القامة فصيحا، و اجتمع عليه من لا يحصيه إلا اللّه تعالى، و صلى على قبره عدة شهور ليلا و نهارا، ورثاه خلق كثير من أهل الدين و الأدب قال ابن دريد:

إن المنية لم تتلف به رجلابل أتلفت علما للدين منصوبا

كان الزمان به تصفو مشاربهو الآن أصبح بالتكدير مقطوبا

كلا و أيامه الغر التى جعلتللعلم نورا و للتقوى محاريبا «رحم اللّه ابن جرير الطبرى، و نفع بعلمه:

مناهج المفسرين، ص: ۴۷

معانى القرآن للزجّاج

بدأ القرآن بالبحث عن العلم، و كانت أول كلمة فى الوحى هى:

«اقرأ».

و أخذ المسلمون يندفعون حول العلم اتباعا لتوجيه القرآن الكريم، حتى و لو لم يكن عند البعض منهم الجو المهيأ لدراسة العلم.

و هـذا واحـد هو نموذج لفئة كبيرة من أمثاله، لم تكن ظروفهم الأولى مواتية للتفرغ للعلم، و لكنه جاهد و ثابر، و بذل كل ما يستطيع حتى احتل المكانة التى يتمتع بها العلماء من جاه و ثراء.

إنه أبو إسحاق الزجاج:

نشأ فى بيئة متواضعة فى القرن الثالث، الهجرى سنة إحدى و أربعين و مائتين من الهجرة، و لكنها ذات خلق كريم فاضل، و هيأته البيئة الأولى إلى أن يعمل فى الزجاج، و من هنا كانت نسبته المشهورة «الزجاج» التى يعرف بها بين كبار العلماء و الأعلام.

كـان يخرط الزجـاج، و قبل ذلك كان قـد حصل شـيئا من العلم، فكان يشـتغل أثناء فراغه بالتعليم، و لاحظ فى نفسه ميلا شديـدا إلى دراسـة النحو فكـان يقتصـد من قوته، و يشترى من الوراقين بعض ما يمكنه من إرواء رغبته فى كتب النحو، يسـهر فى دراسـتها ليله، و يقرأ فيها أثناء فراغه نهارا.

و لما رأى نفسه معدة للفهم و التلقى عن العالم الكبير أحمد بن يحيى المعروف بثعلب «النحو» على مذهب أهل الكوفة- فأخذ الزجاج ينظم وقته بحيث يحضر درس هذا العالم الشهير.

ثم بعد ذلك انتقل إلى عالم كبير هو أبو العباس المبرد صاحب كتاب

مناهج المفسرين، ص: ۴۸

الكامل الذى صارت شـهرته فى الآفاق- و ثقف الزجاج من ثقافته الواسعة حتى أخذ فى الظهور و اتسعت شهرته لعلمه الغزير و لخلقه الكريم، و أدبه الجم، و عقيدته السليمة.

و قد استدعاه الوزير عبيد اللّه سليمان بن وهب، و تحدث إليه فرأى علما غزيرا، و أدبا رفيعا، و نفسا متواضعة فلم يزده علمه إلا تواضعا و أدبا. إنه العلم النافع.

و أخـذ الوزير يسـتدعيه من آن لآـخر، و فى كـل مرة يزداد إعجـابه حتى إذا مـا وثق به تمامـا و كـل إليه تعليم ابنه القاسم- فن الأدب العربى.

و مضت السـنوات، و جاء الوقت الـذى تولى الوزارة فيه: القاسم بن عبيـد اللّه تلميـذ الزجاج الوفى- فأغـدق على الزجاج ما جعله ينعم بحياة أكثر ترفا و نعيما.

و لم تصرف هذه الحياة الزجاج عن الاستمرار فى طلب العلم، بل ربما مكنته من الإزدياد فى طلبه، و كان شعاره هو الشعار الإسلامى: رَبِّ زِدْنِى عِلْماً. (سورة طه الآيـة ۱۱۴) و أخـذت- لذلك- شـهرته تنتشـر و تذيع، حتى طلبه الخليفة العباسـى المكتفى باللّه و انخرط الزجاج فى مجلس المكتفى باللّه، و رأى المكتفى منه ما رآه الوزير من علم غزير و أدب كريم فجعله نديما من ندمائه.

و أقبلت على الزجـاج الـدنيا من أوسع أبوابهـا، و لكن ذلك لم يصـرف الزجاج عن وجهته، و إنما كان يجلس مـدرسا، و التف حوله العلماء يسمعون و يستفيدون، و تتلمذ له كبار العلماء.

و كان من تلاميذه: أبو على الفارسـى، صاحب الشـهرة الكبيرة فى اللغة و الأدب، و تتلمذ عليه الكثيرون الذين كان لهم الأثر البالغ فى النحو و اللغة.

و من أنفس ما ألفه الزجاج هو كتابه فى تفسير القرآن:

لقد كتبه فى فترة بلغ فيها قمة النضج الفكرى من حياته، و استغرق هذا التفسير حوالى ست سنوات و تفسيره هذا يمتاز بأمرين:

مناهج المفسرين، ص: ۴۹

أحـدهما: أنه تفسـير بالمأثور، و ذلك أن الزجاج يـذكر الآيـة، ثم يروى فيها ما أثر عن أسـلافنا رضوان اللّه عليهم، و لكنه لا يذكر ما روى فيهـا دون اختيـار و انتقـاء، و إنمـا يختـار الأحسن و الأوفق الـذى يتفق مع ما يراه يتمشـى مع الأسـلوب العربى السـليم و مع الجو الإسلامى العام، فتفسيره بالمأثور لم يكن مجرد جمع عن السابقين، و إنما كان إيرادا على روية و تدبير و تفكير.

أما الأمر الثانی الذی برع فیه الزجاج فهو: التخریج النحوی للآیات الکریمة التی تحتاج إلی إیضاح نحوی، و من هنا کان الزجاج یروی رغبته فی استمتاع بادائها ..

و الکتاب یطبع الآن لاول مرة فی طبعة محققة تحقیقا متقنا، و ذلک ما یقوم به الدکتور عبد الجلیل شلبی من علماء الأزهر، و قد أخرج منه جزءین کبیرین، و سیخرج الباقی تباعا إن شاء اللّه و کان لهذا التفسیر أثره الکبیر فیمن أتی من المفسرین من بعد:

لقد تأثر به مثلا صاحب کتاب «الکشاف» «الذی کان معنیا بالنحو و البلاغة.

و کما ناقش الزجاج من کتبوا قبله من معانی القرآن، أو کتبوا فی مجازه و بلاغته، فإن تلمیذ الزجاج الامام: أبو علی الفارسی قد أخذ نفسه- مع إعجابه باستاذه- یتتبع کل ما أری أن استاذه أخطأ فیه، سواء کان الخطأ صریحا أو خلاف الأرجح.

ثم أخذ یعرضها مسألة مسألة، ثم یعرض رأیه هو فیها محللا و ناقدا لها.

و قد سمی کتابه اسما له مغزاه، لقد سماه: «الاغفال» و کان مؤدبا فی التسمیة مراعاة إلی استاذه، أنه یرید أن یقول:

إن ما لاحظه مجرد إغفال من استاذه، و قال فی أوائل هذا الکتاب «الاغفال» هذه الکلمات المهذبة:

هذه مسائل من کتاب أبی إسحاق فی اعراب القرآن ذکرناها لما اقتضت

مناهج المفسرین، ص: ۵۰

عندنا من الایضاح عنها للإغفال الواقع فیها ...، و نحن ننقل کلامه فی کل مسألة من هذه المسائل بلفظه و علی جملته عن النسخة التی سمعناها منه فیها ثم نتبعه بما عندنا ...»

و مع هذا الأسلوب المهذب قد یتساءل إنسان فیقول:

ما دام أبو علی الفارسی سمع التفسیر من الزجاج فلم لم یناقشه اثناء الشرح و السماع؟ و الجواب عن ذلک:

قد تکون هیبة الزجاج هی التی منعته من ذلک و لکن الأقرب فی الإجابة أن الفارسی لم یکن إذ ذاک قد وصل فی النضج العلمی إلی الدرجة التی تمکنه من الملاحظات علی استاذه فلما نضج بمرور الزمن رأی من الوفاء علیه لاستاذه أن ینبه علی «الاغفال» و ها هی نماذج من تفسیره: لقوله عز و جل:

یُؤْتِی الْحِکْمَةَ مَنْ یَشاءُ (سورة البقرة الآیة رقم ۲۶۹) معنی «یؤتی» یعطی، و الحکمة فیها قولان: قال بعضهم هی النبوة، و یروی عن ابن مسعود أن الحکمة هی القرآن، و کفی بالقرآن حکمه، لان الأمة به صارت علماء جیلا بعد جیل، و هو وصلة إلی کل علم یقرب من اللّه عز و جل، و ذریعة إلی رحمته، و لذلک قال اللّه تعالی:

وَ مَنْ یُؤْتَ الْحِکْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً (سورة البقرة الآیة رقم ۲۶۹) و معنی وَ ما یَذَّکَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ أی ما یفکر فکرا یذکر به ما قص من آیات القرآن إلا أولوا الألباب، أی ذووا العقول.

مناهج المفسرین، ص: ۵۱

و قوله عز و جل: الَّذِینَ یَذْکُرُونَ اللَّهَ هذا من نعت أولی الألباب، أی فهؤلاء یستدلون علی توحید اللّه- عز و جل- بخلقه السموات و الأرض و أنهم یذکرون اللّه فی جمیع أحوالهم «قیاما و فعودا و علی جنوبهم».

معناه و مضطجعین، و صلح فی اللغة أن یعطف بعلی علی «قیاما و قعودا» لان معناه ینبئ عن حال من أحوال تصرف الإنسان، تقول: أنا أسیر إلی زید ماشیا و علی الخیل. المعنی ماشیا و راکبا فهؤلاء المستدلون علی حقیقة توحید اللّه یذکرون اللّه فی سائر هذه الأحوال.

و قد قال بعضهم: یَذْکُرُونَ اللَّهَ قِیاماً وَ قُعُوداً وَ عَلی جُنُوبِهِمْ (سورة آل عمران الآیة ۱۹۱). أی یصلون علی جمیع هذه الأحوال علی قدر امکانهم فی صحتهم و سقمهم.

و حقیقته عندی- و اللّه أعلم- انهم موحدون اللّه فی کل حال.

مناهج المفسرين، ص: ۵۳

تحصيل نظائر القرآن للحكيم الترمذى

إننا نعجل فنورد فى مطلع الحديث عن الحكيم الترمذى قوله:

(ما صنفت حرفا عن تدبير، و لا لينسب إلى شىء من المؤلفات، و لكن كان إذا اشتد على وقتى اتسلى به ..).

لقد تثقف فى اللغة و الدين و الحكمة كأحسن ما يكون التثقيف، و التزم العبودية للّه سبحانه و تعالى أخلص ما تكون العبودية، لما توفر له العاملان الأساسيان لكل مرب و مصلح: الثقافة و تزكية النفس، و أخذ يجاهد فى سبيل اللّه، داعيا العبيد الآبقين إلى الدخول من جديد فى ساحة الرضوان، ليتكفل اللّه بهم، و ليرعاهم، و ليسعدوا فى دنياهم و فى آخرتهم:

و فاضت عنه الحكمة جذابة وضاءة زكية، فاضت عنه حديثا، و فاضت عنه سلوكا و فاضت عنه كتابة و بحثا و تأليفا فى مختلف الميادين الدينية، يقول عنه الإمام الشعرانى: و هو من كبار مشايخ خراسان، و له التصانيف المشهورة و كتب الحديث ..

ثم يروى الإمام الشعرانى بعض أقواله: نذكر منها قوله: دعا اللّه الموحدين للصلوات الخمس رحمة منه عليهم، و هيأ لهم فيها ألوان الضيافات لينال العبد من كل قول و فعل شيئا من عطاياه سبحانه و تعالى، فالأفعال كالأطعمة و الأقوال كالأشربة، و هم عرش الوحدانية.

و كان رضى اللّه عنه يقول:

(صلاح الصبيان فى المكتب، و صلاح قطاع الطريق فى السجن، و صلاح النساء فى البيوت).

أما الإمام القشيرى فإنه يقول عنه:

مناهج المفسرين، ص: ۵۴

(من كبار الشيوخ، و له تصانيف فى علوم القوم).

الواقع أنه لم يكن له التصانيف فى علوم القوم (و القوم هنا هم الصوفية) فحسب، و إنما كانت له كتب كثيرة فى كثير من الفنون المختلفة.

و منذ زمن بعيد و الناس- كبارا و صغارا- متأثرون به نقدا أو إعجابا.

و من الكتب التى كان يدرسها الإمام ابو الحسن الشاذلى و الإمام أبو العباس المرسى كتاب: «ختم الأولياء».

و كتاب ختم الأولياء للحكيم الترمذى، كتاب أقام الجو الثقافى و أقعده حين صدوره و كان سببا فى صعوبات كثيرة اعترضت المؤلف بسبب الآراء التى احتوى عليها.

و هو كتاب أثار اهتمام الإمام الأكبر محيى الدين بن عربى اثارة كبرى.

فافرد له كتابا خاصا ثم افرد له صفحات من كتاب الفتوحات و حاول ان يجيب على ما ورد فيه من اسئلة و وضع نفسه بهذا موضع، الاختبار و هو من هو فلسفة و حكمة و علما و تصوفا، و وضع نفسه بهذا موضع التحدى و كانه يقول:

ها أنا ذا أجيب على الاسئلة متحديا فيما يتعلق بصحة الإجابة.

لقد كان الشاذلى يلقى دروسا فى شرح هذا الكتاب و لقد بلغ من روعة هذه الدروس ان كان ابو العباس المرسى يحرص كل الحرص على حضورها لما كان لها فى نظره من الأهمية و حينما يكون على سفر فى شأن من شئون الدعوة، فإنه يلتمس كل وسيلة تمكنه من حضورها.

و لقد كان كتاب ختم الأولياء مفقودا إلى عهد قريب، ثم عثر الأستاذ عثمان يحيى عليه فطبعه فى بيروت طبعة محققة مع دراسة عن الترمذى.

و يقول ابن عطاء اللّه السكندرى- رضى اللّه عنه- عن أبى العباس المرسى:

(و كان هو و الشيخ أبو الحسن كل مهما يعظم الإمام الربانى محمد ابن على الترمذى، و كان لكلامه عندهما الخطوة التامة .. و كانا يقولان أنه أحد الأوتاد الأربعة).

مناهج المفسرين، ص: ۵۵

و من كتبه التى أثارت ضجة كبرى أيضا كتاب: (علل العبودية .. أو علل الشريعة).

و من الناس من يقول: ان الأحكام لا تعلل، و إن اللّه سبحانه يذكر الأحكام معللا لها أحيانا، فنعرف علتها نصا، و يترك سبحانه فى الأغلب الأعم التعليل، فنأخذ بالأحكام و لا نتساءل عن التعليل، و العبودية التزام ما أتى به الوحى: التزامه دون فتور أو تباطؤ، أو تردد و دون محاولات للتعليل.

فلما أخرج الإمام الحكيم هذا الكتاب ثار عليه هؤلاء و رموه بالانحراف.

و ألقى الحكيم بنفسه فى معركة الفكر السائدة فكتب من الكتب فى ذلك:

۱- الرد على الرافضة، فأثار الرافضة ضده- (الرافضة هم الشيعة) ۲- الرد على المعطلة، و المعطلة هم المعتزلة، فأثار المعتزلة ضده.

و كتب كتبا كثيرة متعددة، أثارت جدلا و نقاشا، و ثورة فكرية فى المجتمع الإسلامى، و من الكتب التى لها صلة بكتابنا الذى نقدمه الآن كتاب: (الفروق و منع الترادف).

و فكرة الكتاب تقوم على أن الترادف غير موجود فى اللغة العربية، فليس هناك لفظتان بمعنى واحد، و هذا رأى يخالفه فيه كثيرون، و ليس هو الرأى العادى، و لم يبال الترمذى بما يشيع عنه الناس، و إنما كتب فى ذلك مبرهنا، ممثلا، فاثار بذلك أيضا جدلا فى الأوساط اللغوية.

و الكتاب الذى نقدمه هو تفسير للقرآن فى زاوية خاصة جدا هى زاوية بيان أن القرآن خال من المترادفات، و ان كل كلمة فيه لها أصلها اللغوى الذى يختلف عن الأصل اللغوى للكلمات التى تشابهها.

و طريقته: إن يأتى بالأصل اللغوى للكلمة ثم يورد ما يمكن أن يكون فى تيارها من كلمات قريبة المعنى منها، مبينا الفرق و لو كان يسيرا.

و لقد أتى من أجل ذلك بمجموعة من المصطلحات القرآنية، و أخذ فى تفسيرها و بيان أصلها و ما تختلف به عما يشابهها من الكلمات و حديثنا النظرى

مناهج المفسرين، ص: ۵۶

هذا عن الكتاب يوضحه الأمثلة التى نوردها و هاك نموذجا من تفسيره يقول:

۱- المال: و إنما صار الخير فى هذا المكان «المال» لأنه خير الدنيا و نعيمها، فالاختيار واقع عليه و لذلك سمى (خيرا).

۲- الايمان و الإسلام: و انما سمى الخير «الإسلام و الايمان» فى مكان آخر: لأنه مختاره للآخرة.

۳- الوفاء و الإمامة: إنما صار الخير: الوفاء و الإمامة فى مكان آخر.

فذاك لاختيار اللّه اياه.

۴- السعة و الغنى: و إنما صار الخير «السعة و الغنى» فى مكان آخر فذاك مختاره للدنيا.

۵- السرور: و إنما صار الخير «السرور» فى مكان آخر: لأنه مختاره على الأشياء. أ. ه. و نموذج آخر من تفسيره: يقول:

«الهدى» فقد جاءت على ثمانية عشر وجها. فالحاصل من هذه الكلمة: كلمة واحدة فقط، و ذلك ان الهدى: هو الميل، و يقال فى اللغة:

رأيت فلانا يتهادى فى مشيته، أى يتمايل. و منه قوله تعالى:

إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ (سورة الاعراف الآية رقم ۱۵۶) أى ملنا اليك، و منه سميت الهدية: هدية: لأنها تميل بالقلب الى مهديها. و أن القلب امير على الجوارح، فاذا هداه اللّه لنوره، أى اماله إليه لنوره: اهتدى، أى: استمال، و قد قال فى تنزيله.

يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشاءُ (سورة النور الآية ۳۵) فهذا أصل الكلمة، ثم وجدنا تفسير الهدى:

۱- البيان: فانما صار الهدى بيانا فى ذلك المكان، لأن البيان اذا أوضح على القلب بنور العلم: مد ذلك النور القلب إلى ذلك الشىء و أماله إليه.

۲- الاسلام: و انما صار الهدى فى المكان الآخر (الإسلام) لأنه اذا

مناهج المفسرين، ص: ۵۷

مال القلب بذلك النور الى ذلك الشىء الذى تبين له: انقاد العبد و أسلم و مد عنقا إلى قبوله.

۳- التوحيد: و انما صار الهدى التوحيد فى المكان الآخر، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور سكن عن التردد، و اطمأن إلى ربه فوحد.

۴- الدين: و انما صار الهدى «الدين» فى مكان آخر، لأنه إذا مال القلب إلى ذلك النور: دان اللّه، أى: خضع، و الدين: هو الخضوع، و منه قيل للشىء المتضع: «دون».

۵- الدعاء: و إنما صار الهدى فى مكان آخر «الدعاء» لأنه إذا دعا إلى اللّه بقلب مستنير: مالت القلوب إلى ذلك النور، لأن على ذلك الكلام نورا، لأنه خرج من قلب مستنير.

۶- بصيرة: و إنما صار الهدى «بصيرة» فى مكان آخر، لأنه إذا دعا الداعى بقلب ذى نور: و لج الكلام مع النور فى الاسماع فاستنارت الصدور من المستمعين، فابصرت عيون نفوسهم، و هى بصائرها، فتلك بصيرة النفس، فان للفؤاد بصرا، و للنفس بصيرة كلاهما بصيران فى الصدر، لأن الصدر: ساحة القلب، و ساحة النفس، و قد اشتركا فى هذه الساحة، و منه تصدر الأمور، و لذلك سمى صدرا لأنه مصدر الأمور، و الأعمال منه تصعد إلى الاركان: ما دبر القلب، و ما دبرت النفس، اتفقا، أو اختلفا فتنازعا.

فالاركان لأيهما غلب بجنوده، فإذا كانت النفس ذات بصيرة: بايعت القلب فى الحق و الصواب الذى هو كائن من القلب، لأن فى القلب المعرفة:

و العقل معها، و الحفظ معها، و الفهم معها، و العلم معها، فهؤلاء كلهم حزب واحد، فاذا كانت النفس ذات بصيرة: تابعت القلب و جنوده، و اذا عميت: فانما تعمى لغلبة الشهوات ... و دخان الهدى، نازعت القلب بجنودها، فغالب و مغلوب، و ذلك قول رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

حدثنا بذلك عمر بن أبى عمر العبدى، قال حدثنا محمد بن الوعيى، قال حدثنى يعلى بن الاشدق الطائفى، قال سمعت عمى عبد اللّه بن جراد

مناهج المفسرين، ص: ۵۸

يقول: سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: (ليس الأعمى من يعمى بصره، انما الأعمى من تعمى بصيرته).

و من قوله تعالى: بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (سورة القيامة الآية ۱۴) فكل آدمى على بصيرة، فما دام لا تغلب على بصيرته الشهوات فهو مستقيم، فاذا غلبت الشهوات عليها عميت، فاذا عميت استمرت لشدتها و تجلب على القلب شدتها حتى يتابعها القلب، فاذا تابعها عمى القلب، قال اللّه تبارك اسمه:

فَإِنَّها لا تَعْمَى الْأَبْصارُ وَ لكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ (سورة الحج الآية ۴۶).

۷- المعرفة: و انما صار الهدى المعرفة فى مكان آخر، لأنه إذا استنار الصدر: انشرح و انفسح، فعرف القلب ما يأتى و ما يذر، فى ذلك الضوء.

۸- القرآن: و انما صار الهدى «القرآن».

۹- و الرسول: فی مکان آخر، لأن القلب اذا عقل ما فی القرآن مال إلی ما فیه من الأمر و النهی و الوعظ.

۱۰- الرشد: و انما صار الهدی «الرشد».

۱۱- و الصواب: فی مکان آخر، لأنه إذا مال القلب إلی ذلک النور فقد رشد.

۱۲- التقوی: و انما صار الهدی «التقوی» لأنه اذا مال القلب إلی ذلک النور فقلبه صار فی الوقایة، و التقوی هی الوقایة من النار.

۱۳- التوفیق: و انما الهدی «التوفیق» لأنه اذا مال القلب إلی ذلک النور وفقه اللّه للصواب.

۱۴- التوبة: و انما صار الهدی «التوبة» لأنه اذا مال القلب إلی ذلک النور. تاب، و التوبة هی الرجوع إلی اللّه.

مناهج المفسرین، ص: ۵۹

۱۵- الممر: و انما صار الهدی «الممر» لأنه الممر طریق العباد إلی اللّه، فاذا مال القلب إلی ذلک النور، فقد أصاب الممر.

فمرجع هذه الأشیاء التی حیرت وجوها ذات شعب: الی کلمة واحدة ..

لأن الهدی: هو میل القلب إلی اللّه بذلک النور الذی أشرق به الصدر فانشرح و انفسح و هو قوله تعالی: (أ فمن شرح اللّه صدره للاسلام فهو علی نور من ربه).

هذه الأصالة الفکریة و هذه السعة فی المعارف، و هذه الجرأة فی اعلان ما یری أنه الحق هی التی اطلقت علی أبی عبد اللّه الترمذی: الحکیم، و هذا الوصف یمیزه عن الامام الترمذی المحدث الکبیر، و لکنها هی نفسها التی عرضته لفتنة أثارها اعداؤه و حاسدوه.

ان اللّه سبحانه و تعالی یقول: وَ کَذلِکَ جَعَلْنا لِکُلِّ نَبِیٍّ عَدُوًّا (سورة الأنعام الآیة ۱۱۲).

و لم یکن للترمذی عدو واحد، و انما کان له أعداء من الرافضة و من المعطلة و من المحدثین و من الفقهاء و قد اثر هؤلاء علی العامة، فکان له أعداء من العامة أیضا و الناس علی دین ملوکهم، أما الناس هنا فهم العامة، و أما ملوکهم فهم أصحاب الأقلام و الألسنة.

و لکن العجب العجاب أنه أیضا تعرض للاضطهاد من الصوفیة أنفسهم.

و لکن الحق الذی تقوله: أنه لم یخل من المسئولیة فی ذلک فإنه هاجم دون رفق أو هوادة أو مجاملة کل انحراف:

انظر إلیه یقول عن الصوفیة:

تمل للمفتونین (بعض الصوفیة) یقول لکم محمد بن علی (هو الحکیم نفسه) حرام علی قلوبکم الوصول إلی منار القریة حتی تؤدوا الفرائض علی

مناهج المفسرین، ص: ۶۰

ما وصفت، ثم حرام علی قلوبکم بعد ذلک درجات الوسائل، حتی تمیتوا مشیئاتکم، ثم حرام علی قلوبکم بعد ذلک الدرجة العظمی فی ملک الملوک بین یدیه حتی تنقطع عن قلوبکم مشیئة الوصول إلیه.

و تالب علیه جمیع اعدائه فاخذوا یتهمونه (و هو الصوفی العالم الحکیم) بهم لا تخطر له علی بال، حتی رموه فی النهایة بالزندقة.

و أخذ الحکیم الترمذی الی الوالی و تحدث الیه الوالی فوجد عقلا و حکمة.

و لکنه من جانب آخر وجد هیاجا شدیدا ضد الحکیم، ما ذا یصنع؟

انه أخذ علی الحکیم تعهدا أن لا یتحدث فی الحب و کان الحدیث فی الحب من التهم التی اتهموه بها، و لم تسکن الفتنة، فاخرج الحکیم من ترمذ فسافر الی بلخ فکرمه أهلها و قدروه و اعتزوا به.

و هدأت الفتنة فی ترمذ و عاقب اللّه تعالی کل من أساء الیه فعاد الی ترمذ معززا مکرما و مات بها سنة ۳۲۰ ه- علی ارجح الاقوال.

مناهج المفسرین، ص: ۶۱

شيخ الحنفية ببغداد الجصاص و تفسيره

اشارة

أبو بكر أحمد بن على الرازى- شيخ الحنفية ببغداد الذى انتهت اليه رئاسة المذهب فى زمانه.

عاش الرازى فى عصر ازدهر فيه العلم و كثرت فيه العلماء فى فنون العلم المختلفة و ظهر ذلك واضحا فيما انتجته قرائح علماء هذا العصر من تراث كبير ما زال المعين الفياض الذى يفيض على المجتمع الانسانى بما يعود عليه بالنفع فى دينه و دنياه.

و قد لقب بالرازى و الجصاص نسبة الى العمل بالجص- ولد الرازى سنة خمس و ثلاثمائة للهجرة، و شب على طلب العلم و السعى فى تحصيله و شد الرحال اليه فى أشهر مواطنه.

حيث دخل بغداد سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة ثم انتقل منها الى الاهواز ليلتقى بمن فيها من علماء العصر.

و يواصل الجصاص الرحلة فيعود الى بغداد مرة أخرى و منها يخرج الى نيسابور مع الحاكم النيسابورى و كان ذلك برأى شيخه الكبير أبو الحسن الكرخى.

و قد عاد الجصاص من نيسابور الى بغداد سنة أربع و أربعين و ثلاثمائة بعد أن مات شيخه الكرخى و قد أفاد الجصاص من الرحلة الى الذين تلقى و روى عنهم من أمثال أبى الحسن الكرخى- آنف الذكر- و أبى العباس الاحيم

مناهج المفسرين، ص: ۶۲

النيسابورى و عبد اللّه بن جعفر بن فارس الأصبهانى، و عبد الباقى بن قانع القاضى و سليمان بن أحمد الطبرانى و غيرهم الكثير- لقد أفاد الجصاص منهم علما و سلوكا تمثل فى طهره و عفافه و زهده و ورعه و صيانته.

مؤلفاته

:- و قد كان من ثمار الرحلة لطلب العلم و الجد فى تحصيله تلك الثروة الضخمة التى تركتها لنا قريحة هذا العالم الفذ و التى من أشهرها هذه المصنفات الجليلة:

أحكام القرآن

شرح مختصر شيخه أبى الحسن الكرخى شرح مختصر الطحاوى شرح الجامع محمد بن الحسن شرح الاسماء الحسنى كتاب فى أصول الفقه جوابات عن مسائل وردت عليه أدب القضاء و كثيرا ما ترى الحصاص مذكورا فى المصنفات المشهورة فيذكر صاحب الطبقات السنية فى طبقات الحنفية نقلا عن صاحب «الغنية» عن أبى بكر جواهر زادة فى مسالة اذا وقع البيع بغبن فاحش قال:- ذكر الجصاص و هو أبو بكر الرازى فى واقعاته أن للمشترى أن يرد و للبائع أن يسترد.

و ذكر أيضا قول الشيخ جلال الدين فى «المغنى فى أصول الفقه» فى الكلام فى الحديث المشهور قال: قال الجصاص: أنه أحد قسمى المتواتر ...

مناهج المفسرين، ص: ۶۳

منصب قضاء القضاة

: و لما ذاع صيت الجصاص و ظهر للناس علمه و عرفوا قدره و حسن سيرته و تحليه بالزهد و الورع خوطب فى تولى منصب قضاء القضاة و لكنه أبى و تعفف عن قبول هذا المنصب الخطير. و قد نقل صاحب الطبقات السنية فى ذلك.

حدث أبو بكر الابهرى قال: خاطبنى المطيع على قضاء القضاة و كان السفير فى ذلك أبو الحسن بن أبى عمرو الشرابى فأبيت عليه و أشرت بأبى بكر أحمد بن على الرازى. فأحضر للخطاب على ذلك، و سألنى أبو الحسن بن أبى عمرو معونته عليه فخوطب فامتنع، و خلوت به فقال لى: تشير على بذلك؟ فقلت: لا أرى لك ذلك ..

ثم قمنا الى بين يدى أبى الحسن بن أبى عمرو، و أعاد خطابه، و عدت الى معونته فقال لى: أ ليس قد شاورتك فأشرت على أن لا أفعل؟ مناهج المفسرين ۶۳ منصب قضاء القضاة ..... ص : ۶۳

جم أبو الحسن بن أبى عمرو من ذلك، قال: تشير علينا بانسان ثم تشير عليه الا يفعل ..

قلت: نعم، إمامى فى ذلك مالك بن أنس، أشار على أهل المدينة أن يقدموا نافعا القارئ فى مسجد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و أشار على نافع أن لا يفعل، فقيل له فى ذلك.

فقال: أشرت عليكم بنافع، لانى لا أعرف مثله، و أشرت عليه أن لا يفعل لانه يحصل له اعداء و حساد فكذلك أنا أشرت عليكم به لانى لا أعرف مثله و أشرت عليه أن لا يفعل لانه أسلم لدينه.

تلاميذ الجصاص

: و قد كثر تلاميذ الرازى كثرة فائقة و انتفع بعلمه الكثيرون و انتهت الرحلة اليه حيث جمع مآثر من تقدمه فى العلم و الورع و الزهد و الصيانة، و من أشهر هؤلاء الذين أخذوا عنه و انتفعوا به:

مناهج المفسرين، ص: ۶۴

أبو بكر أحمد بن موسى الخوارزمى، و أبو عبد اللّه محمد بن يحيى الجرجانى شيخ القدورى، و أبو الفرج أحمد بن محمد بن عمر المعروف بابن المسلمة و أبو جعفر محمد بن أحمد النسفى، و أبو الحسن محمد بن أحمد الزعفرانى، و أبو الحسن بن محمد بن أحمد بن الطيب الكعارى والد اسماعيل قاضى واسط و غيرهم.

تفسير الجصاص «أحكام القرآن»

. يعتبر هذا السفر الذى تركته قريحة الجصاص من أجمع الكتب التى تناولت أحكام القرآن بصورة مفصلة أفاد منها غيره ممن جاء بعده و كتب فى هذه الاحكام من أمثال الكيا الهرامى و ابن عربى و القرطبى صاحب التفسير المشهور «الجامع لاحكام القرآن».

و الكتاب يجمع هذه الاحكام فى أبواب مرتبه تجمع شمل الآيات التى تتناول قضية أو حكما عاما يفصل الكلام عليها تفصيلا مشفوعا بأقوال العلماء و قرائهم و استنكاراتهم و نظرة سريعة فى سورة النساء تريك صدق ما نقول عن هذا التبويب الفريد، ففى مطلع السورة و ما بعده تجد هذه الابواب.

باب دفع أموال اليتامى باعيانها و منعه الوحى من استهلاكها.

باب تزويج الصغار باب هبة المرأة المهر لزوجها باب دفع المال الى السفهاء باب دفع المال إلى اليتيم باب أكل ولى اليتيم من ماله- الى غير ذلك من الابواب ..

نموذج من أحكام القرآن

فى باب الامتنان بالصدقة يذكر الحصاص جمله من الآيات يجمع شملها هذا الباب هى قوله تعالى:

مناهج المفسرين، ص: ۶۵

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً» الآية و قوله تعالى:

«يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ».

و قوله تعالى:

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً» (سورة البقرة الآية ۲۶۲ و ۲۶۴ و ۲۶۳) و قوله تعالى: «وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَ ما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ». (سورة الروم الآية ۳۹) ثم يقول الجصاص بعد ذكر هذه الآيات:

«أخبر اللّه تعالى فى هذه الآيات أن الصدقات اذا لم تكن خالصة للّه عارية من منّ و اذى فليست بصدقه لان ابطالها هو احباط ثوابها، فيكون فيها بمنزلة من لم يتصدق، و كذلك سائر ما يكون سبيله وقوعه على وجه القربة الى اللّه تعالى:

وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (سورة محمد الآية ۳۳) و قال تعالى: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفاءَ (سورة البينة الآية ۵) [فما لم يخلص للّه تعالى من القرب فغير مثاب عليه فاعله و نظيره أيضا قوله تعالى: مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ، وَ مَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها وَ ما لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (سورة الشورى الآية ۲۰)

مناهج المفسرين، ص: ۶۶

و من أجل ذلك قال اصحابنا: لا يجوز الاستئجار على الحج و فعل الصلاة و تعليم القرآن و سائر الافعال التى شرطها أن تفعل على وجه القربة.

لان أخذ الاجر عليها يخرجها عن أن تكون قربة لدلائل هذه الآيات و نظائرها و روى عن الحسن فى قوله تعالى:

لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى قال: هو المتصدق يمن بها فنهاه اللّه عن ذلك و قال ليحمد اللّه اذ هداه للصدقة و عن الحسن فى قوله تعالى:

وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ (سورة البقرة الآية ۲۶۵] قال يتثبتون اين يضعون اموالهم.

و عن الشعبى قال: تصديقا و يقينا من انفسهم و قال قتادة: ثقة من أنفسهم، و المن فى الصدقة: أن يقول المتصدق قد أحسنت إلى فلان و أغنيته- فذلك ينقصها على المتصدق بها عليه و الاذى قوله: انت ابدا فقير: و قد بليت بك و أراحنى اللّه منك ..

و نظيره من القول الذى فيه تعبير له بالفقر فقال تعالى:

«قول معروف و مغفرة خير من صدقة يتبعها أذى» يعنى و اللّه أعلم- ردا جميلا و مغفرة قيل فيها ستر الحالة على السائل.

و قيل العفو عمن ظلمه خير من صدقة يتبعها اذى لانه يستحق الماثم بالمن و الأذى ورد السائل بقول جميل فيه السلامة من المعصية.

فأخبر اللّه تعالى أن ترك الصدقة برد جميل خير من صدقة يتبعها اذى و امتنان و هو نظير قوله تعالى:

«و اما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا ..

مناهج المفسرين، ص: ۶۷

الحاكم النيسابورى و تفسيره

فى حوالى ثلاثمائة و عشرين صحيفة من القطع الكبير جدا جمع الحاكم فى كتابه النفيس المستدرك ما صح عنده من التفسير بالمأثور.

و الحاكم هو أبو عبد اللّه الحاكم محمد بن عبد اللّه بن محمد، و عرف بالحاكم لتوليه القضاء، ولد سنة (۳۲۱ ه) و قد عنى أبوه بتربيته عناية فائقة، فأخذ فى الدرس من زمن مبكر جدا من حياته، و واصل الليل بالنهار، و بلغ فى العلم مبلغا عظيما.

قال ابن قاضى شهبة:- «طلب العلم فى صغره، و أول سماعه سنة ثلاثين، و رحل فى طلب الحديث، و سمع على شيوخ يزيدون على ألفى شيخ، و تفقه على ابن أبى هريرة، و أبى سهل الصعلوكى و غيرهم».

أخذ عنه الحافظ أبو بكر البيهقى فأكثر عنه، و بكتبه تفقه و تخرج، و من بحره استمد، و على منواله مشى.

و يذكر صاحب الشذرات: أنه كتب عن نحو ألفى شخص، و حدث عن الاصم، و عثمان بن السماك، و طبقتهما، و قد درس القراءات و عنى بها عناية فائقة، و لم يدرسها نظريا فحسب و انما قراه بالفعل على جماعة كثيرة من مشاهير أئمة القراءات.

أما تصانيفه فانها كثيرة، بل هى من الكثرة بحيث يقول المؤرخون عنه:

«بلغت تصانيفه ألفا و خمسمائة جزء»، و يلاحظ أنهم لم يقولوا: ألفا و خمسمائة كتاب، و انما ألفا و خمسمائة جزء، ما ذا كان حجم الجزء.؟

و الذى لا شك فيه أنه كان من المكثرين فى التأليف المستفيضين فى الدراسة، و يقول عنه صاحب الشذرات:-

مناهج المفسرين، ص: ۶۸

و صنف التصانيف الكثيرة، و يقول ابن ناصر الدين «له مصنفات كثيرة».

و كان للحاكم تلاميذ، و فتن به كثيرون، انظر الى صاحب الشذرات يقول:

و انتهت إليه رئاسة الفن بخراسان لا بل بالدنيا.

أما عبد الغافر فقد أطنب- كما يقول ابن شهبة- فى مدحه و ذكر فضائله و فوائده و محاسنه الى أن قال:- مضى الى رحمة اللّه و لم يخلف بعده مثله.

و يقول عنه أحد مؤرخيه:

أحد أركان الاسلام، و سيد المحدثين و امامهم فى زمنه، و الرجوع اليه فى هذا الشأن و قدمه الراسخة كانت فى فن الحديث و قد وثقه الكثيرون، و يقول الخطيب البغدادى عنه:- كان ثقة، و يقول ابن عماد: «و هو ثقة حجة».

و قال عنه ابن ناصر الدين:- «و هو صدوق من الاثبات» و هكذا يقولون عنه و يعبرون عن ثقتهم فيه، و لكنهم يعودون فيقولون مثلا:- و كان يميل الى التشيع، أو: «و كان فيه تشيع» «ابن عماد» هكذا.

كيف يكون ثقة و يتهم بالتشيع فى آن واحد مع آن واحد مع المحدثين ينأون عن كل ذى نزعة أو عصبية، إن الامام الذهبى يقف معتدلا فى وجه المفتونين بالحاكم و يقف موضحا الامر فى رمى الحاكم بالتشيع فيفسر الامر تفسيرا معقولا، و يضع كل شىء فى موضعه المستقيم، قال الذهبى:

هو معظم الشيخين بيقين و لذى النورين، و انما تكلم فى معاوية فاوذى،

مناهج المفسرين، ص: ۶۹

قال:- و فى المستدرك جملة وافرة على شرطهما، و جملة وافرة على شرط أحدهما لكن مجموع ذلك نصف الكتاب و فيه نحو الربع مما صح سنده و فيه بعض الشىء معلل و ما بقى و هو الربع مناكير و واهيات لا تصح، و فى ذلك بعض موضوعات قد علمت عليها لما اختصرته.

و هذا الرأى للذهبى يضع كتاب «المستدرك» فى وضعه الصحيح و يبين أن الحاكم لم يكن شيعيا، و إنما كان يحب عليا و كان حبه لعلى كرم اللّه وجهه و رضى اللّه عنه قد ملك عليه شعوره فتحدث عن معاوية باحاديث لا ترضى أنصاره فوصف لذلك بالتشيع أو بالميل الى التشيع، و ليس ذلك من التشيع فى شىء فكثير من أهل السنة و كثير من المؤرخين منهم يقولون بما يقول به الحاكم و ليسوا من التشيع من شىء، و لان الحاكم لم يكن شيعيا فانهم وصفوه بأنه حجة ثقة و قد توفى الحاكم فجأة عقب خروجه من الحمام فى صفر سنة ۴۰۵ هجرية، توفى مستحما طاهرا رحمه اللّه رحمة واسعة.

و الآن نورد بعض النماذج من تفسيره:

يقول اللّه تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ قال:- حدثنا يحيى بن العلاء عن عمه شعيب بن خالد عن سماك بن حرب، و قرا:

إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ.

(سورة آل عمران الآية ۵) فقال حدثنى عبد اللّه بن عميرة عن العباس بن عبد المطلب رضى اللّه عنه قال:- «كنا جلوسا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى البطحاء فمرت سحابة فقال:

مناهج المفسرين، ص: ۷۰

أ تدرون ما هذا قلنا اللّه و رسوله أعلم، فقال: السحاب، فقلنا: السحاب، فقال: و المزن، فقلنا و المزن فقال: و العنان، فقلنا: و العنان ثم قال أ تدرون كم بين السماء و الأرض فقلنا: اللّه و رسوله اعلم قال بينهما مسيرة خمسمائة سنة و من كل سماء الى السماء التى تليها مسيرة خمسمائة سنة و كثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة و فوق السماء السابعة بحر بين أعلاه و أسفله، كما بين السماء و الارض ثم فوق ذلك ثمانية أو عال بين ركبهم و أظلافهم كما بين السماء و الأرض ثم فوق ذلك العرش بين أسفله و أعلاه كما بين السماء و الأرض، و اللّه تعالى فوق ذلك ليس يخفى عليه من أعمال بنى آدم شيء.

و نموذج آخر:

يقول اللّه تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبارَكاً وَ هُدىً لِلْعالَمِينَ سورة آل عمران الآية ۹۶] قال: «عن خالد بن عرعرة قال سأل رجل عليا رضى اللّه تعالى عنه أول بيت وضع للناس للذى بمكة مباركا أ هو أول بيت بنى فى الأرض قال:

لا، و لكنه أول بيت وضع فيه البركة و الهدى و مقام إبراهيم و من دخله كان آمنا و إن شئت انباتك كيف بناه اللّه عز و جل، ان اللّه أوحى الى إبراهيم أن ابن لى بيتا فى الأرض فضاق به ذرعا فأرسل اللّه اليه السكينة و هى ريح حجوج لها رأس فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت ثم تطوقت الى موضع البيت تطوق اليه، فبنى إبراهيم فكان يبنى هو سائقا كل يوم حتى اذا بلغ مكان الحجر قال لابنه ابغنى حجرا فالتمس تمة حجر ثم أتاه به فوجد الحجر الاسود قد ركب فقال: له ابنه من أين لك هذا قال: جاء به من لم يتكل على بنائك جاء به جبريل عليه السلام من السماء فاتمه ..

و نموذج ثالث:- يقول اللّه تعالى: «وَ سْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كانَتْ حاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً

مناهج المفسرين، ص: ۷۱

وَ يَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذلِكَ نَبْلُوهُمْ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ» (سورة الأعراف الآية ۱۶۳) يقول:- حدثنا ابن جريح عن عكرمة قال: دخلت على ابن عباس رضى اللّه عنهما و هو يقرأ فى المصحف قبل أن يذهب بصره و هو يبكى فقلت ما يبكيك يا ابن عباس جعلنى اللّه فداك؟ فقال هل تعرف ايلة قلت و ما ايلة قال قرية كان بها ناس من اليهود فحرم اللّه عليهم الحيتان. يوم السبت فكانت حيتانهم تأتيهم يوم سبتهم شرعا بيضاء سمانا كامثال المخاض بأفنائهم و ابنياتهم فاذا كان فى غير يوم السبت لم يجدوها و لم يدركوها الا فى مشقة و مئونة شديدة فقال بعضهم لبعض أو قال ذلك منهم لعلنا لو اخذناها يوم السبت و أكلناها فى غير يوم السبت ففعل ذلك أهل بيت منهم فاخذوا فشووا فوجد جيرانهم ريح الشوى فقالوا و اللّه ما نرى إلا اصاب بنى فلان شيء فاخذها آخرون حتى فشا ذلك فيهم و كثر فافترقوا فرقا ثلاثا فرقة أكلت و فرقة نهت و فرقة قالت لم تعظون قوما اللّه مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا فقالت الفرقة التى نهت انما نحذركم غضب اللّه و عقابه أن يصيبكم بخسف أو قذف أو ببعض ما عنده من العذاب و اللّه لا نبيت فى مكان أنتم فيه و خرجوا من السور فغدوا عليه من الغد فضربوا باب السور فلم يجبهم أحد فاتوا بسبب فاسندوه إلى السور ثم رقى منهم راق على السور فقال يا عباد اللّه قردة و اللّه لها أذناب تعاوى ثلاث مرات ثم نزل من السور ففتح السور فدخل الناس عليهم فعرفت القردة أنسابها من الانس و لم يعرف الأنس أنسابهم من القردة قال: فيأتى القرد إلى نسيبه و قريبه من الأنس فيحتك به و يلصق و يقول الإنسان أنت

فلان فيشير برأسه أى نعم و يبكى و تأتى القردة إلى نسيبها و قريبها من الأنس فيقول لها أنت فلانة فتشير برأسها أى نعم و تبكى فيقول لهم الأنس أما إنا حذرناكم غضب اللّه و عقابه أن يصيبكم بخسف أو مسخ أو ببعض ما عنده من العذاب قال ابن عباس فاسمع اللّه يقول فأنجينا الذين ينهون عن السوء و أخذنا الذين ظلموا

مناهج المفسرين، ص: ۷۲

بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون، فلا أدرى ما فعلت الفرقة الثالثة، قال ابن عباس فكم قد رأينا من منكر فلم ننه عنه قال عكرمة فقلت ما ترى جعلنى اللّه فداك انهم قد انكروا و كرهوا حين قالوا:

«لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذاباً شَدِيداً» (سورة الاعراف الآية ۱۶۴) فأعجبه قولى ذلك و أمر لى ببردين غليظين فكسانيهما.

مناهج المفسرين، ص: ۷۳

الامام السلمى و تفسيره

مؤلف هذا التفسير: محمد بن الحسين بن موسى الأزدى أبو عبد الرحمن السلمى جدا، النيسابورى بلدا. كان شيخ الصوفية، و عالمهم بخراسان، ذكره الحافظ عبد الغافر فى السياق فقال:

شيخ الطريقة فى وقته، الموفق فى جميع علوم الحقائق، و معرفة طريق التصوف، و صاحب التصانيف المشهورة العجيبة فى علم القوم، و قد ورث التصوف عن أبيه وجده، و جمع من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه، حتى بلغ فهرست تصانيفه المائة أو اكثر.

و كان من المشتغلين بعلم الحديث، سمع من أبى العباس الأصم، و ابن فارس العمرى البلخى، و الحافظ ابى على الحسين بن محمد النيسابورى و غيرهم من كبار المحدثين ..

و روى كثيرا من مسموعاته، و ممن روى عنه من الأئمة:

الحاكم أبو عبد اللّه، و أبو القاسم القشيرى، و أبو صالح المؤذن، و كثيرون و قد وثقه فى الحديث علماء اجلاء منهم الخطيب البغدادى و التاج السبكى و غيرهما، يقول الخطيب:

قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، و كان مع ذلك محمودا صاحب حديث ...

و يقول التاج: أبو عبد الرحمن ثقة، و لا عبرة بالكلام فيه ..

و قد كان للسلمى بيت كتب جمع فيه من الكتب ما لم يسبق إلى ترتيبه من ذخائر المحدثين و الصوفية، و كان يخلو بهذا البيت ينقطع فيه للقراءة و التأليف.

مناهج المفسرين، ص: ۷۴

و كان شيوخ نيسابور يستعيرون منه بعض ما يحتاجون إليه من هذه الذخائر، فيعيرهم إياه ..

و قد ابتدأ أبو عبد الرحمن التصنيف سنة نيف و خمسين و ثلاثمائة، و هذا معناه أن أباه عبد الرحمن ظل يؤلف قريبا من بضعة و خمسين عاما ..

و قد اشتهر أبو عبد الرحمن بأنه نقّال الصوفية، و راوى كلامهم، و ممن له العناية التامة بتوطئة مذهب المتصوفة و تهذيبه على ما بينه الأوائل.

و لقد كان مدققا فى تعبيره عن مذهب الصوفية، و اختباره لمن سبقه.

بمثل هذا المذهب من الشيخ، فالإمام الكامل، الفقيه الأصولى المفسر الأسفراينى الذى اشتهر بالدفاع القوى عن مذهب أهل السنة و الرد على البدع و على كل ما يخالف مذهب أهل السنة: يقول فى كتابه «التبصير فى الدين»:

سادس ما امتاز به أهل السنة هو:

علم «التصوف» و الاشارات و ما لهم فيها من الدقائق و الحقائق، لم يكن قط لاحد من «أهل البدعة» فيه حظ، بل كانوا محرومين مما فيه من الراحة و الحلاوة، و السكينة و الطمأنينة، و قد ذكر ابو عبيد الرحمن السلمى من مشايخهم قريبا من ألف، و جمع اشاراتهم و أحاديثهم. و لم يوجد فى جملتهم قط من ينسب إلى بدع «القدرية» و «الروافض» و «الخوارج».

و كيف يتصور فيهم من هؤلاء، و كلامهم يدور على التسليم و التفويض من النفس، و التوحيد بالخلق و المشيئة.

و أهل البدع ينسبون الفعل و المشيئة، و الخلق و التقدير، إلى انفسهم و ذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم و التوحيد.

ولد على المشهور- فى رمضان سنة ثلاثين و ثلاثمائة، و قيل: سنة خمس و عشرين و ثلاثمائة ..

و كان والده شيخا، ورعا، زاهدا، دام المجاهدة، له القدم فى علوم

مناهج المفسرين، ص: ۷۵

المعاملات، و حينما توفى قام جده لأمه و كان واسع الثراء- على رعايته، فما أن توفى حتى آل إليه من ثروته ما مكنه من التفرغ للكتابة و التأليف، و كانت تصانيفه مقبولة، حبيبة إلى الناس، تباع بأغلى الأثمان.

و فى أخريات أيامه ابتنى للصوفية خانقاه صغيره، كانت مشهورة فى نيسابور و فى ما جاورها أو بعد عنها من أقاليم مملكة الاسلام، حتى أن الخطيب البغدادى حين ذهب إلى نيسابور زار هذه الدويرة التى كان يسكنها الصوفية يومئذ ..

أما عن تفسيره فإن له طابعا خاصا هو طابع التفاسير الصوفية الخالصة، إن كل اتجاهه كان منحصرا فى جمع ما يتيسر من آراء الصوفية حول آيات من القرآن الكريم، و هو لذلك ليس تفسيرا مفصلا لكل آية من آيات القرآن الكريم، و ليس تحليلا لفظيا أو بيانا لحكم شرعى.

و هو لذلك يمثل فهمّا خاصا لقوم مخصوصين فيما يتصل بتفسير القرآن الكريم، أو الحديث عن بعض الفهوم المستنبطة منه.

و مثل هذا المنهج فى التأليف قد لا يستسيغه من يقصر الفهم فى القرآن على ظاهر الآيات، و من هنا كانت الحملة الشديدة العنيفة على هذا الكتاب، حتى لقد قال الذهبى ليته لم يصنفه.

و إذا ما تاملنا فى سر هذه الحملة فإننا نجد أن أساسها لا يرجع إلى فساد ما نقله فى نفسه، و إنما إلى ربطه بالآية كفهم لها أو تعبير عن بعض ما تشير إليه.

قال التاج السبكى: و كتاب حقائق التفسير المشار إليه قد كثر الكلام فيه، و قيل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات و مجال الصوفية ينبو عنها ظاهر اللفظ.

و لقد اطلعنا على الكتاب و هو مخطوط لم يطبع بعد و لكن توجد منه نسخ كثيرة و منها فى مكتبة الأزهر و غيرها فوجدناها لا تخرج عن كلام الصوفية

مناهج المفسرين، ص: ۷۶

المعتبرين فى فهم الآيات و تنزيلها على إشارات تتعلق بإصلاح السلوك و اخلاص العبودية فضلا عما يدور بين الناس من معانيها الظاهرة.

إن ما يقوله الصوفية حول آيات من القرآن الكريم إنما هو الهامات و اشراقات بتوفيق اللّه رائعة، و هم فى هذا الميدان يسمون الهاماتهم:

إشارات، يعنون بذلك أن الآيات القرآنية لها تفسير بحسب اللغة و أسباب النزول و حوادث التاريخ، و هو تفسير يتفاوت دقة و جمالا، و لكنه مع ذلك تفسير لا يستنفد كل ما تعطيه الآيات القرآنية من اشارات، و ما يشع عنها من انوار، و ما يتضوع عنها من عبير طيب، و ينبغى علينا أن نلاحظ أن هذه الاشارات لا تهدف فى قليل و لا فى كثير إلى أن تحل محل التفسير المألوف كما أن هذه الاشارات لا

تتعارض مع التفسير المالوف.

انها اشارات و ليست تفسيرا، و من أجل ذلك فإنه لا تعارض بين الصوفية و المفسرين.

و نستطيع أن نقول: ان نقد الكتاب إنما يتجه لو كان مؤلفه يرى أن ما يقوله هو وحده الذى تفيده الآية. أما إذا اعتقد أن ما ذكره جهد يضاف إلى جهود، و تسليط للضوء على جانب من الجوانب التى تفيدها الآية، فإن النقد حينئذ يصبح غير ذى موضوع.

و إليك نماذج من تفسيره لتتمكن من الحكم عليه على بصيرة:

قال تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَماناتِكُمْ (سورة الأنفال الآية ۲۷) قال أبو عثمان: من خان اللّه تعالى فى السر هتك ستره فى العلانية، قال بعضهم: فى هذه الآية خيانة اللّه تعالى فى الاسرار و حب الرئاسة و إظهار خلاف الاضمار، و خيانة الرسول عليه السّلام فى آداب الشريعة، و ترك

مناهج المفسرين، ص: ۷۷

السنن، و التهاون بها، و خيانات الأمانات، فى المعاملات و الأخلاق، و معاشرة المؤمنين فى ترك النصيحة لهم.

و قال تعالى:

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ (سورة يونس الآية ۵۷) قال ابن عطاء: الموعظة للنفوس، و الشفاء للقلوب، و الهدى للأسرار، و الرحمة لمن هذه صفته.

قال جعفر: شفاء لما فى الصدور، أى راجعة لما فى السرائر، قيل: شفاء المعرفة، و الصفا، و قيل شفاء التوبة، و قيل: شفاء التسليم و الرضا، و لبعضهم شفاء المشاهدة و اللقاء.

مناهج المفسرين، ص: ۷۹

متشابه القرآن للقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى

للمعتزلة نزعة معروفة محددة، إنها النزعة التى تحكم العقل له القياد.

و هذا ظاهر فى كل ما يكتبون فى التفسير و فى التوحيد.

و من أهم الشخصيات التى توضح مذهبهم- و التى وجدت تآليفها رواجا و انتشارا: القاضى عبد الجبار.

و قد كان لنشر كتابه: «المغنى» أثر كبير فى التعريف المستفيض بآراء المعتزلة و هو كتاب كبير اجتمع على تحقيق اجزائه الكثيرة طائفة من كبار المحققين فأخرجوه اخراجا متقنا.

و لقد لقى القاضى عناية الكثيرين ممن يهتمون به، فنشر له كتاب:

«الأصول الخمسة» و كتاب: «تنزيه القرآن عن المطاعن».

و لقد ولد القاضى بخراسان، و لا نكاد نعرف عن حياته الأولى شيئا، و لكنه من غير ما شك تعلم على الطريقة التقليدية: الفقه و التفسير و التوحيد و العربية، و غير ذلك مما كان تقليدا فى زمنه.

لقد خرج إلى البصرة، و اختلف إلى مجالس العلماء.

و لقد نشأ فى أسرة متواضعة، فنشأ فى تقشف و شظف من العيش و لكن نفسه الطموحة تمردت على ظروفه، فأبى إلا ان يتابع الطريق العلمى فى غير فتور أو ملل.

و شاءت المقادير أن يتصل بالصاحب بن عباد، و كان الصاحب بن عباد ذا ميول شيعية و بين الشيعة و المعتزلة شبه كبير، و خاصة بين المعتزلة و الشيعة الزيدية الذين تتلمذ أمامهم زيد على واصل بن عطاء رأس المعتزلة الأول.

مناهج المفسرين، ص: ۸۰

كان تقدير الصاحب للمعتزلة كبيرا إلى درجة أنه ما كان يولى القضاء إلا من المعتزلة.

كان القاضى عبد الجبار حينئذ صاحب شهرة عريضة، بل إنه بدأ يحتل مكان الرئاسة للمعتزلة فاستدعاه الصاحب إلى «الرى» و اصدر له امرا يتولى رئاسة القضاء فى (الرى) (و قزوين) و غيرهما ثم ولاه اضافة إلى ذلك جرجان و طبرستان.

و أتته الدنيا راغمة و كثر ماله و خدمه و حشمه، و ما كان ذلك عن انحراف فى طريقه فقد كان مثلا كريما للعدالة و التحرى الدقيق فى الاحكام.

أما تقدير الصاحب و حبه له فقد فاق كان وصف:

لقد وصل به الأمر أن كان يقول عنه: افضل أهل الأرض.

و يقول عنه: أعلم أهل الأرض.

و ما من شك أنه كان صاحب خلق فاضل، و صاحب علم عزيز.

و بيما القاضى فى اوج الشهرة: إذا بالصاحب ينتهى أجله، و يذهب للقاء ربه.

و هنا بدأت مشكلة فى غاية العمق تختلف فيها الأنظار فى كل زمن، و قد اختلفت فيها الأنظار اختلافا كبيرا إذا ذاك، و لعل الكثيرين يتفقون معنا فى انها تحتاج حقيقة إلى تامل.

لقد أحسن الصاحب إلى القاضى كل الإحسان و احبه و قدره و غمره بالمال و المناصب ثم مات الصاحب و دعى القاضى للصلاة عليه و هنا وقف القاضى بين أمرين كلاهما مر أحدهما مبدؤه- مبدأ القاضى- و هو مبدأ الاعتزال، و هذا المبدأ يقتضى التوبة الصادقة لأن مرتكب الكبيرة فاسق فإذا لم يتب فلا- صلاة عليه، هل يصلى عليه و يخالف فى ذلك مبدأه و يصغر فى عين نفسه و يصبح بمخالفته مبدأه مهرجا أو مزيفا.

مناهج المفسرين، ص: ۸۱

أما الأمر الثانى: فهو الوفاء الذى يقتضيه الصلاة على الصاحب و الشكر و عدم التنكر له بعد انتقاله إلى ربه و عدم نكران الجميل.

المبدأ أو الوفاء.

و آثر القاضى: المبدأ.

و رفض الصلاة على الصاحب.

و هنا ثار الناس عليه ثورة عارمة و رموه ينكران الجميل، و بعدم الوفاء، و نقم عليه فخر الدولة و قبض عليه، و عزله من منصبه و صادر امواله.

أ كان القاضى على حق، أ كان مخطئا ذلك ما نتركه للقارئ.

و لقد طال عمر القاضى حتى ليقول ابن الأثير:

«و قد جاوز التسعين» و مات فى ذى القعدة سنة خمس عشرة و أربعمائة.

و الكتاب الذى نتحدث عنه هو كتاب:

«متشابه القرآن» و عنوانه يدل على محتواه، فهو تفسير للآيات المتشابهة.

و المتشابه يختلف الناس فى معناه و لكنهم مهما اختلفوا فإن القاضى عرض للآراء المختلفة فى المتشابه، و المتشابه- فيما يرى- هو الذى على صفة تشتبه على السامع من حيث خرج ظاهره على أن يدل على المراد به لشىء يرجع إلى اللغة أو التعارف، و يضرب القاضى مثالا لذلك:

بقول تعالى:- إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ (سورة الأحزاب الآية ۵۷) فإن هذه الكلمة القرآنية و ما شاكلها ظاهرها محال على اللّه تعالى،

فالمراد مشتبهه و يحتاج فى معرفته إلى الرجوع إلى غيره من المحكم.

مناهج المفسرين، ص: ۸۲

و تفسير القاضى للمتشابه بهذا النحو يجعل دائرة المتشابه واسعة تشمل كل الآراء التى قيلت فى المتشابه.

أما المحكم فهو الذى لا يحتمل إلا المعنى الظاهر فى أصل اللغة أو بالتعارف أو بشواهد العقل، و ذلك نحو قوله تعالى:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ (سورة الإخلاص) و نحو قوله تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً (سورة يونس الآية ۴۴) و الكتاب مسائل، يعرض المؤلف الآية فى صورة مسألة، و يفسرها بما يتناسب مع الجو الإسلامى و خصوصا مع جو الاعتزال، و من أمثلة ذلك ما يلى:

مسألة قالوا: ثم ذكر تعالى بعد ذلك ما يدل على إنه خص المؤمن بالهدى دون غيره.

فقال:

فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ (سورة البقرة الآية ۲۱۳) و الجواب عن ذلك: قد تقدم انا قد بينا أن تخصيصه المؤمن بأن هداه لا يدل على إنه لم يهد غيره، و إنما خصه، لانه الذى انتفع بالهدى دون غيره.

«و بينا أنه قد يخص المؤمن بالهدى الذى هو بمعنى الثواب، أو طريقه

مناهج المفسرين، ص: ۸۳

المؤدى إليه، إلا أن المراد فى هذا الموضع: الدلالة، و لذلك علق الهدى بالحق فما اختلفوا فيه.

و قوله تعالى من بعد:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْباطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجارَةً عَنْ تَراضٍ مِنْكُمْ وَ لا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً، وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ عُدْواناً وَ ظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ ناراً وَ كانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (سورة النساء الآية ۲۹ و ۳۰) فدل تعالى على أن من يفعل أكل المال بالباطل و قتل النفس يدخله النار لا محالة و قد يوصف بذلك الفاسق من أهل الصلاة، كالكافر، فيجب حمل الآية على العموم، و معقول من حال الكلام أنه يريد النهى عن أن يأكل بعضنا أموال بعض، و الوعيد وارد عليه على الحد الذى وقع النهى.

عنه، فليس لاحد أن يتعلق بذلك فاما قتل النفس فالنهى يتناول فيه أن يقتل بعضنا بعضا أو أن يقتل نفسه و كلاهما سواء فى صحة النهى فيهما، فإن حمل على الامرين ورد الوعيد عليهما جميعا.

و إنما قال: العلماء إن المراد به: و لا يقتل بعضكم بعضا، من حيث ثبت أن الإنسان ملجأ إلى أن يقتل نفسه، فلا يصح و حاله هذه أن ينهى عن القتل، فيجب إذا صرف النهى إلى الوجه الثانى، و الوعيد إنما ورد على هذا الحد.

مسألة: قالوا: ثم ذكر بعده ما يدل على أنه هو الخالق لانصراف المؤمن عن اتباع الشيطان، فقال:

وَ لَوْ لا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ رَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطانَ إِلَّا قَلِيلًا (سورة النساء الآية ۸۳)

مناهج المفسرين، ص: ۸۴

و الجواب عن ذلك: ان ظاهره يقتضى انه لو لا فضله لا قدمنا على المعصية، و ليس فيه بيان ذلك الفضل، و المراد به الالطاف و التاييد و سائر ما يصرف المرء عن اتباع الشيطان و المعاصى، و بين تعالى أن ذلك الفضل لو لم يفعله لكان فيهم من لا يتبع الشيطان مبينا بذلك أن المعلوم من حال كثير منهم أنه يؤمن و يتصرف عن اتباع الشيطان و إن لم يلطف له، و هذا يصدق قولنا فى اللطف أنه قد يختص بمكلف دون مكلف.

و إن حملت الكلام على أنه لو لا فضله على الكل لا تبعوا الشيطان إلا قليلا منهم فإنهم مع فضله عليهم يتبعونه، فإنه يدل على مثل ما قدمناه فى أن اللطف قد يختص، و قد يختص، و قد يفعل بمكلفين فيكون لطفا لاحدهما دون الآخر، كما أن رفق الوالد بأحد ولديه قد يكون لطفا له فى التعليم، و لا يكون لطفا فى الآخر.

و بعد: فإن هذا الكتاب فى غاية النفاسة إذا نظرنا إلى مذهب المعتزلة أما إذا نظرنا إلى مذهب أهل السنة، فإن فيه الكثير من التفانى، و لكن فيه أيضا، الكثير مما يمكن المناقشة فيه و الجدل، و هو على كل حال كتاب للخاصة.

مناهج المفسرين، ص: ۸۵

الإمام القشيرى و تفسيره لطائف الإشارات

يمثل الإمام القشيرى اتجاها خاصا فى العلوم الإسلامية، إنه الاتجاه الصوفى فى أدق مظاهره و أنقى صوره: اتباع للسنة، و كشف لدقائق الطريق، ورد لما نسب إلى التصوف من مظاهر، و ما التصق به من رسوم ..

و الإمام القشيرى هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك زين الإسلام القشيرى نسبة إلى قبيلة بنى قشير العربية الأصيلة.

ولد فى قرية من نواحى نيسابور و مات أبوه و هو صغير، فاتجهت اسرته نحو العلم، فسمع من كبار الشيوخ، و تلقى عن كثير من العلماء و من أهم هؤلاء الذين أثروا فى تكوين شخصيته العلمية و حياته الفكرية ابن فروك و أبو إسحاق الأسفرائنى و غيرهم.

ثم ارادت المقادير أن يحضر درس: الأستاذ ابن على الدقاق، ليرى اخلاصا، و يرى تقوى، و يرى نورا يرتسم على وجهه، و يشرق من كلماته فينير قلوب السامعين، و بجذبهم إلى اللّه، و كانت فطرة القشيرى النقية على استعداد تام لسلوك الطريق، و رأى الإمام أبو على الدقاق فيه النجابة، فقبله فى زمرة مريديه، ثم اصطفاه فى زمرة أخصائه، و زوجه ابنته، مع كثرة أقاربها ..

و تأثر القشيرى بالشيخ الدقاق، و كان ذا شخصية قوية فيما يتصل بالتصوف و الصوفية، دقيق البحث عميق الفكرة، رائد السلوك، يقول المناوى عنه:

كان لسان وقته، و إمام عصره، فارها فى العلم، محمود السيرة، مجهود السريرة، جنيدى الطريقة سرى الحقيقة، أخذ مذهب الشافعى عن القفال

مناهج المفسرين، ص: ۸۶

و الحصرى و غيرهما، و برع فى الأصول و فى الفقه و فى العربية حتى شدت إليه الرحال فى ذلك، ثم أخذ فى العمل، و سلك طريق التصوف، و أخذ عن النصرآباذى .. قال ابن شهبة: (و زاد عليه حالا و مقالا، و عنه أخذ القشيرى صاحب الرسالة، و له كرامات ظاهرة و مكاشفات باهرة ...

و كما استفاد القشيرى من أساتذته تأثر بمن عاصره من العلماء، كما أثر فيهم، و من أشهر هؤلاء: (السلمى و أبى المعالى الجوينى إمام الحرمين).

و قد ألف الإمام القشيرى عددا من المؤلفات الهامة تدور فى مجملها حول التصوف، سواء أ كان تحديدا لماهيته، أم فهما للقرآن على ضوئه، أو مناقشة للأمور التى تلازمه كالذكر و نحوه ... و من أهم هذه المؤلفات:

۱- الرسالة القشيرية، كتبها المؤلف فى سنة سبع و ثلاثين و أربعمائة إلى جماعة الصوفية ببلدان الإسلام.

كتبها تصحيحا لأوضاع كثيرة انحرفت، و بيانا لما ينبغى أن يكون عليه المريد الصادق.

لقد كانت هناك جوانب كثيرة فى الاجواء التى تزعم أنها صوفية قد دب إليها الفساد، و سلك بعض المدعين مسالك لا تمت إلى الدين و لا إلى التصوف بصلة، كما هو الشأن دائما فى المدعين المزيفين الذين يوجدون فى كل عصر و فى كل ميادين، فأشفق الإمام القشيرى على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر- أى أمر التصوف- على هذه الجملة قد بنى قواعده، و على هذا النحو سار سلفه ...

و قاده هذا الاشفاق إلى أن يكتب هذه الرسالة مبينا فيها جانبين:

الجانب الأول: سيرة رجال التصوف و بعض أقوالهم، و ذكر فى هذا الجانب كثيرا من أعلام الصوفية كنماذج يسير المريد على هديهم ...

أما الجانب الثانى: فإنه مبادئ السلوك و مناهجه ..

۲- تفسيره المشهور: لطائف الاشارات «و سنتحدث عنه بالتفصيل».

مناهج المفسرين، ص: ۸۷

۳- التيسير فى التفسير، مخطوط فى النهد و لندن.

۴- حياة الأرواح و الدليل على طريق الصلاح و الفلاح، مخطوط بالاسكوريال.

۵- المعراج و قد حققه الدكتور على حسن عبد القادر.

۶- شكابة أهل السنة، ذكرها السبكى فى طبقات الشافعية كاملة ..

۷- الفصول، و هو مخطوط بالقاهرة.

۸- الوحيد النبوى، مخطوط بالقاهرة.

۹- اللمع، مخطوط بالقاهرة.

۱۰- شرح أسماء اللّه الحسنى، و قد طبعه مجمع البحوث الإسلامية ..

و هذه المؤلفات انما تدل على تمكن صاحبها من علوم الشريعة و الحقيقة، و رعايته فى الحديث لما يقتضيه كل من العلمين، فلم يكن فى حديثه عن التصوف إلا معبرا عن الشريعة، و لم يكن فى حديثه عن الشريعة إلا موضحا لها ببعض المفاهيم الصوفية ..

و انتهى الأمر بالقشيرى إلى أن أصبح كما يقول عنه الإمام عبد الغافر:

الإمام مطلقا، الفقيه، المتكلم، الاصولى، المفسر، الاديب، النحوى، الكاتب، الشاعر لسان عصره، و سيد وقته، و سر اللّه بين خلقه، مدار الحقيقة، و عين السعادة، و قطب السيادة، من جمع بين الشريعة و الحقيقة، كان يعرف الأصول على مذهب الاشعرى، و الفروع على مذهب الشافعى ..

و لقد ترجم له صاحب كتاب «دمية القصر» أبو الحسن الباخرزى فقال:

جامع لأنواع المحاسن، تنقاد له صعابها ذلل المراسين، فلو قرع الصخر بصوت تخديره لذاب، و لو ربط ابليس فى مجلس تذكيره لتاب، و له فصل الخطاب فى فصل المنطق المستطاب، ماهر فى التكلم على مذهب الاشعرى، خارج فى احاطته بالعلوم عن الحد البشرى كلماته للمستفيدين فوائد و فوائد،

مناهج المفسرين، ص: ۸۸

و اعتاب منبره للعارفين وسائد ثم إذا عقد بين مشايخ الصوفية حبوته، و رأوا قربته من الحق و حظوته: تضاء لوا بين يديه، و تلاشوا بالإضافة إليه و طواهم بساطه فى حواشيه، و انقسموا بين النظر و التفكير فيه، و له شعر يتوج به رءوس معاليه، إذا ختمت به أذناب أماليه».

و توفى يوم الاحد فى السادس عشر من شهر ربيع الأول عام ۴۶۵ ه خمس و ستين و أربعمائة بمدينة (نيسابور) و دفن بجوار شيخه أبى على الدقاق رحمهما اللّه رحمة واسعة.

قدم الإمام القشيرى لتفسيره بمقدمة تشير إلى منهجه، و تبين طريقته فى تأليفه فقال:

الحمد اللّه الذى شرح قلوب أوليائه بعرفانه، و أوضح نهج الحق بلائح برهان لمن أراد طريقه، و أتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه، و أنزل الفرقان هدى و تبيانا على صفيه محمد صلّى اللّه عليه و سلم و على آله معجزة و بيانا، و أودع صدور العلماء معرفته و تأويله، و أكرمهم بعلم قصصه و نزوله، و رزقهم الإيمان بمحكمة و متشابهه و ناسخه، و وعده و وعيده، و أكرم الاصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف اسراره و أنواره، لاستبشار ما ضمنه من دقيق اشاراته، و خفى رموزه بما لوح لاسرارهم من مكنونات، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم، ثم نطقوا على مراتبهم و أقدارهم و الحق سبحانه و تعالى يلهمهم بما به يكرمهم

فهم به عنه ناطقون و عن لطائفه مخبرون و إليه يشيرون، و عنه يفصحون و الحكم إليه فى جميع ما يأتون به و يذرون.

و قال الإمام أبو القاسم القشيرى رحمه اللّه:

و كتابنا هذا يأتى على ذكر طرف من اشارات القرآن على لسان أهل المعرفة اما من معانى مقولهم، أو قضايا أصولهم سلكنا فيه طريق الاقلال خشية الملال، مستجدين من اللّه تعالى عوائد المنة، متبرئين من الحول و المنة، مستعصمين من الخطإ و الخلل، مستوفقين لاصوب القول و العمل ملتمسين أن

مناهج المفسرين، ص: ۸۹

يصلى على سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلم، ليختم لنا بالحسنى بمنته و افضاله، و تيسر الاخذ فى ابتداء هذا الكتاب فى شهور سنة اربع و ثلاثين و أربعمائة، و على اللّه إتمامه إن شاء اللّه تعالى عز و جل.

لقد بين فى هذه المقدمة أن كتابه إنما هو ذكر لطرف من اشارات القرآن على لسان أهل المعرفة، و هذه الاشارات دقيقة محكمة مختصرة، و هى و إن كانت تعبر عن الحقيقة فإنها لا تخالف الشريعة، فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول، و كل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول.

إن هذا التفسير يمثل مرحلة أخرى فوق مرحلة التفسير العادى الذى يعتمد على قواعد اللغة و ألوان العلوم التى يحتاج إليها المفسر .. إنه كشف لذوق، و إبراز لا حساس تحصل من المجاهدة، و ساعد عليه فضل اللّه تعالى الذى فجر ينابيع الفهوم ..

و من هنا يعد مكملا لغيره من ألوان التفاسير لا مباينا لها، و يتعاون الجميع كل فى مجاله على فهم آيات القرآن الكريم.

و من نماذج هذا التفسير:

قوله جل ذكره:

وَ كَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَما وَهَنُوا لِما أَصابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ما ضَعُفُوا وَ مَا اسْتَكانُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (سورة آل عمران الآية ۱۴۶) «إن الذين درجوا على الوفاء، و قاموا بحق الصفاء، و لم يرجعوا عن الطريق و طالبوا نفوسهم بالتحقيق، و أخذوا عليها بالتضييق و التدقيق، وجدوا محبة الحق سبحانه ميراث صبرهم، و كان الخلف عنهم الحق عند نهاية أمرهم، فما زاغوا عن شرط الجهد، و لا زاغوا فى حفظ العهد، و سلموا

مناهج المفسرين، ص: ۹۰

تسليما و خرجوا عن الدنيا و كان كل منهم للعهد مقيما مستديما، و على شرط الخدمة و الوداد مستقيما ..»

قوله جل ذكره: يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (سورة الانفطار الآية ۶) أى ما خدعك و ما سول لك حتى عملت بمعاصيه؟ و يقال: سأله و كأنما فى نفس السؤال لقنه الجواب، يقول: غرنى كرمك بى و لو لا كرمك لما فعلت، لأنك رأيت فسترت، و قدرت فأمهلت ..

لا استحلالا له و لكن طول حلمه عنه حمله على سوء خصاله و كما قلت:

يقول مولاى: أما تستحى‌مما أرى من سوء أفعالك

قلت: يا مولاى رفقا فقدجرأنى كثرة أفضالك قوله جل ذكره: الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ أى ركب أعضاءك على الوجوه الحكمية فى أى صورة ما شاء، من الحسن و القبح و الطول و القصر، و يصح أن تكون الصورة هنا بمعنى الصفة و فى بمعنى على فيكون معناه: على أى صفة شاء ركبك: من السعادة أو الشقاوة، و الإيمان أو المعصية» هذا و قد قام الدكتور إبراهيم بسيونى بجهد مشكور فى تحقيق هذا التفسير و اخراجه على صورة طيبة حازت إعجاب الجميع، فشكر اللّه له جهده، و نفع بهذا التفسير ..

مناهج المفسرين، ص: ۹۱

شيخ الشافعية ببغداد الكيا الهراس و تفسيره

اشارة

الإمام شمس الإسلام عماد الدين أبو الحسن على بن محمد الطبرى المعروف بالكياالهراس الملقب: عماد الدين.

«و الكيا» بهمزة مكسورة و لام ساكنة، ثم كاف مكسورة بعدها ياء مثناة من تحت معناه الكبير بلغة الفرس.

«الهراس» براء مشددة و سين مهملة- قال ابن العماد فى الشذرات:

(لا نعلم تبعيته لأى شىء) ولد الهراس خامس ذى القعدة سنة خمسين و أربعمائة للهجرة و نشأ طالبا للعلم جادا فى تحصيله و رحل فى سبيله إلى نيسابور فى الثامنة عشرة من عمره قاصدا ساحة العالم الجليل و الإمام المشهور إمام الحرمين الذى كان حسن الوجه مليح الكلام فحصل طريقته و تخرج و صار من ائمة اصحابه، و برز فى الفقه و الأصول و غيرهما من العلوم، و أصبح من رءوس المعيدين فى الدرس- و كان هو و أقرانه- الغزالى و الخوافى- أبرز تلاميذ إمام الحرمين و أنبغ من تخرج به.

و مما يدل على جده فى تحصيل العلم و حفظه ما قاله عن نفسه:

و كان فى مدرسة «سرهنگ» قناة لها سبعون درجة و كنت إذا حفظت الدرس انزل القناة و أعيد الدرس كل درجة فى الصعود و النزول، و كذا كنت افعل فى كل درس حفظته ..».

و قد واصل الهراس الرحلة إلى بيهق و درس بها زمنا ثم تحول بعد ذلك إلى مدينة العلم و حاضرة العصر و موطن العلم و العلماء مدينة بغداد. و قد انتهى به الأمر فى هذه المدينة إلى ان تبوأ بها منزلة رفيعة فى العلم و شأنا عظيما بين العلماء حيث تولى التدريس بالمدرسة النظامية بها فى ذى الحجة سنة ثلاث و تسعين

مناهج المفسرين، ص: ۹۲

و أربعمائة و استمر مدرسا بها إلى ان توفى فى أول شهر المحرم سنة أربع و خمسمائة للهجرة.

مكانته و ثناء العلماء عليه:

لقد بلغ الهراس منزلة سامية و محلا مرموقا فى العلم و بين العلماء و قد استفاض العلماء فى بيان مكانته و التعريف بمنزلته فقال عبد الغفار بن اسماعيل الفارس عنه:

«الإمام البالغ فى النظر مبلغ الفحول».

و قال السبكى عنه:

أحد فحول العلماء و رءوس الأئمة فقها و أصولا و جدلا و حفظا لمتون احاديث الاحكام.

و قال الاسنوى:

كان اماما نظارا، قوى البحث، دقيق الفكر، ذكيا فصيحا، جهورى الصوت حسن الوجه جدا و كان فى مناظرته قوى الحجة بين الدلالة واضح الرأى له لطافة و عذوبة.

يقول السبكى:

و كانت فيه لطافة عند مناظرته، ربما ناظر بعض علماء العراق فأنشد:

ارفق بعيدك ان فيه يبوسه‌جبلية و لك العراق و ماؤه قيل: انشد هذا البيت فى مناظرته مع أبى الوفاء بن عقيل الحنبلى- و كان أبو الوفاء مشهورا بتمسكه بالاصول و شدته فى الرأى، و قد نقل عنه الجوزى فى كثير من كتبه عن كتبه محتجا بآرائه و لا سيما فى كتاب «تلبيس ابليس».

و مما يدل على هذه المكانة السامية و منزلته بين علماء عصره، ما حكاه الاسنوى قائلا:

مناهج المفسرين، ص: ۹۳

«و كان ممن حضر جنازته الشريف أبو طالب الزيوبى. و قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى مقدما أصحاب الحنفية، و كانت بينه و بينهما منافسة فوقف احدهما عند رأس قبره و الآخر عند رجليه، و أنشد ابن الدامغانى:

و ما تغنى النوادب و البواكى و قد أصبحت مثل حديث أمس

و أنشد الشريف

-:

عقم النساء فلم يلدن شبيههان النساء بمثله عقم و قد رثاه خادمه أبو إسحاق إبراهيم بن عثمان العزى الشاعر المشهور حيث قال:

بكى على شمسه الاسلام اذا فلتبأدمع قل فى تشبيهها المطر

حبر عهدناه طلق الوجه مبتسماو البشر احسن ما يلقى به البشر

احيا ابن ادريس درسا كنت تورده‌تحار فى نظمه الآذان و الفكر

من فاز منه بتعليق فقد علقت‌يمينه بشهاب ليس ينكدر رحم اللّه الهراس الذى كان محبا لأهل بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و السنة قولا و عملا حتى قال عنه ابن خلكان: كان محدثا يستعمل الأحاديث فى مناظراته و مجالساته و نقل عنه قوله:

«إذا جالت الأحاديث فى ميادين الكفاح طارت رءوس المقاييس فى مهاب الرياح».

فتاويه

:- و للهراس كثير من الفتاوى المنثورة فى امهات المراجع و نقلها عنه تلاميذه المشهورون، و منها ما نقله عنه الحافظ أبى طاهر السلفى إذ قال:

«استفتيت شيخنا الكيا الهراس: ما يقوله الإمام- وفقه اللّه تعالى- فى رجل أوصى بثلث ماله للعلماء و الفقهاء، أ تدخل كتبه الحديث هذه الوصية أم لا؟

مناهج المفسرين، ص: ۹۴

فكتب الشيخ تحت السؤال: نعم، كيف لا و قد قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم.

«من حفظ على أمتى أربعين حديثا من أمر دينها بعثه اللّه يوم القيامة فقيها عالما».

مؤلفاته

:- كثرت مؤلفات الهراس فى فنون مختلفة شملت القرآن و الحديث و علوم الشريعة الغراء، و من اشهر هذه المؤلفات:

أحكام القرآن- و سنتناوله بالحديث بعد ذلك (لوامع الدلائل فى زوايا المسائل) و (شفاء المسترشدين فى مباحث المجتهدين).

و (نقد مفردات الإمام أحمد).

و (كتاب فى أصول الفقه).

مناهج المفسرين، ص: ۹۵

أحكام القرآن

اشارة

يعتبر كتاب احكام القرآن الذى ألفه الهراس واحدا من اشهر التآليف التى تعنى بآيات الاحكام فهما و استنباطا و استخراجا للأصول منها حيث تظهر الثروة الكبيرة فى مجال الفقه و التشريع الاسلامى.

و قد راعى مؤلفه فيه الايجاز و الاختصار و الاقتصار على اللباب فجاء كتابه وافيا فى بابه نافعا لقارئه.

و الكتاب يعد من أول الكتب المؤلفة فى أحكام القرآن على مذهب الإمام الشافعى حيث استخدم منهجه و سلك مسلكه و سار على طريقته فضم بذلك- إلى جانب ما ألفه غيره من أتباع أبى حنيفة و مالك رحمهما اللّه نظرة تكاد تكون متكاملة على الجانب التشريعى للقرآن الكريم.

يقول الهراس اثناء مقدمته لهذا الكتاب.

«و بعد: فإنى لما تأملت مذاهب القدماء المعتبرين، و العلماء المتقدمين و المتأخرين و مذاهبهم و آراءهم و لحظت مطالبهم و أبحاثهم، رأيت مذهب الشافعى رضى اللّه عنه و أرضاه اسدها و أقواها و أرشدها و أحكمها حتى كان نظره فى كبر آرائه و معظم ابحاثه يترقى عند حد الظن و التخمين إلى درجة الحق و اليقين.

و لم أجد لذلك سببا أقوى و أوضح و أو فى من تطبيقه مذهبه على كتاب اللّه تعالى:

لا- يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ. (سورة فصلت الآية ۴۲) و أنه اتيح له درك غوامض معانيه، و الغوص على تيار بحره لاستخراج

مناهج المفسرين، ص: ۹۶

ما فيه. و ان اللّه فتح عليه من أبوابه و يسر عليه من اسبابه و رفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه، و لم يأت لمن عداه فكان على ما اخبر اللّه تعالى عن ذى القرنين فى قوله: آتَيْناهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً.

(سورة الكهف الآية ۸۴) و لما رأينا الأمر كذلك اردت أن اصنف فى احكام القرآن كتابا اشرح فيه ما انتزعه الشافعى رضى اللّه عنه من أخذ الدلائل فى غوامض المسائل و ضممت إليه ما نسجته على منواله، و احتذيت فيه على مثاله على قدر طاقتى و جهدى و مبلغ وسعى و جدى ..

ثم يقول:- و لن يعرف قدر هذا الكتاب و ما فيه من العجب العجاب إلا من وفر حظه من علوم المعقول و المنقول. و متبحر فى الفروع و الأصول ثم اكب على مطالعة هذه الفصول بمسكة صحيحة و قريحة نقية غير قريحة ..

و أعوذ باللّه من الاعجاب بالابداع و الميل بالهوى إلى بعض الآراء فى مظان النزاع، و أسأله أن يجعل مجامع مساعينا و جل متابعنا فى طلب مرضاته إنه ولى قدير و بالاجابة جدير فأقول:

لما رأيت أقاويل المفسرين فى أحكام القرآن متجاوزة حد البيان آخذة بطرفى الزيادة و النقصان، جررت فى سرجها هذه الفصول المتضمنة من اللفظ و المعنى شفاء كل عليل مع انتخابى فيها قصد السبيل، و توقى التعليل و التطويل ...

و قد انتفع بهذا الكتاب الكثيرون من العلماء و اثنوا عليه الثناء المستطاب و اعتمدوا عليه فى تأليفهم بعده حتى قال عنه ابن العربى الذى جاء بعده فى مقدمة كتابه أحكام القرآن.

«إن مؤلفه أتى فيه بالعجب، و نثر فيه لباب الألباب و فتح فيه لكل من جاء بعده إلى معارفة الباب، فكل أحد غرف منه على قدر انائه ..

مناهج المفسرين، ص: ۹۷

نموذج من «أحكام القرآن»

قوله تعالى: وَ مَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَ سَعى فِي خَرابِها. (سورة البقرة الآية ۱۱۴) قوله «منع» نزل فى شأن

المشرکین حین منعوا المسلمین من ذکر اللّه تعالی فی المسجد الحرام و سعیهم فی خرابه بمنعهم من عمارته بذکر اللّه و طاعته و قوله «أولئک ما کان لهم ان یدخلوها إلا خائفین».

یدل علی ان المسلمین اخرجوهم منها إذ دخلوها.

و یدل علی مثل ذلک قوله تعالی:

ما کانَ لِلْمُشْرِکِینَ أَنْ یَعْمُرُوا مَساجِدَ اللَّهِ.

و عمارتها تکون ببنائها و اصلاحها و الثانی حضورها و لزومها، کما یقال:- فلان یعمر مسجد فلان؛ أی یحضره و یلزمه.

قوله عز و جل:

وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ. (سورهٔ البقرهٔ الآیهٔ ۱۱۵) و یدل علی جواز التوجه إلی الجهات فی النوافل، و للمجتهد جواز التعبد بالجمیع ..

قوله تعالی:- وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَ.

مناهج المفسرین، ص: ۹۸

دلت علی أن التنظف و نفی الأوساخ و الاقذار عن الثیاب و البدن مأمور به و قد قال سلیمان بن فرج أبو واصل اتیت أبا أیوب فصافحته فرأی فی أظافری طولا فقال: جاء إلی النبی علیه السلام رجل یسأل عن اخبار السماء فقال:

یجیء أحدکم یسأل عن خبر السماء و أظفاره کأنها اظفار الطیر یجتمع فیها الوسخ و التفث؟

قوله تعالی:- إِنِّی جاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِماماً.

الامام: من یؤتم به فی امر الدین کالنبی علیه السلام و الخلیفهٔ و العالم اخبر اللّه تعالی إبراهیم انه جاعله للناس اماما، و سأل إبراهیم ربه أن یکون ابناؤه أئمهٔ فقال تعالی:

لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ. (سورهٔ البقرهٔ الآیهٔ ۱۲۴) و دل قوله تعالی:

لا یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ.

علی ان الاجابهٔ قد وقعت له فی ان من ذریته ائمهٔ و لکن لا- امامه لظالم حتی لا یقتدی به، و لا یجب علی الناس قبول قوله فی امر الدین.

نعم: کان یجوز ان تظهر المعجزهٔ علی ید فاسق ظالم، و یجب قبول قوله لوجود الدلیل، و ان لم یجب قبول قول الفاسق لعدم ظهور الصدق و عدمه عقلا غیر ان العصمهٔ و جبت للانبیاء سمعا.

و یجوز عقلا وجوب قبول قول الفاسق و لکن دلت هذه الآیهٔ علی ان عهد اللّه تعالی لا ینال الظالمین.

فیحتمل أن یکون ذلک النبوهٔ، و یحتمل أن یکون ما اراد لهم من امر دینه، و أجاز قولهم فیه، و أمر الناس بقبوله منهم.

مناهج المفسرین، ص: ۹۹

و یطلق العهد علی الأمر قال اللّه تعالی.

إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَیْنا. (سورهٔ آل عمران الآیهٔ ۱۸۳) یعنی امرنا و قال:

أَ لَمْ أَعْهَدْ إِلَیْکُمْ یا بَنِی آدَمَ. (سورهٔ یس الآیهٔ ۶۰) یعنی أ لم اقدم إلیکم الأمر به:

و إذا کان عهد اللّه هو اوامره، فقوله: لا- یَنالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ لا یرید به انهم غیر مأمورین لأن ذلک خلاف الاجماع، فدل علی ان المراد به أن یکونوا بجملهٔ من تقبل منهم أوامر اللّه، و لا یؤمنون علیها.

مناهج المفسرین، ص: ۱۰۱

الواحدی النیسابوری و أسباب النزول

هو على بن أحمد بن محمد بن على الواحدى النيسابورى، الامام الكبير أبو الحسن كان أبوه من التجار فتهيأ له طلب العلم و الأخذ منه، فأخذ العربية عن أبى الحسن القهندزى، و اللغة عن أبى الفضل أحمد بن محمد بن يوسف العروضى صاحب أبى منصور الأزهرى، و سمع من أبى الطاهر الزيادى و أبى بكر أحمد بن الحسن الحيرى و أبى إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم الواعظ، و عبد الرحمن بن حمدان النصرونى، و أحمد إبراهيم النجار و خلق.

و داب الواحدى فى طلب العلم، وجد فيه حتى لقد قيل عنه: واحد عصره فى التفسير و كان له من المؤلفات الكثيرة فى التفسير و غيره، و من مؤلفاته فى ذلك:

البسيط، و الوسيط، و الوجيز، و كلها تفسير للقرآن الكريم، فالبسيط فى نحو ستة عشر مجلدا، و الوسيط فى اربعة مجلدات، و الوجيز فى أقل من ذلك:

و منها: اسباب النزول و هو موضوع حديثنا و هو مطبوع بمصر محقق.

و منها: التحبير فى شرح الأسماء الحسنى.

و منها: شرح ديوان المتنبى.

و منها: الدعوات.

و منها: المغازى.

و منها: الاغراب فى علم الاعراب.

و منها: كتاب تفسير النبى صلّى اللّه عليه و سلم.

مناهج المفسرين، ص: ۱۰۲

و منها: شرح ديوان المتنبى.

و كان له شعر مليح، و اختيار طيب لما ينقل، فمن تفسيره فيما نقله التاج السبكى فى طبقاته ما قاله فى الوسيط فى تفسيره سورة القتال عند الكلام على قوله تعالى:

وَ سُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ.

أخبرنى أبو الحسن محمد بن أحمد بن الفضل بن يحيى، عن محمد بن عبيد اللّه الكاتب قال:

قدمت مكة، فلما وصلت إلى طيزناباذ ذكرت بيت أبى نواس:

كرم ما مررت به إلاتعجبت ممن يشرب الماء فهتف بى هاتف اسمع صوته و لا اراه:

و فى الجحيم حميم ما تجرعه‌حلق فابقى له فى البطن امعاء و فى تفسير «أ لم نشرح» نقل بسنده عن ابن العتبى قال:

كنت ذات ليلة فى البادية بحالة من الغم، فألقى فى روعى بيت من الشعر، فقلت:

ارى الموت لمن أصبح مغموما له اروح فلما جن الليل سمعت هاتفا يهتف فى الهواء.

ألا ايها المرء الذى الهم به برح

و قد انشد بيتا لم‌يزل فى فكره يسبح

إذا اشتد بك، الأمرففكر فى أ لم نشرح

فعسر بين يسرين‌إذا ابصرته فافرح و قد نقل الواحدى عن الشعبى قال:

فرق اللّه تنزيله فكان بين أوله و آخره عشرون أو نحو عشرين سنة انزله قرآنا

مناهج المفسرين، ص: ۱۰۳

عظيما و ذكرا حكيما، و حبلا ممدودا، و عهدا معهودا، و ظلا عميما، و صراطا مستقيما، فيه معجزات باهرة و آيات ظاهرة، و حجج

صادقة، و دلالات ناطقة، دحض به حجج المبطلين. ورد به كيد الكائدين، و ايد به الاسلام و الدين فلمع منهاجه، و ثقب سراجه، و شملت بركته، و لمعت حكمته على خاتم الرسالة، و الصادع بالدلالة، الهادى للأمة، الكاشف للغمة الناطق بالحكمة، المبعوث بالرحمة، فرفع اعلام الحق، و احيا معالم الصدق، و دفع الكذب و محا آثاره، و قمع الشرك و هدم مناره، و لم يزل يعارض ببيناته المشركين، حتى مهد الدين، و ابطل شبه الملحدين، صلّى اللّه عليه و سلم صلاة لا ينتهى امدها، و لا ينقطع مددها و على آله و أصحابه الذين هداهم و طهرهم ...

أما كتابه اسباب النزول فهو من احسن المؤلفات فى هذا الباب و قد جمع فيه تقريبا جميع المرويات من الحديث و أقوال الصحابة و التابعين فى سبب نزول الآيات، و قد رتبه سورة بعد سورة. على ترتيب المصحف و يذكر فى كل سورة منها ما ورد من سبب نزول الآيات بها فليس كل آية ورد بها سبب نزول عنده و لكنه عد ذلك فى كثير من الآيات مع ذكر السند الذى يوثقها.

و هاك نموذجا من أسباب النزول:- قوله تعالى:

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. (سورة الصف الآية ١) أخبرنا محمد بن جعفر، حدثنا محمد بن عبد اللّه بن زكريا، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الدغولى، قال: حدثنا محمد بن بهيجى، حدثنا محمد بن كثير الصنعانى عن الأوزاعى عن يحيى بن كثير، عن ابن سلمة عن عبد اللّه بن سلام:

قال:

قعدنا نفر من أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فتذكرنا و قلنا:

مناهج المفسرين، ص: ١٠۴

لو نعلم أى الأعمال أحب إلى اللّه تبارك و تعالى عملناه. فأنزل اللّه تعالى:

سَبَّحَ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

إلى قوله:

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ. (سورة الصف الآية ١، ۴) إلى آخر السورة فقرأها علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

و فى سورة الفتح: قوله عز و جل:

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ. إلى آخر الآية.

أخبرنا سعيد بن محمد المقرى قال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد المدينى، قال حدثنا أحمد بن عبد الرحمن السقطى قال: حدثنا يزيد بن هارون قال: أخبرنا همام عن قتادة عن أنس قال:

لما نزلت:

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً، لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ ما تَأَخَّرَ.

قال أصحاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: هنيئا لك يا رسول اللّه ما أعطاك اللّه، فما لنا؟ فأنزل اللّه تعالى:

لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ .... (سورة الفتح الآية ١، ۵)

مناهج المفسرين، ص: ١٠۵

الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل فى وجوه التأويل

اشارة

مؤلفه هو: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى- الملقب ب «جار اللّه» و قد كان حنفى المذهب، معتزلى العقيدة.

و لقب بجار اللّه، لأنه ذهب إلى مكة و جاور بها زمنا.

أما مولده: فكان فى رجب سنة ۴۶۷ ه- فى قرية من قرى «خوارزم تسمى «زمخشر» و من هنا كان انتسابه إليها فقيل له: الزمخشرى.

رحلته

: و قد دأب الزمخشرى على السفر و الانتقال من مكان إلى مكان، فقد سافر إلى بغداد، و سافر إلى «خراسان» عدة مرات، و سافر إلى الأرض المقدسة، و أقام بها طويلا، و ألف فيها كتابه «الكشاف» الذى يقول عنه: انه ألفه فى مدة مقدارها مدة خلافة أبى بكر رضى اللّه عنه أى سنتان و بضعة أشهر، انه يقول:

«و وفق اللّه و سدد ففرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه، و كان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة، و ما هى إلا- آية من آيات هذا البيت المحرم، و بركة أفيضت على من بركات هذا الحرم المعظم، اسأل اللّه أن يجعل ما تعبت فيه سببا ينجينى و نورا لى على الصراط يسعى بين يدى و يمينى، و نعم المسئول ...»

لقد ألفه الزمخشرى فى أواخر عمره، و ألفه بعد أن أجرى تجربة فى التفسير كانت ناجحة، و ذلك أنه طلب إليه املاء تفسير و يقول عن ذلك:

فأمليت عليهم مسألة فى الفواتح، و طائفة من الكلام فى حقائق سورة

مناهج المفسرين، ص: ۱۰۶

البقرة، و كان كلاما مبسوطا كثير السؤال و الجواب، طوف بالذيول و الأذناب، و إنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم و أن يكون لهم منارا يحجونه، و مثالا يحتذونه ...»

و نجحت هذه التجربة، فأخذ الناس يفدون إليه ليأخذوها عنه، و يسافرون إليه ليستفيدوا بها منه. ثم- لما حط رحاله بمكة- شرع فى تفسيره «الكشاف» و لم يؤلفه على نسق التجربة السابقة و إنما: «فى طريقة أخصر من الأولى- كما يقول- مع ضمان التكثير من الفوائد و الفحص عن السرائر».

توفى الزمخشرى سنة ۵۳۸ ه- بجرجانية خوارزم.

أما كتابه فإن الناس يقولون عنه عادة: «الكشاف للزمخشرى» و هو كتاب أثار- و ما زال يثير- الاستحسان الجم، و النقد اللاذع إذ أن صاحبه يوصف بوصفين ظاهرين يعلنهما على الملأ و يذكرهما دون خفاء.

أما أحد هذين الوصفين فهو: أنه يتمذهب بمذهب أهل الاعتزال و يعتز به إلى درجة أنه كان أحيانا إذا قصد صاحبا له، و استأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الاذن:

«قل له: أبو القاسم المعتزلى بالباب» و يركز على كلمة «المعتزلى ...»

و قد بدأ تفسيره منذ الكلمات الأولى على مذهب الاعتزال و سار فيه من أوله إلى آخره واضعا نصب عينيه هذا المذهب، ففسر الآيات التى اختلف فيها بين أهل السنة و أهل الاعتزال على طريقة المعتزلة، و أسرف فى ذلك ...

و القرآن الكريم ليس كتاب مذهب، فإذا وضعت الاساس عند التفسير على طريقة معنة، و اتخذت ذلك شعارا فقد ملت عن شرعة الانصاف.

و من هنا كان النقد المستفيض من قمم علماء أهل السنة.

أما الوصف الثانى- الذى ظهر فى وضوح فى التفسير و فى صاحب التفسير:

مناهج المفسرين، ص: ۱۰۷

فهو هذا النوع من بيان اعجاز القرآن فى بلاغته و فصاحته، و ايضاح أنه حقيقة من كلام رب العالمين، و ليس للبشر إلى مثله من سبيل و لو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

و لقد أعد الزمخشرى نفسه لهذا اعدادا كاملا:

لقد أعد له لغة، و أعد له بلاغا و بيانا، و أعد له اسلوبا و فصاحة و أعد له نحوا و صرفا ...

و لكن الذى يركز عليه صاحب الكشاف و لا يرى من اتقانه مناصا للمفسر هو: علم المعانى، و علم البيان و ما من شك فى أن التفسير يحتاج إلى علوم جمة نترك للزمخشرى نفسه بيانها، أنه يقول عن التفسير:

«لا يتم لتعاطيه و اجالة النظر فيه كل ذى علم- كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن- فالفقيه ان برز على الاقران فى علم الفتاوى و الاحكام و المتكلم و ان بز الدنيا فى صناعة الكلام، و حافظ القصص و الاخبار و ان كان من ابن القرية احفظ (أحد فصحاء العرب) و الواعظ و ان كان من الحسن البصرى أوعظ و النحوى و ان كان انحى من سيبويه و اللغوى و ان علك اللغات بقوة لحييه: لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، و لا يغوص عن شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن و هما: علم المعانى و علم البيان، و تمهل فى ارتيادهما آونة، و تعب فى التنقير عنهما ازمنة، و بعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة اللّه، و حرص على استيضاح معجزة رسول اللّه- بعد أن يكون أخذ من سائر العلوم بحظ جامعا بين أمرين: تحقيق- و حفظ- كثير المطالعات طويل المراجعات، قد رجع زمانا، و رجع إليه ورد عليه فارسا فى علم الاعراب مقدما فى حملة الكتاب، و كان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها، مشتعل القريحة و قادها- يقظان النفس داركا للمحة و إن لطف شأنها، منبها على الرمزة و إن خفى مكانها لاكزا جاسيا و لا غليظا جافيا، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم و النثر، مرتضى غير ربض بتلقيح بنات الفكر، قد علم كيف يرتب الكلام و يؤلف، و كيف

مناهج المفسرين، ص: ۱۰۸

ينظم و يرصف، طالما دفع إلى مضايقة، و وقع فى مداحضه و مزالقه» و لقد أعجب الزمخشرى بتفسيره حتى أنه ليقول فيه شعرا، منه:

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد و ليس فيها لعمرى مثل كشافى إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء و الكشاف كالشافى و

ربما كان اصدق ما قيل فيه هو كلام الشيخ حيدر الهروى، فانه وفاه حقه فيما هو عليه من البلاغة و البيان، و ذلك حق لا يمارى فيه انسان، ثم بين ما أخذ عليه و هو حق أيضا لا ينكره منصف، أما ما الزمخشرى- فيما رأى الشيخ الهروى- فإنه يقول:

«إن كتاب الكشاف عالى القدر، رفيع الشأن لم ير مثله فى تصانيف الأولين، و لم يرد شبيهه فى تآليف الآخرين، اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين، و اجتمعت على محاسن اساليبه الأنيقة السنة الكلمة من المفلقين، ما قصر فى قوانين التفسير و تهذيب براهينه، و تمهيد قواعده، و تشييد معاقده.

و كل كتاب بعده فى التفسير- و لو فرض أنه لا يخلو عن النقير و القطمير إذا قيس به- لا تكون له تلك الطلاوة، و لا يوجد فيه شىء من تلك الحلاوة، على أن مؤلفه يقتفى أثره، و يسأل خبره و قلما غير تركيبا من تراكيبه إلا وقع فى الخطأ و الخطل، و سقط من مزالق الخبط و الزلل، و مع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر، فلا عين منه و لا أثر، و لذلك قد تداولته أيدى النظار فاشتهر فى الاقطار كالشمس فى وسط النهار ...

أما ما يؤخذ عليه فهو أمور منها:

أنه كلما شرع فى تفسير آية من الآيات القرآنية مضمونها لا يساعد هواه.

مناهج المفسرين، ص: ۱۰۹

و مدلولها لا يطاوع مشتهاه: صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة، و تعسفات جامدة، و صرف الآية- بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة- عن الظاهر، تحريف لكلام اللّه سبحانه و تعالى، و ليته يكتفى بقدر الضرورة، بل يبالغ فى الاطناب و التكثير لئلا يتهم بالعجز و التقصير،

فتراه مشحونا بالاعتزالات الظاهرة التى تتبادر إلى الافهام، و الخفية التى لا تتسارق إليها الأوهام بل لا يهتدى إلى حبائله إلا وراد بعد وراد من الأذكياء الحذاق- و لا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق، و هذه آفة عظيمة، و مصيبة جسيمة.

و منها: أنه يطعن فى أولياء اللّه المرتضين من عباده، و يغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده، و نعم ما قال الرازى فى تفسير قوله تعالى: «يحبهم.

و يحبونه»: خاض صاحب «الكشاف» فى هذا المقام فى الطعن فى أولياء اللّه تعالى، و كتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله فى كتب الفحش، فهب أنه اجترأ على الطعن فى أولياء اللّه تعالى، فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش فى تفسير كلام اللّه المجيد.

و منها: أنه ... أورد فيه أبياتا كثيرة- و أمثالا غريزة، بنى على الهزل و الفكاهة أساسها و أورد على المزاج البارد نبراسها و هذا أمر من الشرع و العقل بعيد لا سيما عند أهل العدل و التوحيد.

و منها: أنه يذكر أهل السنة و الجماعة و هم الفرقة الناجية- بعبارات فاحشة، فتارة يعبر عنهم بالمجبرة، و تارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر و الإلحاد- و هذه وظيفة السفهاء الشطار، لا طريقة العلماء الابرار ...».

و هاك نموذجا من التفسير لقوله تعالى:

الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ، يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَ لا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ، الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَ كانُوا مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَ أَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (سورة الزخرف الآية ۶۷، ۶۸، ۶۹، ۷۰)

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۰

قال: «يومئذ» منصوب بعدو، أى منقطع فى ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين فى غير ذات اللّه، و تنقلب عداوة و مقتا إلا خلة المتصادقين فى اللّه، فإنها الخلة الباقية المزادة قوة إذا رأوا ثواب التحاب فى اللّه تعالى- و التباغض فى اللّه- و قيل «إلا المتقين» إلا المجتنبين اخلاء السوء.

و قيل: نزلت فى أبى بن خلف و عقبة بن أبى معيط.

«يا عباد» حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون فى اللّه يومئذ «الذين آمنوا» منصوب المحل صفة لعبادى لانه منادى مضاف، أى الذين صدقوا «بآياتنا و كانوا مسلمين» مخلصين وجوههم لنا جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا.

و قيل: إذا بعث اللّه الناس فزع كل أحد فينادى مناد يا عبادى فيرجوها الناس كلهم ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين.

قرئ يا عباد «تحبرون» تسرون سرورا يظهر حباره، أى أثره فى وجوهكم كقوله تعالى:

«تعرف فى وجوههم نضرة النعيم».

و قال الزجاج: تكرمون اكراما يبالغ فيه، و الحبرة المبالغة فيما وصف بجميل».

رحم اللّه الزمخشرى و نفع الناس بعلمه.

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۱

ابن العربى و تفسيره (أحكام القرآن)

مؤلف هذا التفسير هو

: أحد الاعلام الكبار- ختام علماء الأندلس، و آخر أئمتها و حفاظها القاضى أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن

أحمد- المعافرى الاندلسى الاشبيلى.

ولد أبو بكر سنة ۴۶۸ هجريـة و تأدب ببلـده و قرأ القراءات و سـمع به من أبى عبـد اللّه بن منظور، و أبى محمد بن خزرج ثم انتقل و رحل إلى جملـة من البلاد و الأقطار فسـمع العلم فى بلاد الانـدلس و بخاصة قرطبة التى زخرت بالعلماء أمثال أبى عبد اللّه بن عتاب و أبى مروان بن سراج و غيرهما و حصلت له عناية العباديـة- أصحاب اشبيلية فى ذلك الوقت- رئاسة و مكانة فلما انقضت دولتهم خرج إلى الحج مع ابنه القاضـى أبى بكر سنة ۴۸۵ ه و طوف فى البلاد يأخـذ عن علماء كل قطر ينزل فيه، فلقى بمصـر أبا الحسن الخلعى، و أبا الحسن بن مشـرف، و أبا الحسن بن داود الفارسى و غيرهم، و فى مكة سمع من أبى عبد اللّه الحسين بن على الطبرى و غيره، و فى الشام لقى أبا حامد الغزالى و الإمام أبا بكر الطرطوشـى الذى تفقه به، و أبا سـعيد الزنجانى، و أبا نصـر المقدسـى و غيرهم كثير، و فى عاصـمة العلم بغـداد التى زارها عـدة مرات سـمع من أبى الحسن المبارك بن عبـد الجبار الصـيرفى، و من أبى بكر بن طرخان، و من النقيب الشـريف أبى الفوارس طراد بن محمد الزينبى، و أبى زكريا التبريزى و آخرين يضيق المقام عن سرد أسمائهم، و ما أحد منهم إلا و له شـهرة فى فنه و علمه فعن هؤلاء و هؤلاء أخذ مجلة من الفنون حتى اتقن الفقه و الأصول، و قيد الحديث و اتسع فى الرواية، و اتقن مسائل الخلاف و الكلام و تبحر فى التفسير و برع فى الأدب و الشعر ...

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۲

و أخيرا و بعد هذه الرحلات المتوالية و الجد فى طلب العلم عاد ابن العربى، عاد و فى جعبته العلم الكثير حتى قيل عنه:

لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشـرق و على الجملة فقد كان رحمه اللّه من أهل التفنن فى العلوم و الاسـتبحار فيها- و الجمع لها متقدما فى المعارف كلها- متكلما فى أنواعها- نافذا فى جمعها- و حريصا على ادائها و نشرها حتى قالوا عنه:

إنه أحد من بلغ مرتبة الاجتهاد، واحد من انفرد بالاندلس بعلو الإسناد و يجمع إلى ذلك كله:

آداب الاخلاـق، مع حسن المعاشـرة، و كثرة الاحتمـال- و كرم النفس و حسن العهـد، و ثبـات الود، و غير ذلـك من صـفات العلمـاء العاملين الذين يألفون و يؤلفون رضى اللّه عنه و ارضاه.

هذا هو ابن العربى- كما تصوره المصادر- حتى صار استاذا.

و كثر تلاميذ الاستاذ ابن العربى كثرة فائقة: رحلوا إليه و سمعوا منه و أخذوا عنه- و يكفى أن نذكر من تلاميذه: القاضى عياض الذى قال عن استاذه:

«و استقصى أبو بكر ببلده فنفع اللّه به أهلها لصرامته و شدته و نفوذ احكامه، و كانت له فى الظالمين سورة مرهوبة، يؤثر عنه فى قضائه احكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، و أقبل على نشر العلم و بثه.

و كان نصيحا ادبيا شاعرا كثير الخبر، مليح المجلس» و أخذ عنه أبو زيد السبيلى- و أحمد بن خلف الطلاعى- و عبد الرحمن بن ربيع الاشعرى و القاضى أبو الحسن الخلعى و غيرهم.

أما التصانيف التى تركتها المعية ابن العربى فهى من الكثرة و الإفادة بمكان نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

احكام القرآن- و هو ما نحن بصدده كتاب: المسالك فى شرح موطأ مالك.

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۳

كتاب: القبس على موطأ مالك.

عارضة الأحوذى على كتاب الترمذى.

القواصم و العواصم.

المحصول فى أصول الفقه و كتاب القانون فى تفسير الكتاب العزيز.

و كتاب الانصاف فى مسائل الخلاف- عشـرون مجلـدا- و غير ذلك كثير- و مما يجـدر بالذكر ما قاله ابن العربى فى كتابه (القبس):

إنه ألف كتابه المسمى «انوار الفجر فى تفسير القرآن» فى عشرين سنة ثمانين ألف ورقة، و تفرقت فى أيدى الناس- و با لجملة فقد خلف ابن العربى رحمة اللّه كتبا كثيرة انتفع الناس بها بعد وفاته، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه فى حياته.

و قد كانت وفاته بعد هذه الحياة العلمية الكريمة سنة ۵۴۳ ه فى مراكش و حمل ميتا إلى مدينة فاس، و دفن بها رضى اللّه عنه و ارضاه.

تفسير ابن العربى: أحكام القرآن

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فى القرآن الكريم كما يظهر من اسمه- و طريقه فى تفسيره: أن يذكر السورة- ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الاحكام، ثم يأخذ فى شرحها آية آية قائلا: الآية الأولى و فيها خمس مسائل مثلا ...

و الآية الثانية و فيها سبع مسائل مثلا ... و هكذا حتى يفرغ من آيات الاحكام الموجودة فى السورة كلها.

و كتاب احكام القرآن يعتبر مرجعا مهما للتفسير الفقهى عند المالكية، و ذلك لان ابن العربى كان مالكى المذهب كثير التعصب له و الدفاع عنه.

غير إنه- و الحق يقال- لم يكن مشتطّا فى تعصبه إلى الدرجة التى يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكى، و لم يبلغ به التعسف إلى الحد الذى يجعله ينقد كلام مخالفه إذا كان وجيها و مقبولا.

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۴

و الذى يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الانصاف لمخالفيه أحيانا- كما يلمس منه روح التعصب المذهبى التى تستولى على صاحبها فتجعله احيانا كثيرة يرمى مخالفيه، و ان كان اماما له قيمته و مركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة، تارة بالتصريح، و تارة بالتلميح.

فإذا أضيف إلى ذلك ما ذكرناه من قبل إنه جمع آداب الاخلاق و حسن المعاشرة و كثرة الاحتمال، و كرم النفس و حسن العهد و ثبات الود .. إذا أضيف ذلك علمنا أن ما كتبه ابن العربى فى كتبه كلها انما هو محوط بسياج الروح العلمية الاسلامية الكريمة من عالم جمع إلى العلم و فضله العمل به و السير على منواله. رحم اللّه ابن العربى و اجزل له المثوبة و نفع اللّه بعلمه أنه سميع مجيب.

و هاك نموذج من تفسيره: قوله تعالى وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ فيها ست مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى (أمه) كلمة ذكر لها علماء اللسان خمسة عشر معنى رأيت من بلغها إلى أربعين، منها أن الأمة بمعنى الجماعة، و منها أن الأمة الرجل الواحد الداعى إلى الحق.

المسألة الثانية: فى هذه الآية إلى بعدها و هى قوله:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (سورة آل عمران الآية ۱۱۰) دليل على أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فرض كفاية و من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر نصرة الدين باقامة الحجة على المخالفين، و قد يكون فرض عين إذا عرف منه.

المسألة الثالثة: فى مطلق قوله تعالى:

وَ لْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ (سورة آل عمران الآية ۱۰۲)

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۵

دليل على أن الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فرض يقوم به المسلم، و إن لم يكن عدلا، خلافا للمبتدعة الذين يشترطون فى الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر العدالة.

و قد بينا فى كتب الأصول أن شروط الطاعات لا تثبت إلا بالادلة، كل أحد عليه فرض فى نفسه أن يطيع، و عليه فرض فى دينه أن ينبه غيره على ما يجهله من طاعة أو معصية، و ينهاه عما يكون عليه من ذنب، و قد بيناه فى الآية الأولى قبلها.

المسألة الرابعة- فى ترتيب الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر: ثبت عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال:

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، و ذلك أضعف الإيمان» و فى هذا الحديث من غريب الفقه أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم بدا فى البيان بالأخير فى الفعل، و هو تغيير المنكر باليد، و إنما يبدأ باللسان و البيان فإن لم يكن فباليد.

يعنى أن يحول بين المنكر و بين متعاطيه بنزعه عنه و بجذبه منه فإن لم يقدر إلا بمقاتلة و سلاح فيتركه، و ذلك إنما هو إلى السلطان، لأن شهر السلاح بين الناس قد يكون مخرجا إلى الفتنة و آئلا إلى فساد أكثر من الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر، مثل أن يرى عدوا يقتل عدوا فينزعه منه و لا يستطيع الا بدفعه و يتحقق أنه لو تركه قتله، و هو قادر على نزعه و لا يسلمه بحال و ليخرج السلاح.

المسألة الخامسة: فى هذه الآية دليل على مسالة اختلف فيها العلماء، و هى إذا رأى مسلم فحلا يصول على مسلم فإنه يلزمه أن يدفعه عنه، و إن أدى إلى قتله و لا ضمان على قاتله حينئذ، سواء كان القاتل له هو الذى صال عليه الفحل أو معينا له من الخلق و ذلك إنه إذا دفعه عنه فقد قام بفرض يلزم جميع المسلمين فناب عنهم فيه، و من جملتهم مالك الفحل فكيف يكون نائبا عنه فى قتل الصائل و يلزمه ضمانه؟

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۶

و قال أبو حنيفة: يلزمه الضمان، و قد بيناها فى مسائل الخلاف.

المسألة السادسة: فى هذه الآية دليل على تعظيم هذه الأمة و كذلك فى قوله سبحانه:

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ.

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۷

تفسير الإمام ابن الجوزى «زاد المسير»

تقديره

: الإمام ابن الجوزى علم من أعلام الفكر الإسلامى، برز فى الحديث و الوعظ و التفسير و التاريخ و غيرها من أصناف العلوم الدينية، و وصل فيها إلى مرتبة مشهورة، تحدث عنها باعجاب، و أقره العلماء على هذا الحديث، قال فى كتابه «لفتة الكبد»:

و لقد وضع اللّه لى من القبول فى قلوب الخلق فوق الحد، و اوقع كلامى فى نفوسهم فلا يرتابون بصحته، و قد أسلم على يدى نحو مائتين من أهل الذمة.

و قال سبطه أبو المظفر: أقل ما كان يحضر مجلسه عشرة آلاف ..

و سمعته يقول على المنبر فى آخر عمره: «كتبت باصبعى هاتين ألفى مجلدة، و تاب على يدى مائة ألف».

و قال عنه الحافظ الدبيثى فى ذيله على تاريخ ابن السمعانى:

شيخنا الإمام جمال الدين بن الجوزى صاحب التصانيف فى فنون العلم من التفاسير و الفقه و الحديث و الوعظ و الرقاق و التواريخ و غير ذلك، و إليه انتهت معرفة الحديث و علومه، و الوقوف على صحيحه من سقيمه، و له فيه المصنفات من المسانيد و الأبواب و الرجال، و معرفة ما يحتج به فى أبواب الأحكام و الفقه و ما لا يحتج به من الأحاديث الواهية الموضوعة، و الانقطاع و الاتصال، و له فى الوعظ العبارة الرائقة، و الاشارات الفائقة، و المعانى الدقيقة، و الاستعارة الرشيقة، و كان من أحسن الناس كلاما، و أتمهم نظاما، و اعذبهم لسانا، و أجودهم بيانا، و بورك له فى عمره و عمله فروى الكثير، و سمع الناس منه أكثر من أربعين سنة، و حدث بمصنفاته مرارا ...

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۸

و قال الموفق عبد اللطيف: كان ابن الجوزى لا يضيع من زمانه شيئا، يكتب فى اليوم أربعة كراريس، و يرتفع له كل سنة من كتابته ما بين خمسين مجلدا إلى ستين، و له فى كل علم مشاركة، لكنه كان فى التفسير من الاعيان، و فى الحديث من الحفاظ، و فى التاريخ من المتوسعين، و لديه فقه كاف.

و قال ابن خلكان: و بالجملة فكتبه أكثر من أن تعد، و كتب بخطه شيئا كثيرا، و الناس يغالون فى ذلك حتى يقولوا: إنه جمعت الكراريس التى كتبها و حسبت مدة عمره، و قسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس .. و يقال: إنه جمعت برايه أقلامه التى كتب بها حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فحصل منها شىء كثير، و أوصى أن يسخن بها الماء الذى يغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت و فضل منها.

حياته

: ولد ابن الجوزى أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن أبى الحسن بن على فى سنة إحدى عشرة و خمسمائة من الهجرة ببغداد، و توفى والده و هو ابن ثلاث فكفلته امه و عمته، و اتجه إلى العلم منذ بدأ وعيه بالحياة، فاتجه إلى سماع العلم فى سن الخامسة و حفظ القرآن و هو صغير، و سمع أمهات كتب الحديث كمسند أحمد و صحيحى البخارى و مسلم و جامع الترمذى و ما لا يحصى من كتب الحديث.

و من ملامح نشأته، و مظاهر حياته ما يقوله ابن العماد من أنه كان يراعى حفظ صحته، و تلطيف مزاجه، و ما يفيد عقله قوة، و ذهنه حدة، لباسه الناعم الأبيض المطيب .. و له مداعبات حلوة و ما تناول ما لا من جهة لا يتيقن حلها، و لا ذل لأحد .. قال فى لفتة الكبد يخاطب ولده: و ما ذل أبوك فى طلب العلم قط، و لا خرج يطوف فى البلدان كغيره، من الوعاظ و لا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئا ..

و لم تكن حياته كلها سهلة ميسرة، لينة مبهجة، لقد استلذ فى سبيل العلم

مناهج المفسرين، ص: ۱۱۹

ما يستصعبه غيره و قنع فى سبيل الوصول إلى ما يبتغيه بالقليل .. إنه يذكر فى كتابه صيد الخاطر، إنه كان فى زمن الطلب يأخذ معه ارغفة يابسة و يخرج فى طلب الحديث، فيقف على نهر عيسى لا يقدر على أكل هذا الخبز اليابس إلا عند المالك، كلما أكل لقمة شرب عليها شربة، و أنه وجد مع ذلك من لذة العلم و حلاوة الإيمان ما جعله يخاف على نفسه العجب ان شرحه ..

و لقد حبب إليه العلم من زمن الطفولة، و لم يرغب فى فن واحد من فنونه، بل رغب فى كل منه، و كان يتردد أبدا بين الزهد و العبادة و بين العلم و البحث.

شيوخه

: و من أهم شيوخه أبو الحسن بن الزاغونى الذى كان كما قال ابن الجوزى:

له فى كل فن من العلم حظ وافر، و وعظ مدة طويلة، و كان له حلقة بجامع المنصور يناظر فيها يوم الجمعة قبل الصلاة ثم يعظ فيها بعد الصلاة، و يجلس يوم السبت أيضا.

و كان من شيوخه أبو القاسم الحريرى و أبو القاسم السمرقندى، و أبو منصور القزاز، و عبد الجبار بن منده، و قرأ الادب على أبى منصور الجواليقى صاحب كتاب المعرب.

و كان فى كل ذلك كما قال عن نفسه: لم أقنع بفن واحد بل كنت اسمع الفقه و الحديث، و اتبع الزهاد، ثم قرات اللغة، و لم أترك

أحدا ممن يروى و يعظ، و لا غريبا يقدم، إلا و أحضره، و أتخير الفضائل، و لقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسى من العدو لئلا أسبق، و كنت أصبح و ليس لى مأكل، و أمسى و ليس لى مأكل، ما أذلنى اللّه لمخلوق قط.

الواعظ

: أما عن وعظه فقد بلغ فيه غاية الشهرة، و كان من أهم أسباب ارتفاع منزلته، و سمو مكانته قال الإمام ناصح الدين بن الحنبلىّ الواعظ عنه:

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۰

اجتمع فيه من العلوم ما لم يجتمع فى غيره، و كانت مجالسه الوعظية جامعة للحسن و الإحسان بإجماع ظراف بغداد، و نظاف الناس، و حسن الكلمات المسجوعة، و المعانى المودعة فى الالفاظ الرائجة، و قراءة القرآن بالاصوات المرجعة، و النغمات المطربة، و صيحات الواجدين، و دمعات الخاشعين، و انابة النادمين، و ذل التائبين، و وعظ و هو ابن عشر سنين إلى أن مات.

و كانت وفاة ابن الجوزى كما قال سبطه بين العشاءين فى ليلة الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان سنة سبع و تسعين و خمسمائة فى داره ببغداد و عمره نحو التسعين و كانت جنازته مشهودة اجتمع لها أهل بغداد، و غلقت الاسواق و حملت جنازته على رءوس الناس، و دفن بباب حرب بالقرب من مدفن أحمد بن حنبل رضى اللّه عنه ..

مؤلفاته

: و قد خلف ابن الجوزى الكثير من الكتب، و من أشهرها كتابه زاد المسير فى علم التفسير حفزه إلى تأليفه قوله:

لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم و كان الفهم لمعانيه أو فى الفهوم، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، و إنى نظرت فى جملة من كتب التفسير فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، و صغير لا يستفاد كل المقصود منه، و المتوسط منها قليل الفوائد، عديم الترتيب، و ربما أهمل فيه المشكل و شرح غير الغريب، فأتيتك بهذا المختصر اليسير، منطويا على العلم الغزير، و وسمته ب:

زاد المسير فى علم التفسير، و قد بالغت فى اختصار لفظه فاجتهد وفقك اللّه فى حفظه، و اللّه المعين على تحقيقه، فما زال جائدا بتوفيقه ..

و قد قدم لكتابه بعدة فصول:

الفصل الأول فى فضيلة علم التفسير.

الثانى فى معنى التفسير و التأويل

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۱

الثالث فى مدة نزول القرآن.

الرابع فى أول ما نزل من القرآن.

الخامس فى آخر ما نزل و قد درج فى تفسيره على المبالغة فى الاختصار فقال:

و قد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الاشارة، و لم أغادر من الاقوال التى احطت بها إلا ما تبعد صحته مع الاختصار البالغ، فإذا رأيت فى فرض الآيات ما لم يذكر تفسيره فهو لا يخلو من أمرين: أما أن يكون قد سبق، و إما أن يكون ظاهرا لا يحتاج إلى تفسير.

و قد انتقى كتابنا هذا انقى التفاسير، فأخذ منها الاصح و الاحسن و الأصون فنظمه فى عبارة الاختصار.

و رغم ترداد ابن الجوزى لكلمة الاختصار و الإيجاز لهذا التفسير، فإنه يقع فى تسع مجلدات و كل مجلد يقع فى عدد يزيد على

ثلاثمائة و خمسين صحيفة، و هو ليس بالصورة التى يعطيها كلام ابن الجوزى من الاختصار، و لكن لكثرة معلومات ابن الجوزى و سعة معارفه ظهرت له صورة الكتاب على طوله، إنه من المختصرات.

و فى الواقع إن مما يشق على قارئ هذا التفسير أن ابن الجوزى كثيرا ما يحيل على ما سبق دون بيان كاف لموضع الاحالة.

و قد اخرجه فى صورة متقنة جميلة المكتب الإسلامى للطبع و النشر على نفقة صاحب السمو العالم الجليل الشيخ على بن عبد اللّه آل ثانى حفظه اللّه.

فجزاه اللّه خير الجزاء لما أداه للعلم من خدمة جليلة بطبع هذا التفسير ...

و من تفسيره

: قال تعالى: يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۲

أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ.

(سورة البقرة الآية ۲۶۹) قوله تعالى «يؤتى الحكمة من يشاء» فى المراد بهذه الحكمة أحد عشر قولا:

أحدهما: أنها القرآن، قاله ابن مسعود و مجاهد و الضحاك و مقاتل فى آخرين ..

الثانى: معرفة ناسخ القرآن و منسوخه، و محكمه و متشابهه، و مقدمه، و مؤخره، و نحو ذلك، رواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس ..

الثالث: النبوة، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

و الرابع: الفهم فى القرآن، قاله أبو العالية و قتادة و إبراهيم.

الخامس: العلم و الفقه رواه ليث عن مجاهد.

و السادس: الإصابة فى القول، رواه ابن أبى نجيح عن مجاهد.

و السابع: الورع فى دين اللّه، قاله الحسن.

و الثامن: الخشية للّه، قاله الربيع بن أنس.

و التاسع: العقل فى الدين، قاله ابن زيد.

و العاشر: الفهم، قاله شريك.

و الحادى عشر: العلم و العمل، لا يسمى الرجل حكيما إلا إذا جمعهما، قاله ابن قتيبة ..

و مما نحب أن نشير إليه أننا قد ربطنا بين هذه الآراء المختلفة فى معرض حديثنا عن الحكمة فقلنا:

وردت كلمة الحكمة كثيرا فى اللغة العربية: فى الشعر و فى القرآن الكريم، و فى الاحاديث النبوية.

و هى تطلق عند علماء الإسلام، و فى اللغة العربية على معان عدة، بلغ بها صاحب البحر المحيط تسعة و عشرين رأيا منها:

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۳

الإصابة فى القول و العمل، و منها: الفهم: و منها: الكتابة، و منها:

اصلاح الدين و اصلاح الدنيا.

و يذكر صاحب البحر المحيط: أن معانى الكلمة قريب بعضها من بعض، ما عدا قول السدى.

أما قول السدى فى تفسير الحكمة فهو:

انها النبوة، و لكن السدى لا يستقل بهذا الرأى فقد قاله ابن عباس، فيما رواه عنه أبو صالح.

و قريب منه ما قيل: فى معنى الحكمة، من أنها: العلم اللدنى، أو من أنها: تجريد السر لورود الالهام.

و الواقع أن معانى هذه الكلمة: تنقسم طبيعيا إلى قسمين:

أحدهما: ما يبدو فى السلوك الخارجى: من سداد فى الرأى، و اتزان فى التفكير، و اتجاه فى السلوك إلى الطريق الاقوم.

و الثانى: هو الناحية الاشرافية الالهامية، و هى ناحية باطنية داخلية، يعلمها صاحبها و يلقنها من يصطفيهم من خاصة صحبة أو تلاميذه.

و هذان المعنيان لا يتعارضان، و إنما يوجد ان أحيانا فى انسجام و تناغم، و أحيانا يوجد المعنى الأول فقط.

و مما لا شك فيه: إنه لا يوجد المعنى الثانى بدون المعنى الأول.

فالشخص الملهم: مسدد الرأى، متزن التفكير، أنه «حكيم» باطنيا و ظاهريا.

و بهذين المعنيين فسر علماء الإسلام معنى كلمة: «حكمة» فى عدة آيات من القرآن الكريم، مثل قوله تعالى فيما يتعلق بداود عليه السّلام:

وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ (سورة البقرة الآية ۲۵۱) و قوله تعالى:

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۴

يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ قرأ يعقوب بكسر تاء «يؤت» و وقف عليها بهاء، و المعنى: و من يؤته الحكمة، و كذلك هى فى قراءة ابن مسعود بهاء بعد التاء ..

قوله تعالى: وَ ما يَذَّكَّرُ قال الزجاج: و ما يتفكر فكرا يذكر به ما قص من آيات القرآن إلا ذوو العقول .. قال ابن قتيبة: «أولو» بمعنى ذو و، و واحد- «أولو» «ذو» و «أولات» ذات ..

قوله تعالى:

وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. (سورة آل عمران الآية ۱۲۳) قوله تعالى: وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ فى تسمية بدر قولان:

أحدهما: أنها بئر لرجل اسمه بدر، قاله الشعبى.

و الثانى: أنه اسم للمكان الذى التقوا عليه، ذكره الواقدى عن اشياخه ..

قوله تعالى: وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ أى: لقلة العدد و العدد .. لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى لتكونوا من الشاكرين.

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۵

تفسير ابن عطية

اشارة

يمثل هذا التفسير لونا من التفاسير المحررة الموجزة الجامعة فى معانيها، المختصرة فى تعبيرها، و يظهر ذلك واضحا من تسمية مؤلفه له: المحرر الوجيز فى تفسير القرآن العزيز.

و قد بهر ابن عطية بتفسيره العلماء فى عصره و فيما بعد عصره، يقول ابن عميرة الضبى المتوفى سنة ۵۹۹ ه.

«ألف- يعنى ابن عطية- فى التفسير كتابا ضخما اربى فيه على كل متقدم». و يقول ابن الآبار:

«و تأليفه فى التفسير جليل الفائدة، كتبه الناس كثيرا و سمعوه منه و اخذوه عنه». أما ابن جزى فإنه يقول:- «و أما ابن عطية فكتابه فى التفسير أحسن التأليف و اعدلها، فإنه اطلع على تآليف من كان قبله فهذبها و لخصها، و هو مع ذلك حسن العبارة، مسدد النظر، محافظ على السنة». و يقول ابن تيمية:

و تفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى، و اصح نقلا- و بحثا، و ابعد عن البدع، ... بل هو خير منه بكثير، بل لعله ارجح هذه التفاسير.

و يقول ابن خلدون- عما امتاز به تفسيره من حذر من الاسرائيليات و تثبت فى نقل الاخبار.

«و تساهل المفسرون فى مثل ذلك- النقل عن أهل الكتاب الذين دخلوا فى الإسلام مثل كعب الاحبار و وهب بن منبه و عبد اللّه بن سلام و امثالهم- و ملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات، و اصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية، و لا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك،

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۶

إلا أنهم بعد صيتهم و عظمت اقدارهم لما كانوا عليه من المقامات فى الدين و اللّه، فتلقيت بالقبول من يومئذ، فلما رجع الناس إلى التحقيق و التمحيص، و جاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخص تلك التفاسير كلها، و تحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها، و وضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب و الاندلس حسن المنحى و تبعه القرطبى فى تلك الطريقة على منهاج واحد فى كتاب آخر مشهور بالمشرق ا. ه.

و الناظر فى هذا التفسير يجد أنه يذكر الآية ثم يفسرها تفسيرا سهلا شاملا مختصرا ثم يورد بعض ما يتصل بالآية مما ينتقيه من المأثور، و أكثر ما يختار منه من تفسير الطبرى، و قد يعرج بالرد على رواية و الانتقاد لمنقول ..

و يظهر فى تفسيره الاهتمام باللغة العربية، و العناية باستخراج المعانى على اساس منها، كما أنه يذكر فى أحيان كثيرة القراءات المختلفة و يستخرج المعانى المستنبطة على أساسها.

و قد تأثر تفسير ابن عطية كثير من مشاهير المفسرين كالقرطبى و ابن حيان و الثعالبى فاستفادوا منه و نقلوا عنه، و كان له فى تفاسيرهم الأثر المحمود فيما يتصل بالمنهج، و فيها يتصل بالمضمون.

و مع الأهمية المتزايدة لهذا التفسير فما زال مخطوطا متنافر الأجزاء بين المكتبات المختلفة و يوجد منه فى دار الكتب المصرية اربعة أجزاء من مجموع الكتاب و يقع فى عشر مجلدات كبار ..

و قد استفاد ابن عطية فى تفسيره بالإضافة إلى تفسير الطبرى بتفسير المهدوى المسمى (التفصيل الجامع لعلوم التنزيل) الذى قال عنه فى مقدمة تفسيره: إنه متقن التأليف، و انتقد اسلوبه فى عدم تتبع الألفاظ، بأنه مفرق للنظر، مشعب للفكر.

أما عن مصنف هذا التفسير فهو القاضى أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب، ابن عطية المحاربى.

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۷

امتاز بالفهم و سرعة التحصيل و الطموح العلمى، و المثابرة و الاجتهاد، قال السيوطى فى طبقات المفسرين: كان يتوقد ذكاء.

و قال فى بغية الوعاة: كان فاضلا من بيت علم و جلاله، غاية فى توقد الذهن، و حسن الفهم، و جلالة التصرف ..

و قال الفتح بن خاقان: ادمن التعب فى السؤدد جاهدا، حتى تناول الكواكب قاعدا، و ما اتكأ على ارائك و لا سكن إلى راحات بكره و أصائله ..

و قال: سما إلى رتب الكهول صغيرا، و شن كتبه على العلوم مغيرا، فسباها معنى و فصلا، و حواها فرعا و أصلا .. مناهج المفسرين ۱۲۷ تفسير ابن عطية

د سنة ۴۸۱ فى أول عهد المرابطين بغرناطة و كان له شغف بالعلم عمل على اروائه فتتلمذ على شيوخ من أهمهم والده و كان اماما فى الحديث و حافظا للسنة- أو كما قال الفتح بن خاقان شيخ العلم و حامل لوائه، و حافظ حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و كوكب سمائه شرح اللّه لحفظه صدره، و طاول به عمره.

و من أهم شيوخه الحافظ أبو على الحسين بن محمد الغسانى المتوفى سنة ۴۹۸ ه و كان من أهم تلاميذ الحافظ أبو عمر يوسف بن

عبد البر، له مؤلفات قيمه و آثار مشهورة فى مجال خدمة السنة.

و منهم الحافظ أبو على الحسين بن محمد الصدفى المتوفى سنة ۵۱۴ ه، و الفقيه أبو عبد اللّه محمد بن على ابن حمد بن التغلبى المتوفى سنة ۵۰۸.

كان ابوه يتعهده بالعناية و الرعاية، و يشجعه على إعداد تفسيره، و العمل على إتمامه فكان ربما ايقظه فى الليل مرتين بقوله: قم يا بنى اكتب كذا و كذا فى موضع كذا من تفسيرك.

و كان له فى سبيل العلم رحلات مختلفة و اسفار متعددة، فرحل فى طلب العلم إلى قرطبة و اشبيليه و مرسية و بلنسية.

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۸

كما شارك فى تحمل اعباء الجهاد فى عصره- حينما احتاج الأمر إلى مجهوده فيه- فكان كما قال ابن الآبار فى آخر دولة المرابطين كثير الخروج للغزو فى جيوشهم.

و قد استنتج الشيخ محمد الفاضل بن عاشور من ذلك أن من المرجح أن يكون تأليف تفسيره قبل هذا الدور الأخير من دولة المرابطين الذى هو الدور الأخير من حياة ابن عطية إذ كان تاريخ وفاته سنة ۵۴۲ ه عين تاريخ انتهاء دولة المرابطين بالأندلس ..

و قد استفاد ابن عطية فى تفسيره بالإضافة إلى تفسير الطبرى بنفيسه المهدوى المسمى: «التفصيل الجامع العلوم التنزيل» الذى قال عنه فى مقدمة تفسيره أنه متقن التأليف، و انتقد اسلوبه فى عدم تتبع الالفاظ بأنه مفرق للنظر مشعب للفكر.

و كان ابن عطية فى تفسيره نابضا بالشباب، فتيا بالعروبة، فإن الشباب كما يقول الشيخ الفاضل بن عاشور افاده قريحة متقدة و نظرة حادة يتناول بهما موضوعه فى قوة و سرعة و متانة المام فيأتى بيانه محبوكا منسجما، و العروبة أفادته طبعا اصيلا و ملكة صافية ففاض بيانه قويا هتانا سائغا سلسا.

و لذلك فلا بدع أن يتصف تفسير ابن عطية بأن «محرر» لا سيما و قد دفع الشبه و خلص الحقائق و حرر ما هو محتاج إلى التحرير.

و هو وجيز بالنسبة إلى بعض التفاسير التى سبقته ..

و اليك نماذج من تفسير ابن عطية

عن قوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (سورة الحديد الآية ۲۸)

مناهج المفسرين، ص: ۱۲۹

و اختلف الناس فى المخاطب بها- يعنى بالآية- فقالت فرقة من المتأولين:

خوطب بهذا أهل الكتاب، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى و عيسى اتقوا اللّه و آمنوا بمحمد و يؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم:

«ثلاثة يؤتيهم اللّه أجرهم مرتين.

رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه صلّى اللّه عليه و سلم و آمن بى «الحديث» و قال آخرون: المخاطبة للمؤمنين من أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم، يقول لهم:- يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمِنُوا بِرَسُولِهِ أى اثبتوا على ذلك و دوموا عليه، و هذا هو معنى الأمر ابدا لمن هو متلبس بما يؤمر به.

و قوله: (يؤتكم كفلين) أى نصيبين بالإضافة إلى ما كان الامم قبل يعطونه قال أبو موسى الأشعرى: كفلين: ضعفين «بلسان الحبشة».

و روى أن عمر بن الخطاب (رضى اللّه عنه) قال لبعض الأحبار: كم كان التضعيف للحسنات فيكم؟ .. قال: ثلاثمائة و خمسين، فقال:

الحمد للّه الذى أضاف لنا إلى سبعمائة ..

و يؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح الذى يقتضى أن اليهود إلى نصف النهار على قيراط، و النصارى من الظهر إلى العصر على قيراط، و هذه الأمة من العصر إلى الليل على قيراطين، فلما أصبحت اليهود و النصارى على ذلك و قالوا: نحن أكثر عملا و أقل أجرا، قال اللّه تعالى: هل نقصتكم من أجركم شيئا؟ قالوا: لا قال: فإنه فضلى أوتيه من أشاء

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۱

تفسير الإمام البغوى

هو الإمام الحافظ الشهير محيى السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوى الشافعى المحدث المفسر، صاحب التصانيف و عالم أهل خراسان.

وصفه ابن الأهول فقال:

«هو صاحب الفنون الجامعة، و المصنفات النافعة، مع الزهد و الورع و القناعة و من مظاهر زهده ما قاله صاحب شذرات الذهب من انه كان سيدا زاهدا قانعا يأكل الخبز وحده، فليم فى ذلك فصار يأكله بالزيت ..

ولد فى بغشور، و النسبة إليها بغوى على غير قياس، و قيل: اسم المدينة «بغ» بليدة بين هراة و مرو و الروذ من بلاد خراسان.

نشأ شافعى المذهب بحكم البيئة التى عاش فيها، و العلماء الذين تلقى عنهم و كانت له آثار قيّمة فى المذهب الشافعى، حيث أنه ألف فيه كتابه (التهذيب) و نحى فيه منحى أهل الترجيح و الاختبار و التصحيح، لا يتعصب لمذهبه، و لا يندد بغيره، رائده الوصول إلى ما يراه أقرب إلى النصوص، و أوفق لمبادئ الدين.

و كان داعيا إلى الاعتصام بالكتاب و السنة، ناشرا لعلومهما، موضحا لما يوجهان إليه، فألف فى ذلك التآليف النافعة التى أهلته لأن يكون بحق «محيى السنة».

و كما هو دأب العلماء قام علمه على دعامتين هامتين:

أولا- الأخذ من العلماء، و قد اشتهر من أساتذته: الإمام الحسين بن محمد المروزى القاضى، فقيه خراسان، و شيخ الشافعية فى زمنه واحد مشاهير العلماء، المتوفى سنة ۴۶۲ ه.

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۲

و الإمام الفقيه الفاضل أبو الحسن على بن يوسف الجوينى المعروف بشيخ الحجاز المتوفى سنة ۴۶۳ ه.

و المحدث الفاضل أبو بكر يعقوب بن أحمد الصيرفى النيسابورى المتوفى سنة ۴۶۶ ه.

ثانيا: الأخذ من الكتب و الاطلاع على ما أثر عن العلماء ...

و كان الإمام البغوى محدثا فاضلا سمع الكثير من الحفاظ، و روى عنهم الصحاح و السنن و المسانيد و الأجزاء من أجود الطرق و أوثقها و أوفاها و جالس علماء اللغة و حمل عنهم الكتب التى ألفت فى غريب الحديث و بيان معانيه، قال الحافظ الذهبى: الإمام العلامة القدوة الحافظ، شيخ الإسلام، محيى السنة، صاحب التصانيف ... و قال ابن نقطة: إمام حافظ ثقة صالح ..

و قال السبكى: و كان البغوى يلقب بمحيى السنة، و بركن الدين، و لم يدخل بغداد و لو دخلها لاتسعت ترجمته، و قدره عال فى الدين و فى التفسير و فى الحديث، متسع الدائرة نقلا و تحقيقا. و كان الشيخ تقى الدين السبكى يقول:

قل ان رأيناه يختار شيئا إلا و إذا بحث عنه وجد أقوى من غيره، هذا مع اختصار كلامه و هو يدل على نبل كبير، و هو حرى بذلك، فإنه جامع لعلوم القرآن و السنة و الفقه و قد انتج هذا النشاط العلمى الكبير مؤلفات قيمه منها:

۱- مجموعة من الفتاوى ضمنها فتاوى شيخه أبو على الحسين بن محمد المروزى.

۲- التهذيب فى فقه الإمام الشافعى، و هو تأليف محرر، مهذب، مجرد من الأدلة غالبا.

۳- شرح السنة.

۴- معالم التنزيل و هو التفسير المشهور.

و قد قدم لتفسيره مقدمة، بينت منهجه، و حددت خطته، و أبانت عن

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۳

مقصده، و بينت جوانب من علمه الواسع فى مجال الدراسات القرآنية.

إنه يقول فى مقدمته بعد الحمد و الثناء:

أما بعد: فإن اللّه جل ذكره أرسل رسوله بالهدى و دين الحق، رحمة للعالمين، و بشيرا للمؤمنين، و نذيرا للمخالفين، اكمل به بنيان النبوة، و ختم به ديوان الرسالة، و اتم به مكارم الأخلاق، و محاسن الأفعال، و أنزل عليه بفضله نورا هدى به من الضلالة، و أنقذ به من الجهالة، حكم بالفلاح لمن تبعه، و بالخسران لمن أعرض عنه بعد ما سمعه، و اعجز الخليقة عن معارضته، و عن الاتيان بسورة من مثله فى مقابلته، ثم سهل على الخلق مع إعجازه تلاوته، و يسر على الألسن قراءته، أمر فيه و زجر، و بشر و أنذر، و ذكر المواعظ ليتذكر، و قص عن أحوال الماضيين ليعتبر، و ضرب الأمثال ليتدبر، و دل على آيات التوحيد ليتفكر، و لا حصول لهذه المقاصد منه إلا بدراية تفسيره و إعلامه، و معرفة أسباب نزوله و أحكامه و الوقوف على ناسخه و منسوخه، و معرفة خاصه و عامة، ثم هو كلام معجز، و بحر عميق لا نهاية لاسرار علومه، و لا إدراك لحقائق معانيه و قد ألف ائمة السلف فى أنواع علومه كتبا كل على قدر فهمه، و مبلغ علمه، نظرا للخلق، فشكر اللّه تعالى سعيهم، و رحم كافتهم، فسألنى جماعة من أصحابى المخلصين، و على اقتباس العلم مقبلين، كتابا فى معالم التنزيل و تفسيره فأجبتهم إليه معتمدا على فضل اللّه تعالى و تيسيره، و اقتداء بالماضين من السلف فى تدوين العلم ابقاء على الخلف، و ليس على ما فعلوه مزيد، و لكن لا بد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد، و قصر بالطالبين فيه الجد و الجهد، تنبيها للمتوقفين، و تحريضا للمتثبطين، فجمعت بعون اللّه تعالى و حسن توفيقه فيما سألوا كتابا متوسطا بين الطويل الممل، و القصير المخل، ارجو أن يكون مفيدا، لمن أقبل على تحصيله مزيدا ..

ثم ذكر الأسانيد التى اعتمدها فى تفسيره ...

و من هنا ندرك أن كتابه من الكتب المعتبرة فى التفسير بالمأثور ..

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۴

ثم يقول: إن الناس كما انهم متعبدون باتباع أحكام القرآن و حفظ حدوده، فهم متعبدون بتلاوته، و حفظ حروفه، على سنن خط المصحف- اعنى الإمام- الذى اتفقت عليه الصحابة، و أن لا يجاوزوا فيما يوافق الخط ما قرأ به القراء المعروفون الذين خلفوا الصحابة و التابعين، و اتفقت الأئمة على اختيارهم، و قد ذكرت فى الكتاب قراءة من اشتهر منهم بالقراءات و اختاراتهم ..

أما عن استشهاده بالأحاديث و الآثار فقد اختار فيه الصحيح المقبول، و ترك الضعيف و الموضوع- و يعبر عن ذلك قوله:

و ما ذكرت من أحاديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم، فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، و عليها مدار الشرع و أمور الدين من الكتب المسموعة للحفاظ ذائعة الحديث، و اعرضت عن ذكر المناكير، و ما لا يليق بحال التفسير فأرجو أن يكون مباركا على من أراده ...

ثم عقد عدة فصول بين يدى التفسير تتمثل فيما يلى:

فصل فى فضائل القرآن و تعليمه.

فصل فى فضائل تلاوة القرآن.

فصل فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم ...

و نحن نلاحظ فما يتعلق بالإمام البغوى أن له جوانب تجعله من الطبقة الممتازة لقد استكمل عدة التفسير من اللغة فقد جالس علماء اللغة و تثقف عليهم كأحسن ما تكون الثقافة اللغوية و بعض الناس يظن أن اللغة كافية فى معرفة التفسير، و لكنهم مخطئون فلا بد فى التفسير من عناصر أخرى، منها:

السنة النبوية الشريفة: و قد برع فيها الإمام البغوى فهو محدث ممتاز وصلت به ثقافته فى الحديث إن سمى: محيى السنة، و كان محدثا ثقة و هو فى تقدير المحدثين: الإمام الحافظ الثقة.

و قد اتقن فن القراءات و أبان عنها فى تفسيره.

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۵

و كان مهذبا، أدبه القرآن و الحديث و من أثر هذا الأدب أن شكر فى مقدمة تفسيره السابقين من المفسرين و اثنى عليهم.

و يرى الإمام البغوى- و نحن نؤيده فى ذلك تأييدا مطلقا- وجوب حفظ حروف القرآن على سنن خط المصحف الإمام اعنى الخط العثمانى الذى اتفقت عليه الصحابة، و ان لا يجاوز و إنما يوافق ما قرأ به القراء المعروفون الذين خلفوا الصحابة و التابعين و اتفقت الأئمة على اختيارهم.

كل ذلك يوضع فى كفة امتياز الإمام البغوى ..

و يتضح مجهوده فى التفسير بنماذج منه:

قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (سورة البقرة الآية ۱۵۳) بالعون و النصرة (و لا تقولوا لمن يقتل فى سبيل اللّه أموات) نزلت فى قتلى بدر من المسلمين، و كانوا أربعة عشر رجلا، ستة من المهاجرين و ثمانية من الأنصار، كان الناس يقولون لمن يقتل فى سبيل اللّه: مات فلان و ذهب عنه نعيم الدنيا و لذتها، فأنزل اللّه تعالى: وَ لا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْياءٌ وَ لكِنْ لا تَشْعُرُونَ (سورة البقرة الآية ۱۵۲) كما قال فى شهداء أحد: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ.

(سورة آل عمران الآية ۱۶۹).

قال الحسن:

إن الشهداء أحياء عند اللّه تعالى تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الروح و الفرح كما تعرض النار على أرواح الفرعون غدوة و عشية فيصل إليهم الوجع.

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۶

و قال تعالى: وَ ذَرُوا ظاهِرَ الْإِثْمِ وَ باطِنَهُ (سورة الأنعام الآية ۱۲۰) يعنى الذنوب كلها لأنها لا تخلوا من هذين الوجهين: قال قتادة: علانيته و سره، و قال مجاهد: ظاهره ما يعمله الإنسان بالجوارح من الذنوب و باطنه ما ينويه و يقصده بقلبه كالمصر على الذنب القاصد له.

قال الكلبى: كظاهره الزنا، و باطنه المخالفة، و أكثر المفسرين على أن ظاهر الإثم الاعلان بالزنا و هم أصحاب الرايات، و باطنه الاستسرار به، و ذلك أن العرب كانوا يحبون الزنا، و كان الشريف منهم يتشرف فيسر به، و غير الشريف لا يبالى فيظهره، فحرمهما اللّه عز و جل ..

و قال سعيد ابن جبير: ظاهر الإسم نكاح المحارم، و باطنه الزنا ..

و قال ابن زيد: إن ظاهر الإثم التجرد من الثياب و التعرى فى الطواف، و الباطن الزنا ..

و روى حيان عم الكلبى: ظاهر الإثم طواف الرجال بالبيت نهارا عراة، و باطنه طواف النساء بالليل عراة ..

إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ فى الآخرة .. بِما كانُوا يَقْتَرِفُونَ (سورة الأنعام الآية ۱۲۰) يكتسبون فى الدنيا ..

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۷

المفردات فی غریب القرآن للراغب الأصفهانی

و یسمی هذا الکتاب عادة: «المفردات للراغب الأصفهانی».

أما الراغب الأصفهانی فإنه من أهل اصبهان أو أصفهان.

و لما تزود من العلم بحظ کاف یمم شطر بغداد، و کانت محط أنظار العلماء و اشتهر بها شهرة واسعة.

و لا نعلم فی یقین متی کان میلاده و لکن وفاته کانت علی التقریب سنة ۵۰۲ ه، ۱۱۰۸ م.

و لقد کان الراغب أدیبا قمة فی الأدب، و کان عالما من أئمة العلماء، و فقیها من خیرة الفقهاء. و لکن المادة التی کانت مدار تخصصه و شهرته کانت:

القرآن.

لقد انغمس فی أنوار القرآن و اتخذه نبراسا لآرائه و سلوکه، و واتاه فی ذلک تمکنه من اللغة و ذوقه الجمیل فی الأدب.

و لقد ألف فی الجو القرآنی:

۱- جامع التفاسیر، و هو تفسیر مستفیض، و إن کان لم یکمل، و قد طبعت مقدمته مبینة عن فضل عظیم للمؤلف فی مجال العلم بالقرآن و ما ینبغی للمفسر. و قد اقتبس الإمام البیضاوی و غیره من هذا التفسیر کثیرا.

۲- حل متشابهات القرآن.

۳- تحقیق البیان فی تأویل القرآن.

۴- المفردات الذی سنتحدث عنه إن شاء اللّه.

و لکن إذا کانت هذه المؤلفات متصله بالقرآن مباشرة، فإن الکثیر من

مناهج المفسرین، ص: ۱۳۸

مؤلفاته الأخری مستمد من القرآن الکریم، و نابع من أنواره، و من ذلک مثلا کتاب:

«الذریعة فی مکارم الشریعة».

و هو کتاب نفسی جدا و یقال: إن الإمام الغزالی قدس اللّه روحه کان لا یفارق هذا الکتاب فی حل و لا ترحال، و هذا الکتاب جدیر بالاقتناء، و قد کان الشیخ محمد عبده علیه رحمة اللّه یستفید منه کثیرا، و هو کتاب فی الأخلاق الإسلامیة مصدره القرآن و السنة الشریفة.

و له کتاب آخر بعنوان: «الأخلاق» و أحیانا یسمی أخلاق الراغب، و هو کتاب یستمد أیضا من القرآن الکریم.

أما فی الأدب و اللغة فله کثیر من المؤلفات منها:

«محاضرات الأدباء و محاورات الشعراء، و قد طبع فی القاهرة فی جزءین و هو یضم ظرائف و ملحا مما وقع بین الأدباء أو مما کتبوه فی مؤلفاتهم.

و له فی هذا المجال:

«أفانین البلاغة».

«و هو کتاب یبین إبانة واضحة عن المدی العظیم فی احاطة المؤلف بالبلاغة و عمق نظرته فیها، و لکن الطریف فی مؤلفات هذا العالم القمه هو کتابه:

«أدب الشطرنج».

و هو كتاب له مفهومه الواسع فى حياة المؤلف انه يدل على:

۱- لم يكن المؤلف متزمتا و لا متصنعا للتزمت.

۲- كان المؤلف مرحا و لا يتنافى مرحه مع وقار العلم و كرامة العلماء.

۳- كان المؤلف ذكيا يتحدى بذكائه فى هذه اللعبة: لعبة الذكاء و الأذكياء.

مناهج المفسرين، ص: ۱۳۹

أما مكانة المؤلف فى نظر العلماء فيكفينا أن نقول: إن الإمام فخر الدين الرازى صاحب التفسير المشهور و الذى بلغ فى علم الكلام القمة، كان يقرن الراغب الأصفهانى بحجة الإسلام الإمام الغزالى.

و الواقع أن بينهما شبها كبيرا، و ألوان الشبه: ان كلا منهما كان من أهل السنة و كان كلاهما يرد على المعتزلة، و كان كلاهما مهتما بالأخلاق، و ذلك لأن الأخلاق من الأسس الأصيلة التى تقوم عليها المجتمعات الصالحة.

و كتابة «المفردات» الذى نكتب عنه اليوم من الكتب التى لا غنى لعالم من علماء الإسلام عنها، و هو يتحدث فيه عن مفردات القرآن: يتتبع اللفظ فى الآيات القرآنية شارحا له فيها متحدثا عن مفاهيمه فى مختلف المواضع مستأنسا على ذلك بالحديث الشريف أو بأشعار العرب، و قد أجاد إجادة تامة فى الوصول إلى غايته و هى تفسير ألفاظ القرآن.

و قد رتب كتابه على ترتيب الحروف الهجائية، و ذلك ليسهل الكشف فيه.

و هذا الكتاب يعتبره المؤلف «حلقة» بين حلقتين، احداهما سابقة قد تحققت أما الثانية: فإنها كانت فى عزم المؤلف عند ما شرع فى تأليف هذا الكتاب، و نترك المؤلف يعبر عن ذلك بقلمه، إنه يقول:

«و قد استخرت اللّه تعالى فى إملاء كتاب مستوفى فيه مفردات ألفاظ القرآن على حروف التهجى فتقدم ما أوله الألف ثم الباء على ترتيب حروف المعجم معتبرا فيه أوائل حروفه الأصلية دون الزوائد و الإشارة فيه إلى المناسبات التى بين الألفاظ المستعارات منها و المشتقات حسبما يحتمل التوسع فى هذا الكتاب و احيل بالقوانين الدالة على تحقيق مناسبات الألفاظ على الرسالة التى عملتها مختصة بهذا الباب ففى اعتماد ما حررته من هذا النحو استغناء فى بابه من المثبطات عن المصارعة فى سبيل الخيرات و عن المسابقة إلى ما حثنا عليه بقوله تعالى سابقوا إلى مغفرة من ربكم سهل اللّه علينا الطريق إليها و اتبع هذا الكتاب إن شاء اللّه تعالى و نسأ فى الأجل بكتاب ينبئ عن تحقيق الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد و ما بينها من الفروق الغامضة فبذلك يعرف

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۰

اختصاص كل خبر بلفظ من الألفاظ المترادفة دون غيره من أخواته نحو ذكره القلب مرة و الفؤاد مرة و الصدر مرة و نحو ذكره تعالى فى عقب قصة إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون و فى أخرى لقوم يتفكرون و فى اخرى لقوم يعلمون و فى أخرى لقوم يفقهون و فى أخرى لأولى الأبصار و فى أخرى لذى حجر و فى أخرى لأولى النهى و نحو ذلك ما بعده يحق الحق و يبطل الباطل و أنه باب واحد فيقدر أنه إذا فسر الحمد للّه بقوله الشكر للّه و لا ريب فيه بلا شك فيه فسر القرآن و وفاه التبيان جعل اللّه لنا التوفيق رائدا و التقوى سائقا و نفعنا بما اولانا و جعله لنا من معاون تحصيل الزاد المأمور به فى قوله تعالى وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى. (سورة البقرة الآية ۱۹۷) و أما مقدمة الكتاب فإنها تتحدث فى أسلوب رائق عن القرآن الكريم إذ يقول:

«الحمد للّه رب العالمين و صلواته على نبيه محمد و آله أجمعين قال الشيخ أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل الراغب رحمة اللّه اسأل اللّه أن يجعل لنا من أنواره نورا يرينا الخير و الشر بصورتيهما و يعرفنا الحق و الباطل بحقيقتهما حتى نكون ممن يسعى نورهم بين أيديهم و بأيمانهم و من الموصوفين بقوله تعالى:

هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

(سورة الفتح الآية ۴) و بقوله أُولئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمانَ وَ أَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ. (سورة المجادلة الآية ۲۲) كنت قد ذكرت فى

الرسالة المنبهة على فوائد القرآن إن اللّه تعالى كما جعل النبوة بنبينا مختتمة و جعل شرائعهم بشريعته من وجه منتسخة و من وجه مكملة منه تعالى:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً (سورة المائدة الآية ٣)

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۱

جعل كتابه المنزل عليه متضمنا ثمرة كتبه التى أولاها أوائل الأمم كما نبه عليه بقوله تعالى يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة و جعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجم و بحيث تقصر الألباب البشرية عن احصائه و الآلات الدنيوية عن استيفائه كما نبه عليه بقوله تعالى:

وَ لَوْ أَنَّ ما فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَ الْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ.

(سورة لقمان الآية ٢٧) لكن محاسن أنواره لا- يثقفها إلا البصائر الجلية و أطايب ثمره لا يقطفها إلا الايدى الزكية و منافع شفائه لا ينالها إلا النفوس النقية كما صرح تعالى به فقال فى وصف متناوليه:

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتابٍ مَكْنُونٍ. لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ.

(سورة الواقعة الآية ٧٧ و ٧٨ و ٧٩) و قال فى وصف سامعيه:

قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى.

(سورة فصلت الآية ۴۴) و ذكرت أنه كما لا تدخل الملائكة الحاملة للبركات بيتا فيه صورة أو كلب كذلك لا تدخل السكينات الجالبة للبينات قلبا فيه كبر و حرص:

الْخَبِيثاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَ الْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثاتِ وَ الطَّيِّباتُ لِلطَّيِّبِينَ وَ الطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّباتِ. (سورة النور الآية ۲۶)

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۲

و دللت فى تلك الرسالة على كيفية اكتساب الزاد الذى يرقى كاسه فى درجات المعارف حتى يبلغ من معرفته أقصى ما فى قوة البشر أن يدركه من الأحكام و الحكم فيطلع من كتاب اللّه على ملكوت السموات و الأرض و يتحقق أن كلامه كما وصفه بقوله ما فرطنا فى الكتاب من شىء جعلنا اللّه كما قال تعالى لنبيه صلّى اللّه عليه و سلم.

إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ.

(سورة القصص الآية ۵۶) و ذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به العلوم اللفظية و من العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفرقة فتحصيل معانى مفردات ألفاظ القرآن فى كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه كتحصيل اللبن فى كونه من أول المعاون فى بناء ما يريد أن يبنيه و ليس ذلك نافعا فى علم القرآن فقط بل هو نافع فى كل علم من علوم الشرع فألفاظ القرآن هى لب كلام العرب و زبدته و واسطته و كرائمه و عليها اعتماد الفقهاء و الحكماء فى احكامهم و حكمهم و إليها مفزع حذاق الشعر و البلغاء فى نظمهم و نثرهم و ما عداها و عدا الألفاظ المتفرعات عنها و المشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور و النوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، و الحثالة و التبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة.

و الآن نورد نماذج من الكتاب:

١- (آدم) أبو البشر قيل: سمى بذلك لكون جسده من اديم الأرض و قيل لسمرة فى لونه يقال رجل آدم نحو اسمر و قيل سمى بذلك لكونه من عناصر مختلفة و قوة متفوقة كما قال تعالى «امشاج نبتليه» و يقال جعلت فلانا أدمة أهل أى خلطته بهم و قيل سمى بذلك لما طيب به من الروح المنفوخ فيه المذكور فى قوله و نفخت فيه من روحى و جعل له به العقل و الفهم و الروية التى فضل بها على غيره كما قال تعالى:

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۳

وَ فَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلًا.

(سورة الاسراء الآية ۷۰) و ذلك من قولهم الادام و هو ما يطيب به الطعام و فى الحديث لو نظرت إليها فإنها أحرى أن يؤدم بينكما أى يؤلف و يطيب.

۲- (الرزق) يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أم أخرويا و للنصيب تارة و لما يصل إلى الجوف و يتغذى به تارة يقال أعطى السلطان رزق الجند و رزقت علما قال:

وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ.

(سورة المنافقون الآية ۱۰) أى من المال و الجاه، و العلم و كذلك قوله:

وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ.

(سورة البقرة الآية ۲) كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ (سورة البقرة الآية ۱۷۲) و قوله و تجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون أى و تجعلون نصيبكم من النعمة تحرى الكذب و قوله و فى السماء رزقكم قيل عنى به المطر الذى به حياة الحيوان و قيل هو كقوله و أنزلنا من السماء و قيل تنبيه أن الحظوظ بالمقادير، و قوله تعالى:

فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ.

(سورة الكهف) أى بطعام يتغذى به و قوله تعالى:

وَ النَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقاً لِلْعِبادِ.

(سورة ق الآية ۱۰)

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۴

قيل عنى به الأغذية و يمكن أن يجمل على العموم فيما يؤكل و يلبس و يستعمل و كل ذلك مما يخرج من الأرضين و قد قيضه اللّه بما ينزله من السماء من الماء و قال فى العطاء الأخروى:

وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. (سورة آل عمران الآية ۱۶۹) أى يفيض اللّه عليهم النعم الأخروية و كذلك قوله:

وَ لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيها بُكْرَةً وَ عَشِيًّا. (سورة مريم الآية ۶۲) و قوله:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ. (سورة الذاريات الآية ۵۸) فهذا محمول على العموم و الرزاق يقال لخالق الرزق و معطيه و المسبب له و هو اللّه تعالى و يقال ذلك للانسان الذى يصير به وصول الرزق و الرزاق لا يقال إلا للّه تعالى و قوله:

وَ جَعَلْنا لَكُمْ فِيها مَعايِشَ وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ.

(سورة الحجر الآية ۲۰) أى يسبب فى رزقه و لا مدخل لكم فيه و قوله:

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً مِنَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ شَيْئاً وَ لا يَسْتَطِيعُونَ.

(سورة النحل الآية ۷۳) أى ليسوا بسبب فى رزق بوجه من الوجوه، و بسبب من الأسباب و يقال ارتزق الجند اخذوا أرزاقهم و الرزقة ما يعطونه دفعة واحدة، و هذا الكتاب النفيس مطبوع عدة طبعات.

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۵

الفخر الرازى و تفسيره

اشارة

هو أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على القرشى التيمى البكرى الطبرستانى الرازى.

لقب بفخر الدين، و عرف بابن الخطيب.

ولد بالرى خامس عشر شهر رمضان سنة أربع و أربعين و خمسمائة للهجرة.

و قد شب على طلب العلم و رحل فى سبيل تحصيله الى أشهر مواطنه فى عمره: فى خوارزم و خراسان و ماوراء النهر، و كان قد قضى وطره من التلقى عن والده الذى كان من تلاميذ الامام البغوى الشهير ثم تلقى بعده عن الكمال السمعانى و المجد الجيلى و كثير من العلماء الذين عاصرهم.

و قد كان من نتيجة السعى لطلب العلم و الجد فى تحصيله ان أصبح الرازى- كما قيل عنه- إمام وقته فى العلوم العقلية فكان متكلم زمانه، و أحد الأئمة فى العلوم الشرعية، و التفسير و اللغة. كما كان فقيها على المذهب الشافعى.

مؤلفاته

: و قد ترك الرازى فى هذه العلوم الكنوز العلمية الكبيرة و الآثار الخالدة من المؤلفات التى حظيت فى حياته و بعد وفاته باقبال الناس عليها يتدارسونها و ينتفعون بما تركته قريحة هذا العالم الكبير و هى تربوا- فى مجموعها على مائتى مصنف.

و من أشهر مؤلفات الرازى:

كتابه المشهور فى التفسير المعروف ب «مفاتيح الغيب».

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۶

و لوامع البينات فى شرح أسماء اللّه تعالى و الصفات.

و كتاب معالم أصول الدين.

و محصل المتقدمين و المتأخرين من العلماء و الحكماء و المتكلمين.

و المسائل الخمسون فى أصول علم الكلام.

و أسرار التنزيل فى التوحيد.

و المباحث المشرقية.

و انموذج العلوم.

و المحصول فى علم الاصول.

و السر المكتوم فى مخاطبة النجوم.

و كتاب الهندسة.

و غير ذلك الكثير مما يجعله فى مكانه مع كبار العلماء و المفكرين و الفلاسفة الاسلاميين.

و قد كان لهذا العالم الفذ مواقفه الصلبة دفاعا عن العقيدة و ذبا عن حماها.

و كان للرازى شهرة كبيرة فى الوعظ باللسانين العربى و العجمى اذ كان بالغ التأثير فى خطابته لما يلحقه من وجد فى حال الوعظ حيث كان يكثر من البكاء فيأخذ بمجامع القلوب و تنصت إليه الأسماع و قد زاد من تأثيره فى قلوب سامعيه عاطفته التى كانت تجيش فى كثير من الاحيان بشعر ياخذ بالالباب و يهز أوتار القلوب هزا، و من شعره فى ذلك:

اليك اله الحق وجهى و وجهتىو أنت الذى ادعوه فى السر و الجهر

و أنت غياثى عند كل ملمةو أنت أنيسى حين أفراد فى القبر و منه:

نهاية اقدام العقول عقالو أكثر سعى العالمين ضلال

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۷ و أرواحنا فی وحشة من جسومناو حاصل دنیانا أذی و وبال

و کم قد رأینا من رجال دولةفبادوا جمیعا مسرعین و زالوا

و کم من جبال قد علت شرفاتهارجال فزالوا و الجبال جبال

تلامذة الرازی

: و قد کثر تلامیذ الرازی کثرة فائقة حتی قیل انه کان یمشی فی خدمته نحو ثلاثمائة تلمیذ، و کان یحضر مجالس وعظه الخاص و العام.

و قد عاش الرازی فی رغد من العیش وسعة من الثراء و نعمة تضاهی نعمة الملوک حیث اجتمعت له الاموال الکثیرة اکراما له من سلاطین عصره من أمثال: شهاب الدین الغوری سلطان غزنة. و السلطان علاء الدین خوارزم شاه.

و قد عظم شأنه حتی أن الملک خوارزم هذا کان یأتی إلی بابه و یحضر مجالس وعظه حتی اذا انتهت به الحیاة و قضی منها وطره ترک ثروة ضخمة تربو علی ثمانین ألف دینار.

و مع ما قام به هذا الرجل من دراسات و تألیف و محاورات فی علم الکلام فاننا نراه- ککثرة من العلماء- یعود إلی الاقرار بأن هناک ما هو أجدی و أجدر بالبحث و الدراسة و التصنیف و هو القرآن الکریم فتراه یقول:

«لقد اختبرت الطریق الکلامیة و المناهج الفلسفیة فلم أجدها تروی غلیلا، و لا تشفی علیلا، و رأیت أصح الطریق طریقة القرآن ....

ثم یقول:

«و أقول من صمیم القلب من داخل الروح: أنی مقر بأنّ ما هو الاکمل و الأفضل الأعظم الاجل فهو لک، و کل ما هو عیب و نقص فأنت منزه عنه ...

مناهج المفسرین، ص: ۱۴۸

و أن الإمام الرازی بهذا الاعتراف الذی کان منه فی أواخر حیاته یبین أن هذا الفیلسوف بعد أن طاف بمجالات الفکر فی جوانبها العمیقة و فی زوایاها المستفیضة رأی فی النهایة أن منهج الاتباع للقرآن و للسنة هو المنهج الذی یهدی الانسان الی الصراط المستقیم، أما المتاهات التی سار فیها الفلاسفة و المتکلمون فإنها لیست بمنهج السلم الصادق. و القرآن نزل هدایة للعقل و رسما للطریق الصواب، و هو عصمة لمن اتبعه، و هدایة لمن استقام علیه.

و عاد الامام الرازی اذن بعد أن طوف ما طوف إلی القرآن الکریم متبعا و مستهدیا و مسترشدا، و قال کلمته المشهورة:

نهایة اقدام العقول عقال ...

تفسیر الرازی «مفاتیح الغیب» و منهجه فیه.

یقع هذا التفسیر فی ثمانیة مجلدات ضخمة مطبوعة و متداولة بین أهل العلم حیث یحظی بین دارسی القرآن بالشهرة الواسعة نظرا لما یشتمل علیه من أبحاث فیاضة تضم أنواعا شتی من مسائل العلوم المختلفة حتی قیل عنه أنه: جمع کل غریب و غریبة.

و الناظر فی هذا التفسیر الکبیر یجد أمورا هامة تلفت النظر و تشد الانتباه منها:

۱- الاهتمام بذکر المناسبات بین سور القرآن و آیاته و بعضها مع بعض حتی یوضح ما علیه القرآن من ترتیب علی الحکمة «تنزیل من حکیم حمید».

۲- کثرة الاستطراد إلی العلوم الریاضیة و الفلسفیة و الطبیعة و غیرهما.

۳- العرض لکثیر من آراء الفلاسفة و المتکلمین بالرد و التفنید فهو- علی شاکلة أهل السنة و من یعتقد معتقدهم- یقف دائما للمعتزلة بالمرصاد یفند آراءهم و یدحض حجتهم ما استطاع إلی ذلک سبیلا.

۴- و الفخر الرازى فى تفسيره لا يكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا

مناهج المفسرين، ص: ۱۴۹

و يذكر مذاهب الفقهاء فيها مع ترويجه لمذهب الشافعى الذى كان يتابعه هو فى عبادته و معاملاته.

۵- و يضيف الرازى إلى ما سبق كثيرا من المسائل فى علوم: الأصول و البلاغة و النحو و غيرها، و ان كانت هذه المسائل فى مجموعها بعيدة عن الاطناب و التوسع كما هو الحال فى المسائل الكونية و الرياضية و الفلسفية بوجه عام.

و بالجملة فتفسير الإمام الرازى أشبه ما يكون بموسوعة كبيرة فى علوم الكون و الطبيعة و العلوم التى تتصل اتصالا من قريب أو بعيد بعلم التفسير و العلوم الخادمة له و المترتبة عليه استنباطا و فهما.

و انظر إليه بعد أن عرض لسورة الفاتحة عرضا موجزا فى مقدمته اذ يقول:

أما بعد: فهذا كتاب مشتمل على شرح بعض ما رزقنا اللّه تعالى من علوم سورة الفاتحة، و نسأل اللّه العظيم أن يوفقنا لا تمامه و أن يجعلنا فى الدارين اهلا لإكرامه و انعامه ... و هذا الكتاب مرتب على مقدمة و كتب، أما المقدمة ففيها فصول: الفصل فى التنبيه على علوم هذه السورة على سبيل الإجمال.

ثم يقول:

اعلم أنه مر على لسانى فى بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة يمكن أن يستنبط من فوائدها و نفائسها عشرة آلاف مسئلة فاستبعد هذا بعض الحساد و قوم من أهل الجهل و الغى و العناد و حملوا على ذلك ما ألفوه من انفسهم من التعليقات الفارغة من المعانى و الكلمات الخالية من تحقيق المعاقد و المبانى، فلما شرعت فى تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول.

ثم يذكر بعد ذلك مقدمة جدلية يشفعها بقوله:

فظهر بهذا الطريق أن قولنا «اعوذ باللّه» مشتمل على الألوف من المسائل الحقيقية اليقينية ...

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۰

ثم يؤكد ذلك مرة أخرى مع زيادة و توسع فى تفصيل و توضيح فيقول:

«فيثبت بهذا الطريق أن قولنا: «اعوذ باللّه» مشتمل على عشرة آلاف مسألة و أزيد أو أقل من المسائل المهمة المعتبرة».

و الكتاب بين يدى القارئ بذلك يعتبر مائدة كبرى حوت أطيب المآكل و المشارب و قطوف الثمرات يشبع و يروى بها أهل العلم و دارسوا القرآن و علومه أفئدتهم و ظمأهم من هذا التفسير المبارك.

رحم اللّه الرازى و نفع بتفسيره و جزاه عن القرآن و علوم القرآن و دارسيه خير الجزاء.

نموذج من تفسيره

: قوله تعالى: «لا ريب فيه» فيه مسئلتان:

المسألة الأولى: «الريب» قريب من الشك، و فيه زيادة كأنه ظن سوء ... تقول: رابنى امر فلان اذا ظننت به سوءا، و منه قوله عليه السلام: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

فان قيل؛ قد يستعمل الريب فى قولهم ريب الدهر، و ريب الزمان أى حوادثه.

قال تعالى: نتربص به ريب المنون. و يستعمل أيضا فى معنى ما يختلج فى القلب من أسباب الغيظ كقول الشاعر:

قضينا فى تهامة كل ريبو خير ثم اجمعنا السيوفا قلنا: هذان قد يرجعان الى معنى الشك لأن الشك ما يخاف من ريب المنون محتمل فهو كالمشكول، و كذلك ما اختلج بالقلب فهو غير متيقن.

فقوله تعالى: «لا ريب فيه» المراد منه نفى كونه مظنة الريب بوجه من الوجوه، و المقصود أنه لا شبهة فى صحته و لا فى كونه من عند اللّه و لا فى كونه معجزا.

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۱

و لو قلت: المراد لا ريب فى كونه معجزا على الخصوص كان أقرب لتأكيد هذا التأويل بقوله:

وَ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلى عَبْدِنا (سورة البقرة الآية ۲۳) و هاهنا سؤالان:

السؤال الأول: طعن بعض الملحدة فيه فقال: إن عنى أنه لا شك فيه عندنا فنحن قد نشك فيه، و إن عنى أنه لا شك فيه عنده فلا فائدة فيه ..

الجواب: المراد أنه بلغ من الوضوح إلى حيث لا ينبغى لمرتاب أن يرتاب فيه، و الامر كذلك، لان العرب مع بلوغهم فى الفصاحة إلى النهاية عجزوا عن معارضة أقصر سورة من القرآن و ذلك يشهد بأنه بلغ هذه الحجة فى الظهور إلى حيث لا يجوز للعاقل أن يرتاب فيه.

السؤال الثانى: لم قال هاهنا: لا ريب فيه، و فى موضع آخر «لا فيها غول ..؟

الجواب: لانهم يقدمون الاهم فالمهم، و هاهنا الأهم نفى الريب بالكلمة عن الكتاب، و لو قلت: لا ريب فيه لاوهم أن هناك كتابا آخر حصل الريب فيه لا هنا كما قصد فى قوله: لا فيها غول تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا فانها لا تغتال العقول كما تغتالها خمرة الدنيا.

السؤال الثالث: من بين بدل قوله لا ريب فيه على نفى الريب بالكلية.

الجواب: قرأ أبو الشعثاء: لا ريب فيه- بالرفع. و اعلم أن القراءة المشهورة توجب ارتفاع الريب بالكلية، و الدليل عليه أن قوله: لا ريب فيه نفى لما هية الريب، و نفى الماهية يقتضى نفى كل فرد من افراد الماهية، لأنه لو ثبت فرد من أفراد الماهية لثبتت الماهية، و لهذا السر كان قولنا: لا اله الا اللّه نفيا لجميع الآلهة سوى اللّه تعالى.

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۲

و أما قولنا: لا ريب فيه- بالرفع فهو نقيض لقولنا: ريب فيه، و هو يفيد ثبوت فرد واحد فذلك النفى يوجب انتفاء جميع الافراد ليتحقق التناقض .... الخ ..

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۳

الإمام الطبرسى و تفسيره مجمع البيان لعلوم القرآن

ان مؤلف هذا التفسير هو الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى.

و الطبرسى: نسبه إلى طبرستان، و هو من كبار علماء الشيعة الامامية، توفى سنة ۵۴۸ ه. ليلة عيد الاضحى و قد عاش فى خراسان فى المشهد الرضوى مدة طويلة فنسب إلى المشهد، و يقال له أحيانا الطبرسى المشهدى ثم ارتحل إلى بلده سبزاوار من اقليم خراسان.

و ألف هذا، الكتاب بها و فرغ من تأليفه فى ذى القعدة سنة ۵۴۶ ه.

و هو رجل من بيت من بيوت العلم، فقد كان ابنه رضى الدين من أهل العلم و كان سبطه على بن الحسن من أهل العلم و كان الكثيرون من أقربائه و أحفاده من ذوى المكانة العلمية.

و أخذ عنه كثير من العلماء و أخذ هو عن قمة من قمم المذهب الشيعى هو الشيخ أبى على بن الشيخ الطوسى و قد ألف فى التفسير ثلاثة كتب أحدها هذا الكتاب الذى نقدمه الآن و لتأليفه قصة: إن المؤلفين يذكرونها كما يلى:

«و من عجيب أمر هذا الطبرسى بل من غريب كراماته، ما اشتهر بين الخاص و العام أنه قد أصابته السكتة فظنوا به الوفاة فغسلوه و

كفنوه ثم رجعوا، فلما أفاق وجد نفسه فى القبر و مسدود عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة، فنذر فى تلك الحالة أنه أن انجى من تلك الداهية ألف كتابا فى تفسير القرآن، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفنه، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده فتحير النباش و دهش مما رآه ثم تكلم معه فازداد به قلقا، فقال له: لا تخف، أنا حى و قد أصابتنى السكتة ففعلوا بى هذا، و لما لم يقدر على

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۴

النهوض و المشى من غاية ضعفه، حمله النباش على عاتقه و جاء به إلى بيته الشريف، فأعطاه الخلعة و أولاه ما لا جزيلا، و تاب على يده النباش، ثم انه بعد ذلك و فى بنذره الموصوف، و شرع فى تأليف مجمع البيان» ا ه.

أما التفسير الثانى فله أيضا قصة و ذلك أنه وصله فى يوم من الأيام تفسير الكشاف فوجد أنه تفسير نفيس فاستحسن طريقته، و أعجب به، و لكنه رأى به بعض ما يؤخذ عليه من التعصب الكامل لمذهب المعتزلة، فألف كتاب:

«الكافى الشافى عن الكشاف» و قد ضمن هذا الكتاب الوسيط فوائد تفسيره مجمع البيان و فوائد تفسير الكشاف و هو فى أربعة مجلدات، و له تفسير ثالث مختصر هو الوجيز.

و التفسير الذى نقدمه كتب عنه قديما و حديثا كثير من مفكرى الاسلام، لقد كتب عنه الشيخ محمد تقى القمى من أعلام الشيعة:

«انه كتاب وقف مؤلفه موقف الانصاف، و التزم جادة الأدب القرآنى، فلم يعنف فى جدال، و لم يسفه فى مقال، بل أعطى مخالفيه ما أعطى موافقيه من حسن العرض، و بيان الحجة، و رواية السند، فمكن القارئ بذلك من الحكم السديد، و جعل من كتابه موضعا للقدوة الحسنة فى الجدال بالتى هى أحسن.

و كتب عنه فضيلة الامام الأكبر الشيخ محمود شلتوت ما يلى:

«ان هذا الكتاب نسيج وحده بين كتب التفسير و ذلك لأنه مع سعة بحوثه و عمقها و تنوعها، له خاصية فى الترتيب و التبويب، و التنسيق و التهذيب، لم تعرف لكتب التفسير من قبله، و لا تكاد تعرف لكتب التفسير من بعده:

فعهدنا بكتب التفسير الاولى أنها تجمع الروايات و الآراء فى المسائل المختلفة، و تسوقها عند الكلام على الآيات سوقا متشابكا ربما اختلط فيه فن بفن، فما يزال القارئ يكد نفسه فى استخلاص ما يريد من هنا و هناك حتى يجتمع إليه

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۵

ما تفرق، و ربما وجد العناية ببعض النواحى واضحة إلى حد الاملال، و التقصير فى بعض آخر واضحا إلى درجة الاختلال، أما الذين جاءوا بعد ذلك من المفسرين، فلئن كان بعضهم قد اطنبوا، و حققوا و هذبوا و فصلوا و بوبوا، فإن قليلا منهم أولئك الذين استطاعوا مع ذلك أن يحتفظوا لتفسيرهم بالجو القرآنى الذى يشعر معه القارئ بأنه يجول فى مجالات متصلة بكتاب اللّه اتصالا وثيقا، و تتطلبها خدمته حقا لا لادنى ملابسة، و أقل مناسبة.

لكن كتابنا هذا كان أول- و لم يزل أكمل- مؤلف من كتب التفسير الجامعة استطاع أن يجمع إلى غزارة البحث، و عمق الدرس، و طول النفس فى الاستقصاء، هذا النظم الفريد، القائم على التقسيم و التنظيم و المحافظة على تفسير القرآن، و ملاحظة أنه فن يقصد به خدمة القرآن، لا خدمة اللغويين بالقرآن، و لا خدمة الفقهاء بالقرآن، و لا تطبيق آيات القرآن على نحو سيبويه، أو بلاغة عبد القاهر، أو فلسفة اليونان أو- الرومان، و لا الحكم على القرآن بالمذاهب التى يجب أن تخضع هى لحكم القرآن.

و من مزايا هذا التنظيم أنه يتيح لقارئ الكتاب فرصة القصد إلى ما يريده قصدا مباشرا، فمن شاء أن يبحث عن اللغة عمد إلى فصلها المخصص لها، و من شاء أن يبحث بحثا نحويا اتجه إليه، و من شاء معرفة القراءات رواية أو تخريجا و حجة عمد إلى موضع ذلك فى كل آية فوجده ميسرا محررا، و هكذا.

و لا شك أن هذا فيه تقريب أى تقريب على المشتغلين بالدراسات القرآنية، و لا سيما فى عصرنا الحاضر الذى كان من أهم صوار فى

المثقفين فيه عن دراسة كتب التفسير ما يصادفونه فيها من العنت، و ما يشق عليهم من متابعتها فى صبر و دأب، و كد و تعب.

فتلك مزية نظامية لهذا الكتاب، بجانب مزاياه العلمية الفكرية.

أما منهج صاحب الكتاب نفسه فانه يتحدث عنه قائلا: أنه استخار اللّه تعالى، ثم يقول:

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۶

«و شمرت عن ساق الجد، و بذلت غاية الجهد و الكد، و أسهرت الناظر، و أتعبت الخاطر، و أطلت التفكير، و أحضرت التفاسير، و استمددت من اللّه سبحانه التوفيق و التيسير، و ابتدأت بتأليف كتاب هو فى غاية التلخيص و التهذيب، و حسن النظم و الترتيب، بجمع أنواع هذا العلم و فنونه، و يحوى فصوصه و عيونه، من علم قراءاته، و اعرابه و لغاته، و غوامضه و مشكلاته، و معاينة و جهاته، و نزوله و أخباره، و قصصه و آثاره، و حدوده و أحكامه، و حلاله و حرامه، و الكلام على مطاعن المبطلين فيه، و ذكر ما ينفرد به أصحابنا رضى اللّه عنهم من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول و الفروع، و المعقول و المسموع على وجه الاعتدال و الاختصار، فوق الايجاز و دون الاكثار، فان الخواطر فى هذا الزمان لا تحتمل أعباء العلوم الكثيرة، و تضعف عن الاجراء فى الحلبات الحظيرة، اذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء، و من العلوم إلا الذماء، و قدمت فى مطلع كل سورة ذكر مكيها و مدنيها، ثم ذكر الاختلاف فى عدد آياتها، ثم ذكر فضل تلاوتها ثم أقدم فى كل آية الاختلاف فى القراءات، ثم ذكر العلل و الاحتجاجات، ثم ذكر العربية و اللغات ثم ذكر الاعراب و المشكلات، ثم ذكر الاسباب و النزولات، ثم ذكر المعانى و الأحكام و التأويلات، و القصص و الجهات، ثم ذكر انتظام الآيات، على أنى قد جمعت فى عربيته كل غرة لائحة، و فى اعرابه كل حجة واضحة و فى معانيه كل قول متين، و فى مشكلاته كل برهان مبين، فهو بحمد اللّه للأديب عمده، و للنحوى عده، و للمقرئ بصيرة، و للناسك ذخيرة، و للمتكلم حجة، و للمحدث محجة، و للفقيه دلالة، و للواعظ آلة.

و سميته كتاب «مجمع البيان لعلوم القرآن» و أرجو ان شاء اللّه تعالى أن يكون كتابا كثير الدرر، غزير الغرر، متواصف السمات، متناسق الصفات، سيارا فى الانجاد و الأغوار، طيارا فى الآفاق و الاقطار، مهذب الترتيب، مذهب التهذيب، أحكام الشريعة بمعانيه منوطة، و أعلام الحقيقة

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۷

بمبانيه مربوطه، و بحول اللّه أعتصم و بقوته و عونه أفتتح و أختتم، و إياه أسأل الهداية للتى هى أقوم.

وَ ما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ إِلَيْهِ أُنِيبُ (سورة هود الآية ۸۸) و هاك نماذج من تفسيره:

قوله تعالى:

هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحامِ كَيْفَ يَشاءُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (سورة آل عمران الآية ۶) يقول: التصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، و الصورة هيئة يكون عليها الشيء فى التأليف.

و أصلها من صاره يصوره اذا أماله لأنها مائلة إلى هيئة بالشبه لها، و الفرق بين الصورة و الصيغة: أن الصيغة عبارة عما وضع فى اللغة ليدل على أمر من الأمور، و ليس كذلك الصورة لأن دلالتها على جعل جاعل شيئا على بنية، و الأرحام: جمع رحم و أصله الرحمة، و ذلك لأنها مما يتراحم به، و يتعاطف، يقولون:

وصلتك رحم، و المشيئة هى الارادة.

المعنى: «هو الّذى يصوّركم» أى يخلق صوركم فى الأرحام «كيف يشاء» على أى صورة شاء و على أى صفة شاء من ذكر أو أنثى، أو صبيح أو دميم، أو طويل أو قصير «لا اله إلا هو العزيز» فى سلطانه «الحكيم» فى أفعاله.

و دلت الآية على وحدانية اللّه و كمال قدرته و تمام حكمته حيث صور الولد فى رحم الأم على هذه الصفة و ركب فيه من أنواع البدائع من غير آلة

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۸

و لا- كلفة، و قد تقرر فى عقل كل عاقل أن العالم لو اجتمعوا على أن يخلقوا من الماء بعوضة، و يصوروا منه صورة فى حال ما يشاهدونه و يعرفونه، لم يقدروا على ذلك و لا وجدوا إليه سبيلا، فكيف يقدرون على الخلق فى الأرحام.

فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ (سورة المؤمنون الآية ۱۴) و هذا الاستدلال مروى عن جعفر بن محمد».

و هاك نموذج آخر من تفسيره:

قوله تعالى:

لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ إِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ.

(سورة آل عمران الآية ۱۶۴) يقول: «المعنى: ذكر سبحانه عظيم نعمته على الخلق ببعثه نبينا فقال:

«لقد من اللّه» أى أنعم اللّه «على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا» منهم خص المؤمنين بالذكر و ان كان صلّى اللّه عليه و سلم مبعوثا إلى جميع الخلق، لأن النعمة عليهم أعظم لاهتدائهم به و انتفاعهم ببيانه، و نظير ذلك ما تقدم بيانه من قوله «هدى للمتقين»، و قوله: «من أنفسهم» فيه أقوال: أحدها:

أن المراد به من رهطهم يعرفون منشأه و صدقه و أمانته، و كونه أميا لم يكتب كتابا و لم يقرأه ليعلموا أن ما أتى به وحى منزل، و يكون ذلك مشرفا لهم و داعيا إياهم إلى الايمان.

مناهج المفسرين، ص: ۱۵۹

و ثانيها: أن المراد به أنه يتكلم بلسانهم فيسهل عليهم تعلم الحكمة منه فيكون خاصا بالعرب.

و ثالثها: أنه عام لجميع المؤمنين، و المراد بأنفسهم أنه من جنسهم لم يبعث ملكا و لا جنيا، و موضع المنة فيه أنه بعث فيهم من عرفوا أمره، و خبروا شأنه.

و قوله: «يتلو عليهم آياته» يعنى القرآن «و يزكّيهم و يعلّمهم الكتاب و الحكمة» و يعرضهم لما يكونون به أزكياء بشهادته لهم بذلك ليعرفهم الناس.

«و يعلمهم الكتاب و الحكمة» الكتاب القرآن، و الحكمة هى القرآن أيضا، جمع بين الصفتين لاختلاف فائدتهما كما يقال: اللّه العالم بالأمور كلها، القادر عليها.

و قيل: أراد بالكتاب القرآن، و بالحكمة الوحى من السنة و ما لا يعلم إلا من جهته من الأحكام «و إن كانوا من قبل لفى ضلال مبين» يعنى أنهم كانوا فى ضلال ظاهر بين أى كفارا و كفرهم هو ضلالهم، فأنقذهم اللّه بالنبى صلّى اللّه عليه و سلم ا ه.

و بعد: فانه مما لا- شك فيه أنه تفسير نفيس، و كل ما يؤخذ عليه ميله للمذهب الشيعى و مهما قيل عن انصافه فانه لم يستطع أن يتخلص فى أحكامه من هذا المذهب.

مناهج المفسرين، ص: ۱۶۱

تفسير الإمام أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه

هو أبو الحسن على الشاذلى الحسنى يصل نسبه إلى ابن عبد اللّه بن عبد الجبار بن تميم بن هريرة بن حاتم، بن قصى، بن يوسف، بن يوشع، بن ورد، بن بطال على بن أحمد، أبى محمد بن عيسى بن محمد الحسن بن سيد شباب أهل الجنة و سبط خير البرية، ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب، كرم اللّه وجهه، و ابن فاطمة الزهراء، بنت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، يقول أبو العزائم ماضى يصف الشيخ رضى اللّه عنه:

«کانت صفته رضی اللّه عنه، آدم اللون، نحیف الجسم، طویل القامة، خفیف العارضین، طویل أصابع الیدین، کأنه حجازی.

و کان فصیح اللسان، عذب الکلام.

ولد ببلاد المغرب سنة ۵۹۳ ه بقریة تسمی «غمارة»- بلدة مغربیة:

قریبة من مدینة سبتة.

و أخذ یدرس بها العلوم الدینیة: وسائل و غایات، و برع فیها براعة کبیرة.

یقول ابن عطاء اللّه السکندری عنه:

انه لم یدخل طریق القوم حتی کان یعد للمناظرة فی العلوم الظاهرة.

بید أن هذه العلوم الظاهرة مهما بلغت بها الدقة، و مهما بلغ بها العمل، لا تفضی بالنفوس الطموحة إلی الکف عن التطلع نحو عالم الغیب، و اشراق اللّه و أنواره.

کیف یصل الانسان الی عالم الغیب؟

کیف ینغمس الانسان فی أضوائه؟

مناهج المفسرین، ص: ۱۶۲

کیف ینعم بجماله، و یشعر بالروعة فی محیط جلاله؟

ان النفوس الطموحة کلما ازدادت علما، ازدادت شعورا بالنقص، و الکمال للّه وحده، و لقد أمر رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم، أن یقول:

رَبِّ زِدْنِی عِلْماً (سورة طه الآیة ۱۱۴) و شعر أبو الحسن بالرغبة الملحة فی القرب من اللّه، و فی أن یستضیء قلبه بنور المعرفة، و فی أن یکشف اللّه له الحجب.

کیف یروی هذه الرغبة، کیف یسیر فی الطریق، من أین یبدأ؟

لقد رسم الأول الطریق: ان البدء، البدء المیسر السهل، البدء الذی یأمن الانسان عواقبه انما یکون طریقه خبیر سیر الطریق، و محص السبل، و کشف عن المزالق و الاخطار، و استنار قلبه بالطریق القاصد إلی اللّه.

أین یجد هذا الشیخ ما السبیل إلیه؟

ان بغداد منذ عهد العباسیین، کانت دائما محط أنظار طلاب الدنیا، و طلاب الدین.

و لقد کانت تضم کبار الفقهاء، و أعلام المحدثین، و القمم العوالی من الصوفیة، کما تضم کبار الساسة و القادة، کان ذلک فی عهدها الزاهر فهل یا تری هی کذلک فی القرن السابع الهجری؟

و اذا لم یکن لها کل البریق المادی الاول فهل بها علی الاقل من الصوفیة من یرسم الطریق عن خبرة، و من یسلک بالمرید السبل دون أخطاء؟

و تحمل الرغبة الملحة أبا الحسن علی السفر، انها هجرة إلی اللّه، انها هجرة النفس الطلقة الشفافة.

و هی هجرة یسیر بها الامل، و یتخللها الاشفاق، و تصاحبها فی کل الاوقات اسئلة لا جواب لها:

مناهج المفسرین، ص: ۱۶۳

هل سیجد الشیخ؟

و کیف یکون؟

و هل یستقبله الشیخ بقبول حسن؟

و بم سینصحه؟

و اذا لم يجده فى بغداد فأين يجده؟

انتهى به المطاف إلى بغداد، و التقى بالاولياء، و كان قمتهم فى نظره هو أبو الفتح الواسطى يقول أبو الحسن:

لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبى الفتح الواسطى، فما رأيت بالطريق مثله.

و لكن همة أبى الحسن كانت تسموا إلى البحث عن القطب ذاته، انه كان يريد أن يكون قائده هو القطب نفسه، أين يجد القطب؟.

هـا هو ذا بالعراق، و ها هم أولاء الصالحون، و أولياء اللّه يتردد عليهم كل يوم و ها هو ذا يرى النور على وجوههم، و الصـلاح يرتسـم على سيماهم، و لكنه لم يجد القطب و هو مطلبه.

و ذات يوم قال له أحد الأولياء:

انك تبحث عن القطب بالعراق، مع أن القطب ببلادك، ارجع إلى بلادك تجده.

و عاد أبو الحسن من حيث أتى، عاد يحـدوه الأمل، و يغمره الرجاء، لقـد صـدق الولى الـذى أنبأه بأن القطب فى بلاده، و بأنه سـيجده عند عودته.

و عاد يسرع الخطا و يستحث الوصول.

ها هو ذا بغمارة من جديد يسأل عن القطب المقبل و المدبر، و الراحل و المقيم:

مناهج المفسرين، ص: ۱۶۴ أقول أكاد اليوم أن أبلغ المدىفيبعد عنى ما أقول أكاد

أسائلكم عنها فهل من مخبرفما لى بنعم مذ نأت دارها علم

فلو كنت أدرى أين خيم أهلهاو أى بلاد اللّه- اذ ظعنوا- أموا

أذن لسلكنا مسلك الريح خلفهاو لو أصبحت نعم و من دونها النجم و ذات يوم:- يقول أبو الحسن:

لمـا قـدمت عليه و هو سـاكن بمغارة فى رأس جبل، اغتسـلت فى عين بأسـفل ذلك الجبل و خرجت عن علمى و عملى، و طلعت إليه فقيرا، و اذا به هابط إلى، و عليه مرقعة، و على رأسه قلنسوة من خوص، فقال لى:

مرحبا بعلى بن عبد اللّه الجبار، و ذكر نسبى إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ثم قال لى:

يا على طلعت إلينا فقيرا من علمك و عملك، فأخذت منا غنى الدنيا و الآخرة.

فأخذنى منه الدهش، فأقمت عنده أياما إلى أن فتح اللّه على بصيرتى.

و كان رضى اللّه عنه، يأخذ زينته عند كل مسجد، و اذا كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول:

«جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا».

أى أن الأرض- أينما كان الانسان عليها- كلها مسجد، فإن أبا الحسن كان يتحلى دائما بالثياب الحسنة.

و ما كان أبو الحسن يحب التزمت فى شىء أبدا.

و فى يوم من الأيام دخل أبو العباس المرسى على الشيخ أبى الحسن، و فى نفسه أن يأكل الخشن، و أن يلبس الخشن، فقال له الشيخ:

يا أبا العباس: اعرف اللّه و كن كيف شئت.

مناهج المفسرين، ص: ۱۶۵

و من عرف اللّه فلا عليه أيضا ان أكل هنيئا و شرب مريئا.

و ما كان أبو الحسن يتعمد قط أن يأكل الغليظ من الطعام، أو يقتصر على غير الزلال البارد من الشراب، انه يقول:

يا بنى برد الماء، فانك اذا شـربت الماء السـخن فقلت الحمـد اللّه، تقولها بكزازة: و إذا شـربت الماء البارد، فقلت الحمد اللّه اسـتجاب كل عضو منك بالحمد للّه.

و عن ذلك، و بيانا لنهج الطريقة الشاذلية، الذى رسمه أبو الحسن، يقول ابن عطاء اللّه:

«و أما لبس اللباس اللين، و أكل الطعام الشهى، و شرب الماء البارد:

فليس القصد إليه بالذى يوجب العتب من اللّه، إذا كان معه الشكر للّه، ا. ه ..

و هذا كله طبعا يتمشى مع قوله تعالى:

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِى أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ. (سورة الأعراف الآية ۳۲) و يقول الأستاذ على سالم عمار:

«كان الشاذلى يلبس الفاخر من الثياب، و يركب الفاره من الدواب، و يتخذ الخيل الجياد» ا. ه.

و لقد كان الجانب العلمى من العناصر الاولى التى حددت شخصية الشاذلى: لقد بدأ الدراسة و التحصيل صغيرا، فثقف كأحسن ما يكون المثقف، لقد ثقف على الطريق العادى فحفظ القرآن، و درس السنة، و درس العلوم الدينية، و سائل و غايات: «و لم يدخل فى علوم القوم حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة».

مناهج المفسرين، ص: ۱۶۶

و كان: «ذا علوم جمة» و هو صاحب «العلوم الغزيرة».

و لقد تدرج فى هذه العلوم سلما فسلما، ثم أخذ يختار الكتب التى يدرسها و يشرحها و ينصح بقراءتها، و يجب فى أصحابها، و كان منها فى موضوع التفسير «كتاب التحرير الوجيز» لابن عطية، و هو كتاب يشرحه عنوانه، فهو محرر كلماته منتقاة متميزة، محررة و عبارته دقيقة ..

و هو وجيز و ان لم يكل فى إيجاز الجلالين أو البيضاوى.

و كان الشيخ ينتقل بين الأقطار إلى أن وصل إلى مصر و استمر الشيخ يدعو فيها إلى اللّه إلى أن كان شهر شوال سنة ۶۵۶ ه، و فى هذا الشهر أخذ الشيخ فى السفر إلى الأراضى المقدسة للحج.

فلما كان فى حميثرة بصحراء عيذاب- و هى بين قنا و القصير- جمع الشيخ أصحابه فى احدى الأمسيات، و أوصاهم بأشياء، و أوصاهم بحزب البحر و قال لهم: «حفظوه أولادكم فان فيه اسم اللّه الأعظم»، ثم خلا بأبى العباس المرسى- رضى اللّه عنهما- وحده و أوصاه بأشياء.

و اختصه بما خصه اللّه من البركات، ثم وجه الحديث لاصحابه من البركات، ثم وجه الحديث لاصحابه قائلا:

«أنا إذا مت فعليكم بأبى العباس المرسى، فانه الخليفة من بعدى و سيكون له بينكم مقام عظيم، و هو باب من أبواب اللّه سبحانه و تعالى»، و بات تلك الليلة متوجها إلى اللّه تعالى ذاكرا و معه اصحابه و هو يقول: «الهى إلهى»! فلما كان السحر سكن فظننا أنه نام، فحركناه فوجدناه ميتا! و جاء الشيخ أبو العباس فغسله، و صلى الجميع عليه، و دفن حيث توفاه اللّه.

و قد كان للشيخ أولاد ذكور فلم يفكر فى أن يستخلف أحدهم و إنما أستخلف من رآه أحق بالخلافة، و ترجو أن يعتبر رجال الطرق فى العصر

مناهج المفسرين، ص: ۱۶۷

الراهن- فلا يجعلوا الطريق مورد رزق تورث كما يورث العقار.

و رحم اللّه أبا الحسن و طيب ثراه، و نفعنا ببركاته انه نعم المجيب ..

و كان شأن أبى الحسن الشاذلى فى التفسير شأن الشيخ محمد عبده، فقد كان الشيخ محمد عبده يأخذ تفسير الجلالين بين يديه، و يقرأ فيه و يشرح و يستفيض فى شرح رأيه هو دون أن يكون تفسيره الجلالين إلا تكأة موجزة إيجازا كبيرا.

و كان أبو الحسن الشاذلى يأخذ تفسير ابن عطية و يقرأ فيه، و فى خلال شرحه يذكر الهاماته و اشاراته ..

و هى الهامات و اشارات مبثوثة هنا و هناك لم تجمع فى كتاب، و لم تطبع مستقلة! و لقد سميناها اشارات لأن الاشارات الروحية، و

التوجيهات الالهية للقلوب و البصائر من خلال القرآن الكريم لا يحيط بها عد، و لا يأتى عليها الزمن.

هذه الاشارات للقلوب و البصائر تنبع و تفيض و تزداد بنسبة زيادة الامعان فى تحقيق معنى العبودية للّه سبحانه و تعالى.

و هى اشارات لا تحرم حلالا، و لا تحل حراما، انها ليست من تأويلات الباطنية هذه التأويلات المنحرفة، و التى يهدمها من أساسها فى سهولة و يسر عمل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم ..

فقد طبق صلوات اللّه و سلامه عليه دين اللّه تطبيقا هو الاسوة التى تحتذى، و التى إذا خرج الانسان عن دائرتها فى الدين فانه يكون خاطئا ضالا ..

لقد أخرج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و صحابته البررة الأصفياء الأوامر الالهية و النواهى الالهية عن دائرة النظريات إلى دائرة العمل، و تحدد بذلك المعنى المقصود من الأوامر و النواهى تحديدا لا لبس فيه، و كل تأويل- إذن-

مناهج المفسرين، ص: ۱۶۸

للأوامر و النواهى يخرجها عن أن تكون مطابقة لعمل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و عمل الصحابة فإنما هو تأويل باطنى ضال ..

أما الاشارات التى نثبتها هنا، فانها اشارات روحية ترشد إلى معارج الروح تتسامى بازدياد الانسان فى القرب من اللّه عن طريق الاستقامة.

و من اشاراته:

«من أجل مواهب اللّه: الرضا بمواقع القضاء، و الصبر عند نزول البلاء، و التوكل على اللّه عند الشدائد، و الرجوع إليه عند النوائب، فمن خرجت له هذه الأربع من خزائن الأعمال على بساط المجاهدة و متابعة السنة، و الاقتداء بالأئمة فقد صحت ولايته للّه و لرسوله و للمؤمنين:

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ (سورة المائدة الآية ۵۶) و من خرجت له من خزائن المنن على بساط المحبة فقد تمت له ولاية اللّه بقوله:

وَ هُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ..

ففرق بين الولايتين: فعبد يتولى اللّه، و عبد يتولاه، فهما ولايتان:

صغرى و كبرى.

فولايتك اللّه: خرجت من المجاهدة، و ولايتك لرسوله: خرجت من متابعتك لسنته، و ولايتك للمؤمنين: خرجت من الاقتداء بالأئمة، فافهم ذلك من قوله:

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ

مناهج المفسرين، ص: ۱۶۹

و قال الشيخ أبو العباس رضى اللّه عنه: كنت مع الشيخ فى سفره و نحن قاصدون إلى الاسكندرية حين مجيئنا من المغرب، فاخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن رضى اللّه عنه، فلما أحس بى قال:

أحمد- قلت: نعم يا سيدى ..

قال آدم خلقه اللّه بيده، و أسجد له ملائكته، و أسكنه الجنة نصف يوم- خمسمائة عام- ثم نزل به إلى الأرض،، و اللّه ما نزل اللّه بآدم إلى الأرض لينقصه، و لكن نزل به إلى الأرض ليكمله- و لقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله:

إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً (سورة البقرة الآية ۲۸) ما قال فى الجنة و لا فى السماء، فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة، لا نزول اهانة، فانه كان يعبد اللّه فى الجنة بالتعريف فأنزله اللّه الأرض ليعبده بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة- و أنت أيضا لك قسط من آدم: كانت بداية فى سماء الروح فى جنة المعارف فأنزلت إلى النفس لتعبده بالتكليف، فلما توفرت فيك

العبوديتان استحققت أن تكون خليفة ..

و فى قوله تعالى:

وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً، وَ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ (سورة الطلاق الآية ۲) فسر سهل بن عبد اللّه هذه التقوى من الحول و القوة و عدل عما تزين به الباطلون من مظاهر التقوى مع دنس باطنه و هذا صحيح فى عبد ظاهر المعاصى و الشهوات و يحمل نفسه على أنواع الطاعات و قد سد الافق

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۰

بالدعاوى، و أضاف الحول و القوة إلى نفسه: فهذا عبد قد جاوز الحدود، و أعظم الفرية و العجب فلا يقوم خيره بشره، و المحققون ينسبون له الأشياء و ينظرون إلى البواعث و الثمار، فاذا فقدت الثمار علموا أن علمه و عمله مدخولان، و إذا فقدت البواعث الصحيحة فى الاصول فلا يعتبرون بأعمالهم، قال اللّه عز و جل:- وَ مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً فيا مدعى التقوى أين المخرج؟ فإذا رأيت المخرج (ثمرة لتقواك) و ذلك وعد اللّه و ضمانه (فأنت على الصواب و الخير)، و إذا لم تجد بتقواك إلا تجبرا فمن الصادق و من الكاذب؟

و من أصدق من اللّه قيلا:

وَ مَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (سورة الطلاق الآية ۲) و لا يصح التوكل إلا لمتق.

و لا تتم التقوى إلا لمتوكل.

فدققوا النظر فى البواعث و الاصول و الثمار و اللّه يحب الصابرين ..

و لا يتأتى أن نترك حياة أبى الحسن دون أن ننبه إلى موقفه من معركة المنصورة:

بدأ الصليبيون يزحفون صوب المنصورة و كانت مصر آنذاك تضم بين أرجائها نخبة ممتازة من العلماء الدينيين الذين أخلصوا جهادهم لله وحده، فلم تغرهم الدنيا بزخرفها و زينتها.

كان فى مصر اذ ذاك: العز بن عبد السلام، و مجد الدين القشيرى، و محيى الدين بن سراقة، و مجد الدين الاخميمى، و أبو الحسن الشاذلى، و غيرهم من خيرة العلماء.

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۱

لم يستقر هؤلاء العلماء فى دورهم البعيدة عن الخطر، و إنما هبوا جميعا للجهاد فى سبيل اللّه، لقد هاجروا إلى المنصورة ليكونوا بين المجاهدين، و رغم أن العارف باللّه أبا الحسن الشاذلى كان فى آخر حياته، و كان قد كف بصره، فانه كان فى مقدمة الذاهبين إلى المنصورة!!! ها هم أولئك العلماء الصوفية، أو الصوفية العلماء، بسمتهم الملائكى، و بايمانهم الذى لا يتزعزع يسيرون وسط الجند، يحثون و يشجعون، و يرشدون و يذكرون باللّه، و يبشرون- كما وعد اللّه- باحدى الحسنيين: النصر أو الجنة.

و إذا لزم الامر عملوا بأيديهم مع العالمين.

و لقد كان مجرد سيرهم فى الحوارى و الشوارع: تذكيرا بالنصر أو الجنة، و كان حفزا للهمم، و تثبيتا للايمان، و تأكيدا لصورة الجهاد الاسلامية التى قادها فى عصور الاسلام الاولى رسول اللّه صلوات اللّه عليه، و خلفاؤه الراشدون، رضوان اللّه عليهم ..

حتى إذا اطمأنوا إلى الأسباب و الوسائل: المادية الظاهرة، و المعنوية الباطنة، اجتمع هؤلاء الاعلام فى خيمة من خيام المعسكر نعم فى خيمة من خيام المعسكر يتجهون إلى اللّه بصلاتهم و دعائهم، يلتمسون منه النصر، فاذا ما فرغوا من ذلك أخذوا يتدارسون كتابا من الكتب ...

و شغل أبو الحسن بأمر المسلمين، فكان ليله و نهاره مشغولا باللّه فى أمرهم حتى إذا ما أخذته سنة من النوم ليلة من الليالى، رأى فيما يرى النائم، رؤى تتعلق بحالة المسلمين فى المنصورة و من: الرؤيا التى حكاها كتاب «درة الاسرار» قال:

«قال الشيخ أبو الحسن: كنت بالمنصورة، فلما كانت ليلة الثامن من ذى الحجة، بت مشغولا بأمر المسلمين و بأمر الثغر، و قد كنت أدعو اللّه و أضرع إليه فى أمر السلطان و المسلمين.

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۲

فلما كان آخر الليل، رأيت فسطاطا واسع الأرجاء، عاليا فى السماء، يعلوه نور و يزدحم عليه خلق من أهل السماء، و أهل الأرض عنه مشغولون، فقلت:

لمن هذا الفسطاط؟

فقالوا:

لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم.

فبادرت إليه بالفرح، و لقيت على بابه عصابة من العلماء و الصالحين نحوا من السبعين، أعرف منهم الفقيه عز الدين بن عبد السلام، و الفقيه مجد الدين مدرس قوص، و الفقيه الكماب بن القاضى صدر الدين و الفقيه المحدث محيى الدين بن سراقة، و الفقيه عبد الحكيم بن أبى الحوافز و معهم رجلان لم أعرف أجمل منهما، غير أنى وقع لى ظن فى حالة الرؤيا: أنهما الفقيه زكى الدين عبد العظيم المنذرى المحدث و الشيخ مجد الدين الاخميمى ...

و أردت أن أتقدم لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فالزمت نفسى التواضع و الادب مع الفقيه ابن عبد السلام و قلت: لا يصلح لك التقدم قبل عالم الامة فى هذا الزمان، فلما تقدم و تقدم الجميع، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يشير إليهم يمينا و شمالا:

أن اجلسوا و تقدمت، و أنا أبكى بالهم و الفرح، أما الفرح، فمن أجل قربى لرسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بالنسب، و أما الهم فمن أجل المسلمين و الثغر، و هم، طلبى إليه صلّى اللّه عليه و سلم، فمد يده حتى قبض على يدى، و قال:

لا- تهتم كل هذا الهم من أجل الثغر، و عليك بالنصيحة لرأس الامر- يعنى السلطان- فان ولى عليهم ظالم فما عسى؟ و جمع اصابع يده الخمسة فى يده اليسرى كأنه يقلل المدة.

و ان ولى عليهم تقى: «اللّه ولى المتقين» و بسيط يده اليمنى و اليسرى.

و أما المسلمون فحسبك اللّه و رسوله و هؤلاء المؤمنون- أى العلماء و الفقهاء و الصالحون بالمجلس و قال:

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۳

وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغالِبُونَ.

و أما السلطان فيد اللّه مبسوطة عليه برحمته من والى أهل ولايته و نصح المؤمنين من عباده فانصحه و اكتب له و قل فى الظالم عدو اللّه قولا بليغا:

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ، وَ لا- يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لا يُوقِنُونَ (سورة الروم الآية ۶۰) فقلت: نصرنا و رب الكعبة، و انتبهت، و نصر اللّه المسلمين نصرا مؤزرا، و أسر الملك لويس، و أسر الكثيرون من قواده، و أشاد الشعراء بهذا النصر.

و من قصيدة مشهورة لابن مطروح نقتطف منها ما يلى: قال يخاطب لويس:

و كل أصحابك أودعتهم‌بحسن تدبيرك بطن الضريح

سبعون الفا لا يرى منهموإلا قتيل أو أسير أو جريح

و قل لهم ان أزمعوا عودةلأخذ ثار أو لفعل قبيح

دار ابن لقمان على حالهاو القيد باق و الطواشى صبيح

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۵

الإمام أبو العباس المرسى و تفسيره

لم يكن أبو العباس معنيا بالحديث عن نفسه، و لم يكن مهتما بالتاريخ لحياته انه لم يتحدث عن اسرته، و لم يتحدث عن نفسه، و لم يشد بأفعاله، لقد فنى فى أبى الحسن، فلم يكن فى آفاقه فراغ للحديث عن نفسه، ثم فنى فى الدعوة إلى اللّه بعد أبى الحسن، فلم يكن فى آفاقه فراغ للحديث عن نفسه.

و يحدثنا التاريخ أنه ولد فى الاندلس «مرسية» التى ينسب إليها، ولد سنة- ۶۱۶ ه ۱۲۱۹ م، و يتصل نسبه بالانصار الذين أخبر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن حبهم من علامات الايمان، ان نسبه يتصل بسعد بن عبادة، سيد الخزرج.

ولد فى «مرسية» و نشأ بها، حيث كان والده يعمل فى التجارة، و يبدو أن حالة الوالد كانت من اليسر بحيث مكنته من ارسال ابنه إلى مؤدب لتعلم القرآن، و التفقه فى أمور الدين، يقول أبو العباس:- «كنت و أنا صبى، عند المؤدب، جاء رجل فوجدنى اكتب فى لوح، فقال الصوفى لا يسود بياضا، فقلت: ليس الأمر كما زعمت، و لكن لا يسود الصحائف بسود الذنوب».

هذه القصة تدل دلالة واضحة على ذكاء غير عادى، و على مهارة و فهم لا يوجدان فى المستوى العام، فى اطفال المكاتب، و ترسم أيضا اتجاها إلى الصلاح، و التقوى منذ هذه السن المبكرة.

و عن بعض حوادثه مع المؤدب يقول: عمل إلى جانب دارنا خيال خيال الستار، و أنا اذ ذاك صبى فحضرته، فلما أصبحت اتيت إلى المؤدب، و كان من أولياء اللّه تعالى، فأنشد حين رآنى.

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۶ يا ناظرا صور الخيال تعجباو هو الخيال بعينه لو أبصرا فخجل أبو العباس، و عزم فى نفسه أن يأخذ فى حياته مسلك الجد.

و أعظم حادث فى حياة أبى العباس هو صلته بأبى الحسن الشاذلى و عن بدء هذه الصلة يقول: فلما نزلت بتونس، و كنت اتيت من «مرسية»- و أنا إذ ذاك شاب- سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى، فقال لى رجل:

تمضى بنا إليه، فقلت حتى استخير اللّه فنمت تلك الليلة، فرأيت كأنى أصعد إلى رأس جبل، فلما علوت فوقه، رأيت هنالك رجلا، عليه برنس أخضر، و هو جالس، و عن يمينه رجل، و عن يساره رجل فنظرت إليه، فقال:

عثرت على خليفة الزمان، قال: فانتبهت.

فلما كان بعد صلاة الصبح، جاءنى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فسرت معه فلما دخلنا عليه، رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل، فدهشت .. فقال لى: عثرت على خليفة الزمان، ما اسمك؟ فذكرت له اسمى، و نسبى، فقال لى:- رفعت لى منذ عشر سنين، و بهره أبو الحسن بهره بحديثه المنطلق، و الهاماته المندفعة و سلوكه الربانى، فلازمه أبو العباس ملازمة المريد الصادق لشيخه العارف.

و رأى الشاذلى فيه فطرة طاهرة، و نفسا خيرة، و استعدادا طيبا، للاقبال على اللّه: فمنحه وده، و غمره بعنايته، و أخذ فى تربيته تربية تؤهله ليكون خليفة من بعده.

و حدث فى تونس سوء التفاهم بين الشاذلى، و قاضى القضاة ابن البراء، هذا الخلاف الذى سبق ان فصلناه فى كتابنا عن «المدرسة الشاذلية» و كانت نتيجته ان غادر الشاذلى تونس، ميمما شطر الديار المصرية، و رافقه فى هذا السفر جماعة كان على رأسهم أبو العباس.

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۷

و استمر أبو العباس مع الشاذلى يسير فى ضوء تربيته، و منهج طريقه لا يحيد عنه قيد شعره إلى ان كانت وفاة الشاذلى.

لقد بشر الشاذلى بأنه سيموت و يدفن بأرض لم يعص اللّه عليها قط، فلما كان فى طريقه إلى الحج و وصل إلى حميثرة، و قد خيم الركب للمبيت جمع أصحابه و أوصاهم بأشياء و أوصاهم حزب البحر، و قال لهم: حفظوه لأولادكم، فإن فيه اسم اللّه الأعظم.

و خلا بأبى العباس وحده رضى اللّه عنهما و أوصاه بأشياء، و اختصه بما اختصه اللّه به من البركات.

و قال لأصحابه: إذا أنامت فعليكم بأبى العباس المرسى: فإنه الخليفة من بعدى، و سيكون له بينكم مقام عظيم، و هو باب من أبواب اللّه سبحانه يقول صاحب كتاب درة الأسرار نقلا عن نجل الشيخ أبى الحسن: و بات تلك الليلة متوجها إلى اللّه سبحانه، ذاكرا، أسمعه يقول: الهى، الهى.

فلما كان السحر سكن فظننا أنه نام، فحركناه فوجدناه ميتا، رحمه اللّه.

و استدعينا سيدى أبا العباس المرسى، فغسله و صلينا عليه، و دفناه بحميثرة، و هذا الموضع ببرية عيذاب، فى واد على طريق الصعيد.

يقول صاحب «درة الأسرار» و قد شربت من مائها، وزرت ضريحه، و رأيت له البركات نفع اللّه به فى الدنيا و الآخرة.

و قال: و لما دفناه، اختلف اصحابه فى الرجوع، أو التوجه، فقال لهم سيدى أبو العباس: الشيخ أمرنى بالحج و وعدنى بكرامات، و توجهنا، و رأينا تهوينا، و بركات، و رجعنا فى صحبته.

*** و ظهر أبو العباس من بعد الشاذلى ظهورا عظيما، و ظهرت له كرامات كثيرة على أنه كان يبدو واضحا من مواقف أبى الحسن مع أبى العباس و من

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۸

حديثه عنه أنه: كان يعده للخلافة، بل لقد اقامه فيها بصورة تشبه أن تكون صريحة حينما استدعاه، و قال له: يا أبا العباس، تكلم بين الناس. فجلس فى جامع العطارين بالاسكندرية فعاصره بالكلام و التدريس و الدعوة إلى اللّه عن اذنه و بأمر منه، و حمل أبو العباس لواء الدعوة إلى اللّه طيلة حياته متفانيا فيها، باذلا كل ما يستطيع فى سبيلها حتى انتهت به الحياة راضيا عن اللّه، مرضيا عنه من اللّه و كان ذلك فى الخامس و العشرين من ذى القعدة سنة ۶۸۵ ه- ۱۲۸۷ م، و كان يبلغ تقريبا سبعين عاما، رحمه اللّه رحمة واسعة.

و يروون له كرامات كثيرة منها على سبيل المثال: إن السلطان يعقوب، أمر بذبح دجاجة و خنق أخرى، و طبخها، و قدمها إليه، و جلس ليأكل معه، فلما نظر الشيخ أبو العباس إليهما، أمر الخادم برفع المخنوقة، و قال:

هذه جيفة، و قال: لو لا تنجس الأخرى بالمرق النجس لأكلت منها، و قاله الشعرانى، قال المناوى، و قدم إليه رجل طعاما فيه شبهة يمتحنه فرده و قال كان الحاسبى، إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب عرق باصبعه فأنا فى يدى ستون عرقا تضرب.

و من كراماته التى انفرد بها عن غالب الأولياء تسليكه لنحو ثلاثين قاضيا، و كان يقول للعرشى: ليس الشأن أن تسلك كل يوم ألفا من العوام، بل ان تسلك فقيها واحدا فى مائة عام.

و قال الشيخ حسن العدوى فى كتابه «شرح البردة البوصيرية».

قال بعضهم: صليت خلف الشيخ أبى العباس فشهدت الأنوار ملأت بدنه، و انبثقت من وجوده، حتى أنى لم استطع النظر إليه.

مات سنة ۶۸۶ ه بالاسكندرية، رحمه اللّه ا. ه.

و مع ذلك فقبل ان ننتهى من الكرامات نقول انه رضى اللّه عنه كان يقول هذه الكلمة المخلصة.

«و اللّه ما جلست حتى جعلت جميع الكرامات تحت سجادتى».

مناهج المفسرين، ص: ۱۷۹

تفسير أبى العباس المرسى

لم يكتب أبو العباس المرسى تفسيرا للقرآن، يبتدئ فيه من أوله و ينتهى فيه بنهايته، و لم يكتب مريدوه و تلاميذه تفسيره و لم يجعلوا له تفسيرا، و إنما اكتفوا بأن تفسيره مبثوث هنا و هنالك فى كتب الشاذلية.

و ننقل هنا بعض نماذج من هذا التفسير الذى يسير فيه- طبيعيا- على المنهج الصوفى، ففى سورة الفاتحة أم الكتاب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ، مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّراطَ

الْمُسْتَقِيمَ، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ.

(سورة الفاتحة أم الكتاب) قال اللّه سبحانه: الحمد للّه رب العالمين:

قال الشيخ رضى اللّه عنه: علم اللّه عجز خلقه عن حمده، فحمد نفسه بنفسه فى آزاله فلما خلق الخلق اقتضى منهم ان يحمدوه بحمده، فقال الحمد للّه رب العالمين، أى قولوا الحمد اللّه رب العالمين، أى أن الحمد اللّه الذى حمد نفسه بنفسه، هو له لا ينبغى أن يكون لغيره، فعلى هذا تكون الألف و اللام للعهد.

يقول ابن عطاء اللّه: و سمعته يقول فى قوله عز و جل:

إِيَّاكَ نَعْبُدُ، وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.

إياك نعبد، شريعة.

مناهج المفسرين، ص: ۱۸۰

و إياك نستعين، حقيقة.

إياك نعبد، إسلاما.

و إياك نستعين، احسانا.

إياك نعبد، عباده.

و إياك نستعين، عبودية.

إياك نعبد، فوق.

و إياك نستعين، جمع.

ثم قال سبحانه و تعالى: «اهدنا الصراط المستقيم».

فقال الشيخ رضى اللّه عنه: بالتثبيت فيما هو حاصل، و الارشاد لما ليس بحاصل و هذا الجواب ذكره ابن عطية فى تفسيره، و بسطه الشيخ رضى اللّه عنه، فقال: عموم المؤمنين يقولون:

اهدنا الصراط المستقيم، أى بالتثبيت فيما هو حاصل و الارشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد، و فاتهم درجات الصالحين.

فيما هو حاصل، و الارشاد لما ليس بحاصل، فإنه قد حصل له رتبة القطبانية، و فاته علم إذا شاء اللّه ان يطلعه عليه، اطلعه.

۲- قال اللّه تعالى:

سُبْحانَ الَّذِى أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلًا.

(سورة الإسراء الآية ۱) و لم يقل بنبيه و لا- برسوله و هو نبيه و رسوله، و إنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للاتباع، فاعلمنا بأن الاسراء، من بساط العبودية، فالنبى صلّى اللّه عليه و سلم كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسراء، اسرى بروحه و جسمه و ظاهره و باطنه.

مناهج المفسرين، ص: ۱۸۱

فالأولياء لهم قسط من العبودية، فلهم قسط من الاسراء، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

۳- يقول اللّه تعالى:

لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ.

(سورة الحشر الآية ۲۱) قال رضى اللّه عنه فى هذه الآية: مدح لسيد المرسلين صلّى اللّه عليه و سلم، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها، و أنت يا محمد ثبت لنزوله بالقوة الربانية، التى أودعناها فيك.

و فيها ذم للكافرين، أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع و تصدع، و أنتم ما خشعتم و لا تصدعتم.

مناهج المفسرين، ص: ۱۸۳

أبو حيان الأندلسى و تفسيريه (البحر المحيط) و (النهر الماد)

اشارة

مفسر العصر و محدثه و مؤرخه و اديبه و الإمام المطلق فى النحو و التصريف الإمام أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان الأندلسى الغرناطى.

ولد بمطخشارش بالقرب من غرناطة آخر شوال سنة اربع و خمسين و ستمائة.

بدأ أبو حيان حياته بالقرآن الكريم حفظا و دراسة فقرأه على الخطيب عبد الحق بن على افرادا و جمعا ثم على الخطيب أبى جعفر بن الطباع، ثم على الحافظ أبى على بن أبى الأحوص بمالقة و الم رحمه اللّه بالقراءات صحيحها و شاذها.

و قد حببت إليه الرحلة لطلب العلم فكانت رحلاته ببلاد الاندلس و حواضرها المشهورة و مواطن العلم و العلماء فى ذلك الوقت فسمع الحديث بالأندلس و افريقيا و الاسكندرية و مصر و الحجاز من نحو اربعمائة و خمسين شيخا منهم أبو الحسن بن ربيع و ابن الأحوص و القطب العسكلانى و أجاز له خلق من المشرق و المغرب منهم الشرف الدمياطى و ابن دقيق العيد و غيرهم الكثير.

و يقول ابن العماد فى شذرات الذهب:

واكب- أبو حيان- على طلب الحديث و اتقنه و شرع فيه و فى التفسير و العربية و القراءات و الادب و التاريخ و اشتهر اسمه و طار صيته و أخذ عنه أكابر عصره و تقدموا فى حياته كالشيخ تقى الدين السبكى و ولديه و الجمال الاسنوى و ابن قاسم و ابن عقيل و السمين و ناظر الجيش و ابن مكتوم و خلائق.

مناهج المفسرين، ص: ۱۸۴

و قال الصفدى:

لم اره قط إلا- يسمع أو يشتغل أو يكتب، أو ينظر فى كتاب و كان ثباتا عارفا باللغة و أما النحو و التصريف فهو الإمام المطلق فيهما خدم هذا الفن أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد فى اقطار الأرض فيهما و له اليد الطولى فى التفسير و الحديث و تراجم الناس، و معرفة طبقاتهم خصوصا المغاربة و اقرأ الناس قديما و حديثا، الحق الصغار بالكبار، و صارت تلامذته أئمة و شيوخا فى حياته.

و مما يذكر عن سبب رحلته ما نقله السيوطى قائلا:

«و رأيت فى كتابة النضار الذى ألفه فى ذكر مبدئه و اشتغاله و شيوخه و رحلته: أن مما قوى عزمه على الرحلة عن غرناطة ان بعض العلماء بالمنطق و الفلسفة و الرياضة و الطبيعة قال للسلطان فى ذلك الوقت- إنى قد كبرت و أخاف أن اموت، فأرى ان ترتب لى طلبة اعلمهم هذه العلوم لينتفعوا من بعدى، قال أبو حيان: فأشير إلى أن أكون من أولئك و ترتب لى جيد و كسوة و احسان فتمنعت و رحلت مخافة أن اكره على ذلك».

و مما يذكر لأبى حيان ما قاله عنه الأدفوى و هو:- (... كان ثبتا صدوقا سالم العقيدة من البدع الفلسفية و الاعتزال و التجسيم ... كثير الخشوع و البكاء عند قراءة القرآن، و كان شيخا طوالا- حسن النفحة مليح الوجه ظاهر اللون مشربا بحمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر).

مؤلفاته

:- و قد كثرت مؤلفات أبى حيان كثرة فائقة نذكر منها:

البحر المحيط و النهر الماد و هما تفسيران مطول و مختصر سنتحدث عنهما.

إتحاف الاريب بما فى القرآن من الغريب.

و التذييل و التكميل فى شرح التسهيل.

مناهج المفسرين، ص: ۱۸۵

و مطول الارتشاف و مختصره مجلدان- قيل عنهما-: لم يؤلف فى العربية أعظم من هذين الكتابين و لا أجمع و لا احصى للخلاف و الأحوال. و غير ذلك الكثير.

شعره

:- و لأبى حيان شعر جيد يجعله فى عداد الحكماء نذكر منه قوله:

عداى لهم فضل على و منةفلا اذهب الرحمن عنى الأعاديا

همو بحثوا عن زلتى فاجتنبتهاو هم نافسونى فاكتسبت المعاليا هذا و قد انتهت بأبى حيان الحياة بعد عمر مديد فى خدمة القرآن و علومه و كانت وفاته بمصر سنة خمس و أربعين و سبعمائة للهجرة فرحم اللّه أبا حيان و رضى عنه و جزاه خير الجزاء.

مناهج المفسرين، ص: ۱۸۷

تفسير أبى حيان البحر المحيط، و النهر الماد- و منهجه فيهما

اشارة

لقد شغل أبو حيان زمنا مديدا بخدمة القرآن و علوم اللغة حتى قارب الستين من عمره ثم تفرغ لتفسير القرآن بعد أن حصل ادوات المفسر العالم الذى أدرك ما به سعادته الأبدية.

يقول أبو حيان فى مقدمة البحر المحيط.

و بعد: فإن المعارف جمة، و هى كلها مهمة، و أهمها ما به الحياة الأبدية، و السعادة السرمدية، و ذلك علم كتاب اللّه هو المقصود بالذات، و غيره من العلوم كالادوات، هو العروة الوثقى، و الوزر الأوفى الأقوى، و الحبل المتين و الصراط المستقيم- و ما زال يختلج فى ذكرى و يلح فى فكرى أنى إذا بلغت الأمد الذى يتفضض فيه الأديم، و يتنغص برؤيتى النديم، و هو العقد الذى يحل عرى الشباب المقول فيه: إذا بلغ الرجل الستين فإياه و أيا الشراب، الوذ بجانب الرحمن و اقتصر على النظر فى تفسير القرآن، فأتاح اللّه لى ذلك قبل بلوغ العقد و بلغنى ما كنت أروم من ذلك القصد .. و كان ذلك فى أواخر سنة عشر و سبعمائة و هى أول سنة سبع و خمسين من عمرى، فعكفت على تصنيف هذا الكتاب .. فكم حوى من لطيفة فكرى مستخرجها و من غريبة ذهنى منتجها، تحصلت بالعكوف على علم العربية ..

و قد ذكر أبو حيان فى مقدمته على البحر المحيط منهجه فى هذا السفر الضخم الذى يقع فى ثمانى مجلدات كبيرة ينتفع بها الباحثون فى علوم القرآن على وجه العموم و الباحثون فى علوم اللغة من نحو و صرف على وجه الخصوص يقول:- و ترتيبى فى هذا الكتاب: أنى ابتدأت أولا بالكلام على مفردات الآية

مناهج المفسرين، ص: ۱۸۹

التى افسرها لفظة لفظة فيما يحتاج إليه من اللغة و الاحكام النحوية التى لتلك اللفظة قبل التركيب، و إذا كان للكلمة معنيان او معان

ذكرت ذلك فى أول موضع فيه تلك الكلمة لينظر ما يناسب لها من تلك المعانى فى كل موضع تقع فيه فيحمل عليه.

ثم أشرع فى تفسير الآية ذاكرا سبب نزولها إذا كان لها سبب و نسخها و مناسبتها و ارتباطها بما قبلها حاشدا فيها القراءات شاذها و مستعملها ذاكرا توجيه ذلك فى علم العربية ناقلا أقاويل السلف و الخلف فى فهم معانيها.

متكلما على جليها و خفيها بحيث أنى لا اغادر منها كلمة و ان اشتهرت حتى اتكلم عليها مبديا ما فيها من غوامض الاعراب و دقائق الأدب من بديع و بيان مجتهدا أنى لا أكرر الكلام فى لفظ سبق فى جملة تقدم الكلام عليها و لا فى أية فسرت بل اذكر فى كثير منها الحوالة على الموضع الذى تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية، و أن عرض تكرير فمزيد فائدة ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة و غيرهم فى الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآنى محيلا على الدلائل التى فى كتب الفقه، و كذلك ما نذكره من القواعد النحوية أجيل فى تقريرها و الاستدلال عليها على كتب النحو، و ربما اذكر الدليل إذا كان الحكم غريبا أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس بادئا بمقتضى الدليل و ما دل عليه ظاهر اللفظ مرجحا له لذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب اخراجه به عنه منكبا فى الاعراب عن الوجوه التى تنزه القرآن عنها مبينا أنه مما يجب أن يعدل عنه و أنه ينبغى أن يعدل إلى أحسن اعراب و أحسن تركيب إذ كلام اللّه تعالى افصح الكلام فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النجاة فى شعر الشماخ و الطرماح و غيرهما من سلوك التقارير البعيدة و التراكيب القلقة و المجازات المعقدة، ثم اختتم الكلام فى جملة من الآيات التى فسرتها افرادا و تركيبا بما ذكروا فيها من علم البيان و البديع ملخصا. ثم اتبع آخر الآيات بكلام منثور أشرح به مضمون تلك الآيات على ما اختاره من تلك المعانى ملخصا جملها فى أحسن تلخيص، و قد ينجر معها ذكر معان لم تتقدم فى التفسير، و صار ذلك نموذجا

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۰

لمن يريد أن يسلك فيما بقى من سائر القرآن و ستقف على هذا المنهج الذى ذكرته إن شاء اللّه ... الخ.

و يقول أبو حيان عن منهجه فى تفسيره الثانى المسمى:

(النهر الماد) و المطبوع بهامش البحر المحيط:

و بعد: فإنى لما صنفت كتابى الكبير المسمى بالبحر المحيط فى علم التفسير عجز عن قطعه- لطوله- السبائح، و تفلت له عن اقتناصه البارح منه و السائح، فأجريت منه نهرا تجرى عيونه، و تلتقى بأبكاره فيه عيونه لينشط الكسلان فى اجتلاء جماله، و يرتوى الظمآن بارتشاف زلاله و ربما نشأ فى هذا النهر ما لم يكن فى البحر، و ذلك لتجدد نظر المستخرج للآلية المبتهج بالفكرة فى معانيه، و ما اخليته من أكثر ما تضمنه البحر من نقوده، بل اقتصرت على يواقيت عقوده، و نكبت فيه عن ذكر ما فى البحر من أقوال اضطربت بها الحجة و اعراب متكلف تعاصرت عنه خججه، و تفكيك اجزاء يخرج بها الكلام عن براعته و يتجرد من فاخر بلاغته و نصاعته، و هذا النهر مده من بحر ليس له جزر فيعسر وروده على من حظه فى النحو نزر، لأن ادراك عويص المعانى مرتب على تقدم معرفة المبانى:

و لما اثرت در هذا النهر من بحره، و نثرت حليه على مفرق الزمان و جيده و نحوه: سميته بالنهر الماد من البحر، و اللّه أسأل أن يعيننا على ذلك- و يلطف بنا فى الدارين هنا و هناك.

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۱

نموذج من تفسيريه البحر المحيط، و النهر الماد (أولا: من البحر المحيط):

فى قوله تعالى:

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ لما ذكر تعالى- فى الآية السابقة- أن لكل وجهة يتولاها أمر نبيه أن يولى وجهه شطر المسجد الحرام من أى مكان خرج لان قوله:

فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها- فَوَلِّ وَجْهَكَ.

ظاهره أنه أمر له باستقبال الكعبة و هو مقيم بالمدينة فبين بهذا الأمر الثانى تساوى الحالين اقامه و سفرا فى أنه مأمور باستقبال البيت الحرام ثم عطف عليه.

وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ.

ليبين مساواتهم له فى ذلك أى فى حال السفر و الأولى فى حال الإقامة، و قرأ عبد اللّه بن عمير (و من حيث) بالفتح فتح تخفيف، و قد تقدم القول فى حيث فى قوله (و حيث ما).

وَ إِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ.

هذا اخبار من اللّه تعالى بأن استقبال هذه القبلة هو الحق أى الثابت الذى لا يعرض له نسخ و لا تبديل، و فى الأول قال:

وَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ.

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۲

حيث كان الكلام مع سفهائهم الذين اعترضوا فى تحويل القبلة فرد عليه بأشياء منها:

إن علماء هم يعلمون أن تحويل القبلة حق من عند اللّه، و ختم آخر هذه الآية بما ختم به آخر تلك من قوله:

وَ مَا اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ.

(سورة البقرة الآية ۱۴۴) فى امتثال هذا التكليف العظيم الذى هو التحويل من جهة إلى جهة- و ذلك هو محض التعبد فالجهات كلها بالنسبة إلى البارى تعالى مستوية فكونه خصها باستقبال هذه زمانا. و نسخ ذلك باستقبال جهة اخرى متأيدة لا يظهر فى ذلك فى بادئ الرأى إلا أنه تعبد محض فلم يبق فى ذلك إلا امتثال ما أمره اللّه به فأخبره تعالى أنه لا يغفل عن أعمالكم- بل هو المطلع عليها المجازى بالتواب من امتثل أمره- و بالعقاب من خالفه.

و جاء فى قوله (الحقّ من ربّك)- فى المكانين- و فى قوله: (و ما اللّه)- فى المكانين- فحيث نبه على استدلال حكمته بالنظر إلى أفعاله ذكر الرب المقتضى للنعم، لينظر منها إلى النعم و نستدل بها عليه و لما انتهى إلى ذكر الوعيد ذكر لفظ اللّه المقتضى للعبارة التى من أخل بها استحق اليم العذاب ...

و يقول أبو حيان فى تفسيره الآية السابقة فى النهر الماد:

وَ مِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ لما امر باستقبال الكعبة و هو عليه السلام مقيم بالمدينة بين تساوى الحالين فى الإقامة و السفر و بين بقوله: وَ حَيْثُ ما كُنْتُمْ تساوى جهاتهم و حاله عليه السّلام فى ذلك- و ختم هذه الآية بما ختم تلك الآية السابقة مبالغة فى امتثال هذا التكليف العظيم الذى هو تحويل من جهة إلى جهة و هو تعبد محض.

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۳

البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزملكانى

إن الذين يكتبون عن زوايا من إعجاز القرآن يتعرضون تعرضا عميقا لتفسيره فى كثير من آياته، و هم فى ذلك مفسرون من أعلى طبقات المفسرين.

و من هؤلاء كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكانى المتوفى سنة ۶۵۱ ه صاحب كتاب: «البرهان» الكاشف عن أعجاز القرآن، الذى نشرته مديرية الأوقاف بالعراق بتحقيق نفيس قامت به الدكتورة خديجة الحديثى و الدكتور أحمد مطلوب.

و الزملكانى نسبة إلى زملكان بدمشق.

و قد درس حتى أصبح اماما من أئمة اللغة و الأدب و وصل به أمر الوظائف إلى أن تولى القضاء، و هذا يدل على أنه مع ضربه بسهم نافذ فى الأدب فإنه انغمس أيضا فى الفقه فكان له قدم فيه ..

و قد كتب عدة كتب منها:- ۱- التبيان.

و لقد اهتم مؤلفنا بإعراب القرآن الكريم، فكتب كتاب:

۲- المفيد فى إعراب القرآن المجيد.

۳- الخصائص النبوية على أن كتب صاحب البرهان تدل على أنه اهتم اهتماما كاملا- بالسيرة النبوية الشريفة فألف فيها كتاب «الخصائص النبوية».

و لقد اجتذبت الخصائص النبوية كثيرا من المؤلفين، منهم الإمام السيوطى الذى كتب كتابا ضخما فى الخصائص، و هو كتاب نفيس ...

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۴

و يؤلف المؤلفون أيضا فى الخصائص تحت عنوان «الشمائل». مناهج المفسرين ۱۹۴ البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن لابن الزملكانى

من اشهر الكتب فى ذلك كتاب «الشمائل» للترمذى.

و عنه يقول صاحب شذرات الذهب:

ابن الزملكانى العلامة كمال الدين عبد الواحد بن خطيب زملكا أبو محمد عبد الكريم بن خلف الأنصارى السماكى الشافعى صاحب علم المعانى و البيان، كان قوى المشاركة فى فنون العلم خيرا متميزا ذكيا سريا ولى قضاء صرخد، و درس مدة ببعلبك، و له نظم رائق، و هو جد الكمال الزملكانى المشهور، واسطة عقد البيت، و توفى عبد الواحد فى المحرم بدمشق و كان له ولد يقال له أبو الحسن على، إمام جليل، وافر الحرمة، حسن الشكل، درس بالامينية و توفى فى ربيع الأول سنة تسعين و ستمائة، و قد نيف على الخمسين.

و فيه يقول صاحب طبقات الشافعية:

عبد الواجد بن عبد الكريم بن خلف: الشيخ كمال الدين أبو المكارم، ابن خطيب زملكا.

قال أبو شامة: كان عالما خيرا متميزا فى علوم عدة، ولى القضاء بصرخد، و درس ببعلبك.

قلت: و هو جد الشيخ كمال الدين محمد بن على بن عبد الواحد الزملكانى، و كانت له معرفة تامة بالمعانى و البيان، و له فيهما مصنف، و له شعر حسن، توفى فى المحرم بدمشق سنة احدى و خمسين و ستمائة ..

و مع كثرة خوضه فى التفسير و فى الفقه، و مع كونه كان قاضيا معروفا فإن نزعة الأدباء إلى الشعر خصوصا من كانت عنده الوهبة، قد غلبت عليه، فكان يقول شعرا، بل كان يبدأ كعادة الشعراء قصائده بغزل فى غاية العذوبة، و فى بعض قصيدة له يقول:

أ طرفك ام هاروت يعقد لى سحراأ ريقك أم طالوت يعصر لى خمرا

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۵ و ما العيش إلا أن أرى لك عاشقاو ما الموت إلا أن تعذبنى هجرا

جمالك يكسو كل حسن ملاحةو منطقك الاسماع يملؤها درا

عذارك لام كل صدفك صادهو لا غروان تضحى العيون به سهرى

و فى فيك أم عقد اللآلى منظمفكان ظلام الليل فى ضوئه ظهرا

أ ليس ببدع أن تصيد قلوبناو أن ترخص الأسرى و كان يقول الشعر فى المدح، و من قصيدة له فى مدح الوزير أبى الحسن على الأمين:-

أسد فريسته أغاثه مدنفأخنى عليه الدهر فى تجواله

جبل على الأبطال عند نزالهميا ويح من يدعى ليوم نزاله

السعد فی نظراته، و الموت فی‌سطواته، و الفضل فی أفعاله

عجبا أبا الحسن الوزير غضنفرو الخائفون امانهم بظلاله

أبت المكارم أن تجود لدهرهابمثاله، و لغيره بخصاله

الصاحب الندب الجواد و من له‌شرف بمحتده و حسن فعاله و مما ذكره الدكتور أحمد مطلوب من أهم آرائه التی عرضها فی البرهان ما يلی:

۱- اختار الرأی القائل بأن البسملة من الفاتحة.

۲- رد علی أبی هلال العسكری فی تعريف البلاغة و قال: ان الفصاحة من عوارض الألفاظ مع ملاءمة المعنی، و البلاغة من عوارض المعانی و هو تكميل المعنی باللفظ الذی يفهمه من قولهم (بلغ كذا) إذا انتهی إليه، فإن اللفظ إذا كمل معناه أوصله إلی القلب .. أو أنه من (بلغ الشیء فی نفسه) إذا انتهی نهايته، و بلغ حده ..

۳- ذهب إلی ان أ لم تر؟ بمنزلة: «هل رأيت»؟ و ذكر الادلة علی ذلك.

۴- أنكر الترادف بين الألفاظ غير القديمة، و أن من ادعی لها قدما فقد

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۶

زل قدما و سيعض بنانه يوم القيامة ندما، كيف و القديم واجب الوجود لذاته لا يقبل العدم، و لا يوصف بحلول فی صدور البشر، و لا يلحن أحد فيه بلسان أو قلم، و لا يضاف إلی لغة عرب و لا عجم ..

و النموذج الذی نذكره مكون فی الواقع من عدة نماذج، فهو نص يتضمن عدة نصوص يتحدث فيه المؤلف من:

«أسباب التقديم و التأخير فی الآيات القرآنية».

يقول:

التقدم فی اللسان تبع للتقدم فی الجنان، علی ما سنين أن الألفاظ تبع للمعانی و المعانی تتقدم باعتبارات خمسة:

الاول: تقدم العلة و السببية علی المعلول و السبب، كتقديم المضیء علی الضوء، و ليس تقدما بالزمان لأن جرم الشمس ينفك عن الضوء.

الثانی: التقدم بالذات كالواحد مع الاثنين، و ليس الواحد علة لوجود الاثنين بخلاف القسم الأول.

الثالث: بالشرف كتقدم الأنبياء (صلّی اللّه عليه و سلم) علی الاتباع، و العالم علی الجاهل ..

الرابع: بالرتبة، كتقدم الإمام علی الماموم، و الجنس الأعلی علی ما تحته إذا جعل مبدأ ..

الخامس: بالزمان، كالأبعد من الآن مع الاقرب إليه، و منه تقدم الوالد علی الولد، فإن الوالد وجد فی زمان لم يكن فيه الولد موجودا .. فما كان من المعانی مقدما علی غيره بأحد هذه الاعتبارات أو بأكثرها كان فی العبارة كذلك ..

و من التقدم بالزمان: «و عادا و ثمود و قد تبين لكم من مساكنهم».

و منه: وَ جَعَلَ الظُّلُماتِ وَ النُّورَ. (سورة الانعام الآية ۱).

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۷

فإن الظلمة سابقة علی النور فی الإحساس، و كذلك الظلمة المعنوية سابقة علی النور الوالد يؤيده قوله صلّی اللّه عليه و سلم:

«إن اللّه خلق خلقه فی ظلمة ثم صب عليهم من نوره، فمن اصابه من ذلك النور اهتدی، و من اخطأ ضل».

و منه قوله تعالی:

وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصارَ وَ الْأَفْئِدَةَ.

فانتفاء العلم ظلمة، و هی متقدمة بالزمان علی نور الادراكات ..

و قوله تعالى: «فى ظلمات ثلاث» إشارة إلى ظلمة الرحم، و ظلمة البطن، و ظلمة المشيمة ..

و قيل: ظلمة الصلب و الرحم و البطن .. فهذه ظلمات ثلاث محسة.

و فى الآية الأولى: ظلمات ثلاث معقولة: فقد السمع و البصر و الفهم ...

و من التقدم بالذات قوله تعالى: «مثنى و ثلاث و رباع».

و نحوه: «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم» .. الآية، و كذلك مراتب العدد، فكل مرتبه هى ادنى من الأخرى، فهى متقدمة على ما فوقها.

و من التقدم بالسببية «العزيز» على «الحكيم»، لأنه إذا عز حكم.

و منه: «يحب التوابين و يحب المتطهرين»، فإن التوبة سبب للطهارة ..

و كذلك: «كل افاك اثيم» فإن الافك سبب للإثم، و كذلك «معتد اثيم».

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۸

و من التقدم بالرتبة قوله تعالى:

يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ (سورة الحج الآية ۲۷) فإن الذين يأتون رجالا الغالب انهم يكونون من المكان القريب، و الاتيان على الضامر ان يكون من مكان بعيد على أنه قد ورد عن ابن عباس (رضى اللّه عنهما):

«وددت أنى لو حججت راجلا، فإن اللّه قدم الرجالة على الركبان فى القرآن».

فجعله من باب التقدم بالفضيلة و الشرف، و المعنيان موجودان عند كثير من العلماء ..

و قوله تعالى:

هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ.

(سورة ن الآية ۱۱) و ذلك لا يفتقر إلى مشى بخلاف النميمة فإنها نقل للحديث من مكان إلى مكان عن شخص إلى شخص.

و من التقدم بالشرف قوله عز و علا:

فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرافِقِ وَ امْسَحُوا بِرُؤُسِكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ.

(سورة المائدة الآية ۶) فإن الوجه اشرف بالنسبة إلى أعضاء البدن، و اليدان اشرف باعتبار الأعمال، و البدن سابق على عمله، و الرأس اشرف من الرجلين لاشتماله على

مناهج المفسرين، ص: ۱۹۹

القوى الدراكة و هى القوى المدركة و الحافظة و الحافظة، و ذلك من عالم الغيب لا من عالم الشهادة .. فلا جرم تأخر عن الوجه و اليدين إذ قواهما تظهر- فى عالم المشاهدة من الابصار و الذوق و النطق ..

و من التقدم بالشرف قوله تعالى: «من النبيين و الصديقين» ..

و منه تقديم السمع على البصر، و سميع على بصير، لأن السمع يدرك أخبار الأوائل و الأواخر و احكام الآخرة .. و أيضا يدرك ما غاب و حضر، و البصر إنما يتعلق بالحاضر فكان ادراك السمع أعم، و الأعم ابدا قبل الأخص بالرتبة .. و قد جعل تقديم الجن على الانس من التقديم بالشرف لاشتمال الجن على الملائكة، و قال سبحانه: «و جعلوا بينه و بين الجنة نسبا».

و قال الأعشى:

و سخر من جن الملائك سبعة قياما لديه يعملون بلا أجر و نحوه قوله تعالى:

لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَ لا جَانٌّ.

(سورة الرحمن الآية ۷۴).

و قوله: فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَ لا جَانٌّ ..

(سورة الرحمن الآية ۳۹) و قوله تعالى:

وَ أَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً.

(سورة الجن الآية ۵) الجن فى ذلك كله لا يتناول الملائكة لنزاهتهم عن العيوب، و لا يتوهم عليهم الكذب و سائر الذنوب، فلما لم يتناول الملائكة عموم لفظ الجن بدأ بالاتى لفضلهم ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۰

الإمام ابن تيمية و منهجه فى التفسير

اشارة

هو الإمام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، المولود بحران من بلاد الشام فى عاشر ربيع الأول سنة ۶۶۱، و قد أقام بها بضع سنين ثم انتقل منها إلى دمشق مع أبيه و أخويه سنة ۶۶۷ تحت ضغط هجوم التتار.

نشأ فى دمشق، و ترعرع بها، ثم بلغ أشده حتى أصبح من المشهورين، و نهل من شتى أنواع العلوم و المعارف الدينية فى عصره، و وصف ابن الوردى نشأته العلمية فقال:

انه بعد أن تعلم الخط و الحساب، و حفظ القرآن فى المكتب، أقبل على الفقه و العربية، و برع فى النحو، ثم أقبل على التفسير اقبالا كليا حتى سبق فيه، و أحكم أصول الفقه.

ثم يقول ابن الوردى:

و نشأ فى تصون تام، و عفاف و تعبد، و اقتصاد فى الملبس و المأكل، و مارس المناظرة فى صغره، و كانت له دراية واسعة بالسنة و فنونها مما ساعده على الاستدلال على آرائه و معارضة آراء الخصوم.

و بالجملة جمع إلى المنقول المعقول فكان من كبار العلماء.

تحدث المؤرخ كمال الدين بن الزملكانى عنه فقال:

كان إذا سئل عن فن من الفنون ظن الرائى و السامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، و حكم أن أحدا لا يعرف مثله، و كان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا فى سائر مذاهبهم منه ما لم يكونوا يعرفونه من قبل.

و لقد كثر الثناء عليه قديما و حديثا كما كثر فى حقه الانتقاد، فاغرم به

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۱

معجبون لا يصدرون إلا عن رأيه و يتعصبون لكل ما يصدر عنه، و وقف فى وجهه اعداء فى حياته و بعد موته، كرهوه و كرهوا كل ما يصدر عنه، و توسط منصفون فأعطوه حقه، و قرءوه فى انصاف فريفوا مازاف، و اثبتوا ما يمكث فى الأرض، فكانوا مع الحق، عنه يصدرون، و على ضوئه يسيرون.

جهاده السياسى

:- و لقد سخر ابن تيمية نفسه و علمه لخدمة المعركة الكبرى للمسلمين ضد عدوهم الخطير «التتار» لقد تقدم بنفسه لمفاوضة ملك التتار، و استطاع ان يأخذ منه الامان، و هجم التتار مرة ثانية على الشام ففزع الناس، فكان ممن ثبت النفوس و ساعد على رياضة القلوب بمواعظه المؤثرة، و كلماته الحكيمة، و لقد شهد معركة مع التتار فى رمضان تحقق فيها النصر للمسلمين.

نقد ابن تيمية

:- لقد انتقد بعض العلماء ابن تيمية لجرأته لرأيه و مهاجمة رأى خصمه، و لقد كان فى تحمسه فى هذه المهاجمة يبتعد عن الحق احيانا غير متأن، أو مترو، و لو تأنى، أو تروى لتبين له الأمر على حقيقته. و يؤخذ عليه أنه يتعصب لفكرته فى الصفات، و الاستواء على العرش، و هى ليست على منهج السلف الذين يبتعدون عن الجدل فى صفات اللّه، مقتنعين بحق أنها من- المتشابه الذى نهينا عن البحث فيه، و هذا الجدل فى الصفات قد آثار عليه الكثير من كبار علماء الإسلام من المحدثين الذين يتبعون مذهب السلف، و من المتكلمين الذين يتبعون مذهب الخلف.

و يؤخذ عليه اسهابه المسهب فى توضيح رأيه و اكثاره من الاستدلال و التكرار فيما يستدل عليه و انطلاقه مع فكرته فى اسلوب عنيف جارف يستميل العامة، و لا يستسيغه كثير من الخاصة.

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۲

و مما أخذه عليه كثير من الناس حملته على الصوفية، هذه الحملة التى يمدحها كثير من أصحابه و الحق أن هؤلاء و أولئك لم يدرسوا ابن تيمية فى هذا الجانب دراسة عميقة، و ذلك أن ابن تيمية يقدس الإمام عبد القادر الجيلانى، و يشرح كثيرا من فقراته مثنيا و مادحا ..

و الإمام الجيلانى هو التصوف كله، فلا يكاد يخرج رأى فى التصوف إلا و له فيه باع طويل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فى فتاواه ج ۱۱، ص ۱۷ فى تحديد معنى الصوفى: «هو فى الحقيقة نوع من الصديقين، فهو الصديق الذى اختص بالزهد و العبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه، و الصوفيون قد يكونون من أجل الصديقين بحسب زمانهم فهم من أكمل صديقى زمانهم، و الصديق فى العصر الأول أكمل منهم، و الصديقون درجات و أنواع».

و يقول ابن تيمية أيضا: «و لأجل ما وقع من كثير منهم من الاجتهاد و التنازع فيه تنازع الناس فى طريقهم فطائفة ذمت الصوفية، و التصوف و قالوا أنهم مبتدعون خارجون على السنة و طائفة غالت فيهم و ادعوا أنهم أفضل الخلق و أكملهم بعد الأنبياء و كلا طرفى هذه الأمور ذميم و الصواب أنهم مجتهدون فى طاعة اللّه كما اجتهد غيرهم من أهل الطاعة ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده و فيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين و فى كل من النوعين من قد يجتهد فيخطئ و فيهم من يذنب فيتوب أولا يتوب.

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۳

(تفسير ابن تيمية)

كان لابن تيمية فهم ممتاز فى كتاب اللّه، و لم يؤلف تفسيرا خاصا، بل تناثر تفسيره فى ثنايا كتبه و فتاواه و رسائله، و كتب ما كتبه منه فى أوقات مختلفة بحسب المناسبات و قد قام جامع فتاواه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الجنيدى الحنبلى، يجمع ما كتبه فى مجال التفسير فى المجلد الثالث عشر و الرابع عشر و الخامس عشر، من مجموع فتاوى ابن تيمية فلم تخل سورة من تناول ابن تيمية لآية أو آيات منها مما يسهل لنا فهم منهجه فى التفسير و البحث عن مطابقة هذا المنهج لما قام بتفسيره.

منهجه فى التفسير

:- قسم ابن تيمية التفسير إلى نوعين:- تفسير بالنقل، و تفسير بالعقل.

أما عن التفسير بالنقل فذكر أن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فسر القرآن كله للصحابة.

قال تعالى:

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ.

(سورة النحل الآية ۴۴) و ذكر أن الصحابة فسروا القرآن للتابعين، و تحدث عن قلة الاختلاف بين الصحابة فى التفسير، ثم شاع الخلاف بعد عصرهم شيئا فشيئا حتى وصل إلى حالة من التضاد و التناقض.

و يرى ابن تيمية أن الخلاف بين السلف فى التفسير هو اختلاف تنوع

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۴

لا اختلاف تضاد كاختلافهم فى تفسير الصراط المستقيم حيث قال بعضهم هو القرآن.

و قال بعضهم: هو الإسلام، و القولان متفقان، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن و لكن كل واحد منهما نبه على وصف غير الوصف الآخر، و كذلك قول من قال هو السنة و الجماعة و قول من قال: هو طريق العبودية، و قول من قال هو طاعة اللّه و رسوله صلّى اللّه عليه و سلم و امثال ذلك فهؤلاء كلهم اشاروا إلى ذات واحدة، يقصد اتباع القرآن، لكن وصفها كل منهم بصفة من صفاتها.

و يرى ابن تيمية أن أحدا من علماء المسلمين لم يقل باختصاص اللفظ العام الوارد بسبب حادث معين بهذا الحادث، و ان الاختلاف إنما هو فى اختصاص هذا اللفظ بنوع ذلك السبب و ما يشابهه أو شموله لكل ما يتناوله اللفظ.

فمثلا روى أن قوله تعالى:

وَ أَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ.

(سورة المائدة الآية ۴۹) نزل فى بنى قريظة و النضير، و اللفظ عام ليس فيه اختصاص: فهل يشمل هذا القول ما يماثل سبب النزول فقط، أو يعم كل حكم، و كل حاكم على مدى الزمان.

و لم يقل أحد بتعطيل الآية، أو الوقف عن الأخذ بها بعد زوال سببها و هم بنو قريظة و بنوا النضير، أو بعد زوال الوقت الذى نزلت فيه.

و قد تحدث ابن تيمية عن استطراد كثير من المفسرين بالنقل، فيما يفيد و لا دليل على الصحيح منه مثل اختلافهم فى لون كلب اصحاب الكهف و مقدار سفينة نوح و نوع خشبها و نحو ذلك- و يبين ان ما كان من هذا القبيل طريقه النقل الصحيح عن الرسول صلّى اللّه عليه و سلم فهو مقبول كالعلم بأن اسم صاحب

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۵

موسى الخضر و ان كان عن غير طريق صحيح إلى الرسول صلّى اللّه عليه و سلم رددنا ما قطعنا بكذبه و توقفنا فيما صح عن أهل الكتاب لقوله صلّى اللّه عليه و سلم:

لا تصدقوا اهل الكتاب و لا تكذبوهم، و قولوا آمنا بما انزل الينا و ما انزل اليكم و الهنا و إلهكم واحد و نحن له مسلمون.

ثم يتحدث ابن تيمية عن القسم الثانى من التفسير و هو التفسير بالعقل فيقول: ان فى هذا اللون من التفسير خطأ و هذا الخطأ له وجهان:- الأول:- قوم اعتقدوا معانى ثم ارادوا حمل الفاظ القرآن عليها فراعوا المعنى الذى رأوه و اعتقدوه من غير نظر إلى ما تستحقه الفاظ القرآن من الدلالة و البيان، يريد انهم يحللوا من كل ما ورد مما يتصل بالآية كسبب النزول و الناسخ و المنسوخ و البيان النبوى لكثير من الآيات.

الثانى:- قوم فسروا القرآن بمجرد ما يفيده اللفظ العربى من غير نظر إلى منزل القرآن و المنزل عليه و المخاطب به فراعوا جانب اللفظ و تركوا ما عداه و كل من الطريقتين الأخريين فيما يرى ابن تيمية خطأ و أحسن طرق التفسير فى نظره تفسير القرآن بالقرآن فإن لم يتيسر ذلك فسرناه بالسنة فإنها شارحة للقرآن و موضحة له، قال الشافعى رحمه اللّه: كل ما حكم به الرسول صلّى اللّه عليه و سلم فهو بما فهمه من القرآن- و لهذا قال صلّى اللّه عليه و سلم.

«الا انى اوتيت القرآن و مثله معه» أى السنة و السنة ايضا تنزيل عليه بالوحى كما ينزل القرآن لا انها لا تتلى كما يتلى.

و إذا لم يتيسر التفسير بالقرآن و السنة رجعنا إلى اقوال الصحابة لا سيما كبراؤهم و علماؤهم كالخلفاء الراشدين و ابن مسعود و ابن

عباس و غيرهم.

فهم الـدين شاهـدوا التنزيل و عاصـروا اسـباب النزول و عرفوا الناسـخ من المنسوخ و تلمسوا الجوانب المحيطة بالقرآن و المعانى التى اشار إليها الرسول صلّى اللّه عليه و سلم و هم انضر الناس فهما و اقدرهم على الاجتهاد و الاستنباط.

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۶

فإن لم نجد التفسير فى اقوال الصحابة آخر ففيما اجمع عليه التابعون ثم تخيرنا فيما روى عنهم ثم لجأنا إلى الاجتهاد بالرأى فى حدود المنهج المقبول.

و هذا المنهج الذى رسمه ابن تيمية للتفسير منهج سلفى لا مجال للطعن فيه.

و لكن ابن تيمية فى تفسيره قد ابتعد فى بعض الأحيان عن هذا المنهج و إليك نموذجا من تفسيره:

سئل رضى اللّه عنه عن قوله تعالى:

ثُمَّ قَضى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ.

(سورة الانعام الآية ۲) و قوله تعالى:

وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتابٍ.

و قوله تعالى: يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ.

(سورة الرعد الآية ۳۹) هـل المحو الاثبـات فى اللوح المحفوظ و الكتاب الـذى جاء فى الصـحيح (ان اللّه تعالى كتب كتابا فهو عنـده على عرشه) الحديث.

و قد جاء: «جف القلم» فما معنى ذلك فى المحو و الاثبات؟

و هل شرع فى الدعاء ان يقول: «اللّهم ان كنت كتبتنى كذا فامحنى و اكتبنى كذا فإنك قلت: «يمحو اللّه ما يشاء و يثبت».

و هل صح ان عمر كان يدعو بمثل هذا؟ و هل الصحيح عندكم ان العمر يزيد بصلة الرحم كما جاء فى الحديث؟ افتونا ماجورين.

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۷

فأجاب رضى اللّه عنه: الحمد اللّه رب العالمين.

أما قوله سـبحانه: ثُمَّ قَضـى أَجَلًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ فالاجل الأول هو أجل كل عبد الذى ينقضى به عمره، و الأجل المسمى عنده هو اجل القيامة العامة.

و لهذا قال: «مسمى عنده» فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب و لا نبى مرسل، كما قال: يسألونك عن الساعة ايان مرساها؟ قل: انما علمها عند ربى، لا يجليها لوقتها إلا هو بخلاف ما إذا قال مسمى.

كقوله: «إذا تداينتم بدين إلى أجل مسـمى» إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده، فقد يعرفه العباد و أما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد و أجله و عمله، و شـقى او سـعيد كما قال فى الصـحيحين عن ابن مسـعود: أحدكم يجمع خلقه فى بطن امه اربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضـغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات فيقال، اكتب رزقه، و أجله و عمله، و شقى أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح فهذا الأجل الذى هو أجل الموت قد يعلمه اللّه لمن شاء من عباده.

و أما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو.

و أمـا قوله: وَ ما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ فقـد قيل ان المراد الجنس أى ما يعمر من عمر انسان، و لا ينقص من عمر انسان، ثم التعمير و التقصير يراد به شيئان:

«أحدهما» أن هذا يطول عمره، و هذا يقصـر عمره، فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره، كما ان المعمر يطول عمره، و هذا ينقص عمره، فيكون تقصيره نقصا له بالنسبة إلى غيره. كما ان التعمير زيادة بالنسبة إلى آخر.

و قد يراد بالنقص من العمر المكتوب، كما يراد بالزيادة الزيادة فى العمر المكتوب. و عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم انه قال: «من سره ان يبسط له فى رزقه،

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۸

و ينسأ له فى اثره فليصل رحمه» و قد قال بعض الناس: ان المراد به البركة فى العمر، بأن يعمل فى الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا فى الكثير، قالوا: لأن الرزق: و الأجل مقدران مكتوبان.

فيقال لهؤلاء تلك البركة. و هى الزيادة فى العمل، و النفع هى أيضا مقدرة مكتوبة و تتناول لجميع الأشياء.

و الجواب المحقق: ان اللّه يكتب للعبد اجلا- فى صحف الملائكة فإذا أوصل زاد فى ذلك المكتوب و ان عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك الكتاب.

و نظير هذا ما فى الترمذى و غيره عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم:

ان آدم لما طلب من اللّه ان يريه صورة الأنبياء من ذريته فأراه اياهم، فرأى فيهم رجلا- له بصيص، فقال: من ذا يا رب؟ فقال: ابنك داود.

قال: فكم عمره؟ قال اربعون سنة. قال: و كم عمرى؟ قال: ألف سنة. قال: فقد وهبت له من عمرى ستين سنة. فكتب عليه كتاب، و شهدت عليه الملائكة، فلما حضرته الوفاة قال: قد بقى من عمرى ستون سنة. قالوا: وهبتها لابنك داود. فأنكر ذلك: فأخرجوا الكتاب، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم فنسى آدم فنسيت ذريته: جحد آدم فجحدت ذريته، و روى انه كمل لآدم عمره و لداود عمره.

فهذا داود كان عمره المكتوب اربعين سنة، ثم جعله ستين، و هذا معنى ما روى عن عمر انه قال: اللهم ان كنت كتبتنى شقيا فامحنى و اكتبنى سعيدا فإنك تمحو ما تشاء و تثبت. و اللّه سبحانه عالم بما كان و ما يكون، و ما لم يكن لو كان كيف كان يكون فهو يعلم ما كتبه له و ما يزيده اياه بعد ذلك و الملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم اللّه و اللّه يعلم الأشياء قبل كونها و بعد كونها.

فلهذا قال العلماء: ان المحو و الاثبات فى صحف الملائكة، و أما علم اللّه سبحانه فلا يختلف و لا يبدله ما لم يكن عالما به، فلا محو فيه و لا اثبات.

و أما اللوح المحفوظ فهو فيه محو و اثبات على قولين. و اللّه سبحانه و تعالى أعلم.

مناهج المفسرين، ص: ۲۰۹

ابن جزى و كتابه التسهيل

اشارة

أبو القاسم محمد بن أحمد بن محمد بن عبد اللّه بن جزى الكلبى الغرناطى من مشاهير العلماء بغرناطة، و ذوى الأصالة و النباهة فيها.

كان رحمه اللّه على طريقة مثلى من العكوف على العلم، و الاشتغال بالنظر و التقيد و التدوين، جمع إلى الفقه جودة الحفظ و اتقان التفسير، و شارك فى كثير من الفنون كالعربية و الأصول و القراءات بالحديث و الأدب، و جمع فى مكتبة العديد من الكتب المفيدة و المراجع المهمة، و تولى الخطابة بالمسجد الأعظم فى بلده على حداثة سنه، فاتفق على فضله و اشتهر جده و علمه ..

و كان رحمه اللّه مستغرقا فى همه، و همه بلوغ القمة فى علوم الشريعة، و تحصيل ما يستطيع تحصيله، و بث ذلك فى الناس و نشره، و مما يعبر عن ذلك قوله:

لكل بنى الدنيا مراد و مقصدو ان مرادى صحة و فراغ

لأبلغ فى علم الشريعة مبلغايكون به لى فى الحياة بلاغ

ففی مثل هذا یستزید اولوا النهیو حسبی من الدنیا الغرور بلاغ

فما العیش إلاـ فی نعیم مؤبدبه العیش رغد و الشراب یساغ قرأ علی الأستاذ أبی جعفر بن الزبیر و استفاد منه فی العربیهٔ و الفقه و الحدیث و القراءات و علی ابی عبد اللّه بن العماد، و لزم الحافظ بن رشید، و لازم الخطیب الفاضل أبا عبد اللّه بن برطال و الاستاذ النظار المتفنن أبا القاسم قاسم بن عبد اللّه ..

و قد انتج ابن جزی فی مجال نشاطه کثیرا من المؤلفات منها:

الأنوار السنیهٔ فی الکلمات السنیهٔ.

مناهج المفسرین، ص: ۲۱۰

الدعوات و الأذکار المخرجهٔ من صحیح الأخبار.

التنبیه علی مذهب الشافعیهٔ و الحنفیهٔ و الحنابلهٔ.

تقریب الوصول إلی علم الأصول.

أصول القراء الستهٔ غیر نافع.

المختصر البارع فی قراءهٔ نافع.

القوانین الفقهیهٔ فی تلخیص مذهب المالکیهٔ.

الفوائد العامهٔ فی لحن العامهٔ.

النور المبین فی قواعد عقائد الدین.

و من معالم شخصیته المیزهٔ حبه للرسول صلّی اللّه علیه و سلم، و یعبر عن ذلک قوله:

أریم امتداح المصطفی فیردنیقصوری عن ادراک تلک المناقب

و لو ان کل العالمین تألفواعلی مدحه لم یبلغوا بعض واجب

فأمسکت عنه هیبهٔ و تأدباو خوفا و إعظاما لا رفع جانب

و رب سکوت کان فیه بلاغهٔو رب کلام فیه عتب لعاتب و کان رحمه اللّه من المجاهدین المحاربین، فکان یحرض الناس یوم معرکهٔ طریف، و مات شهیدا فی جمادی الأولی سنهٔ احدی و أربعین و سبعمائهٔ.

تفسیره

قدم ابن جزی للتفسیر بمقدمهٔ جلیلهٔ فقال بعد الحمد و الثناء:

أما بعد، فإن علم القرآن العظیم هو ارفع العلوم قدرا، و اجلها خطرا، و أعظمها اجرا و اشرفها ذکرا، و ان اللّه انعم علی بأن شغلنی بخدمهٔ القرآن و تعلمه و تعلیمه، و شغفنی بتفهم معانیه، و تحصیل علومه، فاطلعت علی

مناهج المفسرین، ص: ۲۱۱

ما صنف العلماء رضی اللّه عنهم فی تفسیر القرآن من التصانیف المختلفهٔ الأوصاف، المتباینهٔ الاصناف، فمنهم من اثر الاختصار و منهم من طول حتی کثر الاسفار، و منهم من تکلم فی بعض العلم دون بعض، و منهم من اعتمد علی نقل أقوال الناس، و منهم من عمل علی النظر و التحقیق و التدقیق، و کل أحد سلک طریقا نحاه، و ذهب مذهبا ارتضاه، وَ کُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنی (سورهٔ الحدید الآیهٔ ۱۰)، فرغبت فی سلوک طریقهم و الانخراط فی مساق فریقهم، و صنفت هذا الکتاب فی تفسیر القرآن العظیم،- و سائر ما یتعلق به من العلوم و سلکت مسلکا نافعا، إذ جعلته وجیزا جامعا، قصدت به اربعهٔ مقاصد تتضمن اربع فوائد:

الفائدهٔ الأولی: جمع کثیر من العلم فی کتاب صغیر الحجم، تسهیلا علی الطالبین و تقریبا علی الراغبین، فلقد احتوی هذا الکتاب علی

ما تضمنته الدواوين الطويلة من العلم و لكن بعد تلخيصها، و تنقيح فصولها، و حذف حشوها و فضولها، و لقد اودعته من فن من فنون علم القرآن اللباب المرغوب فيه، دون القشر المرغوب عنه، من غير افراط و لا- تفريط ثم انى عزمت على ايجاز العبارة، و افراط الاختصار، و ترك التطويل و التكرار ..

الفائدة الثانية:- ذكر نكت عجيبة، و فوائد غريبة، قلما توجد فى كتاب، لأنها من نبات صدرى و ينابيع ذكرى، و مما أخذته عن شيوخى رضى اللّه عنهم، أو مما التقطته من مستطرفات النوادر الواقعة فى غرائب الدفاتر ..

الفائدة الثالثة:- ايضاح المشكلات، اما بحل العقد المقفلات، و اما بحسن العبارة و رفع الاحتمالات، و بيان المجملات.

الفائدة الرابعة: تحقيق أقوال المفسرين، السقيم منها و الصحيح، و تمييز الراجح من المرجوح و ذلك ان أقوال الناس على مراتب: فمنها الصحيح الذى يعول عليه، و منها الباطل الذى لا يلتفت إليه، و منها ما يحتمل الصحة

مناهج المفسرين، ص: ۲۱۲

و الفساد، ثم ان هذا الاحتمال قد يكون مساويا أو متفاوتا و التفاوت قد يكون قليلا- أو كثيرا، و انى جعلت لهذه الأقسام عبارات مختلفة،- تعريفها كل مرتبة و كل قول، فادناها ما صرح بأنه خطأ أو باطل، ثم ما أقول فيه أنه ضعيف أو بعيد، ثم أقول أن غيره ارجح أو اقوى، أو اظهر أو اشهر، ثم ما أقدم غيره عليه اشعارا بترجيح المتقدم او بالقول فيه: قيل كذا قصدا للخروج من عهدته، و اما صرحت باسم قائل القول فانى افعل ذلك لاحد امرين:

اما للخروج عن عهدته، و اما لنصرته إذا كان قائله ممن يقتدى به.

ثم قال: و سميته «كتاب التسهيل لعلم التنزيل» و قدمت فى أوله مقدمتين: إحداهما: فى أبواب نافعة، و قواعد كلية جامعة، و الأخرى فيما كثر دوره من اللغات الواقعة ثم قدم لكتابيه مقدمات:

المقدمة الأولى: فيها اثنا عشر بابا.

الباب الأول: فى نزول القرآن على رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من أول ما بعثه اللّه بمكة و هو ابن اربعين سنة إلى ان هاجر إلى المدينة ثم نزل عليه بالمدينة إلى ان توفاه اللّه.

الباب الثانى:- فى السور المكية و المدنية.

الباب الثالث:- فى المعانى و العلوم التى تضمنها القرآن.

الباب الرابع:- فى فنون العلم التى تتعلق بالقرآن.

الباب الخامس:- فى أسباب الخلاف بين المفسرين، و الوجوه التى يرجح بها بين أقوالهم.

الباب السادس:- فى ذكر المفسرين.

الباب السابع:- فى الناسخ و المنسوخ.

الباب الثامن:- فى جوامع القراءة.

مناهج المفسرين، ص: ۲۱۳

الباب التاسع:- فى الوقف.

الباب العاشر:- فى الفصاحة و البلاغة و ادوات البيان.

الباب الحادى عشر:- فى اعجاز القرآن و اقامة الدليل على انه من عند اللّه عز و جل.

الباب الثانى عشر:- فى فضل القرآن.

المقدمة الثانية:- فى تفسير معانى اللغات أى الكلمات التى يكثر ورودها فى القرآن أو تقع فى موضعين فأكثر من الأسماء و الأفعال و الحروف.

و کان فی کل ذلک سالکا سبیل الاختصار، مکتفیا بالترکیز عن الاطالة، ممهدا الطریق لبدء تفسیر الآیات، فاشتملت المقدمة علی کثیر مما حال الاختصار دون ذکره فی تفسیر الآیات، و حقق بها ما یمکن ان یضم إلی الکتب المؤلفة فی کل فن من الفنون التی اشتملت علیها.

و من نماذجه: قال تعالی:

یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا یَحِلُّ لَکُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ کَرْهاً وَ لا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ ما آتَیْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ یَأْتِینَ بِفاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ وَ عاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ کَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسی أَنْ تَکْرَهُوا شَیْئاً وَ یَجْعَلَ اللَّهُ فِیهِ خَیْراً کَثِیراً (سورة النساء الآیة ۱۹) لا- یَحِلُّ لَکُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّساءَ قال ابن عباس:

کانوا فی الجاهلیة إذا مات الرجل کان اولو الحق بامرأته ان شاءوا تزوجها أحدهم و ان شاءوا زوجوها من غیرهم، و ان شاءوا منعوها التزوج، فنزلت الآیة فی ذلک، فمعنی الآیة علی هذا: لا یحل لکم ان تجعلوا النساء یورثن عن الرجال کما یورث المال.

مناهج المفسرین، ص: ۲۱۴

و قیل: الخطاب للازواج الذین یمسکون المرأة فی العصمة لیرثوا مالها من غیر غبطة بها.

و قیل الخطاب للاولاد الذین یمنعون امهاتهم من التزوج لیرثوهن دون الزوج.

و لا- تعضلوهن: معطوف علی ان ترثوا أو نهی، و العضل المنع، قال ابن عباس: هی أیضا فی أولیاء الزوج الذین یمنعون زوجته من التزوج بعد موته، إلا أن قوله «ما آتیتموهنّ» علی هذا معناه ما اتاها الرجل الذی مات.

و قال ابن عباس: هی فی الأزواج الذین یمسکون المرأة و یسیئون عشرتها حتی تفتدی صداقها و هو ظاهر اللفظ فی قوله «ما آتیتموهن» و بقوله «و عاشروهنّ بالمعروف» فإن الاظهر فیه ان یکون فی الأزواج، و قد یکون فی غیرهم .. و قیل للأولیاء ..

إِلَّا أَنْ یَأْتِینَ بِفاحِشَةٍ مُبَیِّنَةٍ: قیل الفاحشة هنا الزنا، و قیل نشوز المرأة و بغضها فی زوجها، فإذا نشزت جاز له ان یأخذ ما آتاها من صداق أو غیر ذلک من مالها، و هذا جائز علی مذهب مالک فی الخلع إذا کان الضرر من المرأة، و الزنا أصعب علی الزوج من النشوز فیجوز له أخذ الفدیة ..

فَإِنْ کَرِهْتُمُوهُنَ الآیة ... معناها ان کرهتم النساء لوجه فاصبروا فعسی ان یجعل اللّه الخیر فی وجه آخر ..

و هذا معنی قوله صلّی اللّه علیه و سلم: لا یترک مؤمن مؤمنة، ان سخط منها خلقا رضی آخر ..

***

مناهج المفسرین، ص: ۲۱۵

الإمام النسفی و تفسیره

اشارة

من علماء المذهب الحنفی المشهورین، و ممن لهم قدم راسخ فی کثیر من العلوم، المفسر الشهیر، و العالم النحریر، حافظ الدین أبو البرکات عبد اللّه بن أحمد بن محمود النسفی المنسوب إلی نسف ببلاد السند بین جیحون و سمرقند.

کان عالما بالفقه و أصول الدین و أصول الفقه و التفسیر و امتازت مؤلفاته بجودة التحری و دقة التعبیر و شدة الترکیز و حشد المعلومات المتنوعة فی حیز بسیط حتی لیعسر علی غیر المتخصص الأخذ عنها، و فهم کل ما یشیر إلیه.

و قد استفاد من شتی طرق البحث السابق علیه فخرج بین استدلالات المتکلمین و جدل الأصولیین و استنباط الفقهاء متمیزا بطریقته الخاصة فی التألیف. کما استفاد من شیوخه المشاهیر و منهم شمس الأئمة الکردی، و أحمد ابن محمد العتابی و غیرهم من کبار

العلماء المتخصصين.

مؤلفاته

: للإمام النسفى مؤلفات طبع أكثرها، و أخذ مجاله فى سوق العلم حتى اشتهر كمفسر، و أشتهر كفقيه، و أشتهر كباحث فى أصول الدين و باحث فى أصول الفقه ... و من هذه المؤلفات:

١- عمدة العقائد فى الكلام.

٢- شرح عمدة العقائد و سماه الاعتماد.

٣- منار الأنوار فى أصول الفقه.

۴- الكافى فى شرح الوافى فى الفقه الحنفى.

۵- كنز الدقائق فى الفقه الحنفى.

مناهج المفسرين، ص: ٢١۶

صفاته

: كان الإمام النسفى على نسق غيره من كبار العلماء المسلمين مشهورا بالزهد و الصلاح و التقوى، فضلا عن تفرغه للعلم و الدراسة و البحوث و قد اشتهر علمه و ذاع فضله فى عصره و بعد عصره و بارك اللّه فى مؤلفاته، فأصبحت مرجع الباحثين، و مجال البحث و الدراسة بين الدراسين، لما فيها من تدقيق و تحقيق، و اكتفاء بالاشارة عن التفصيل، و بالإيجاز عن الاطناب.

و قد قدره العلماء حق قدره، فقد كتب عنه صاحب (الدرر الكامنة) فوصفه بهذه الكلمة المدوية (علامة الدنيا).

و كتب عنه الحافظ عبد القادر فى طبقاته فقال:

«أحد الزهاد المتأخرين، صاحب التصانيف المفيدة فى الفقه و الأصول، له المستصفى فى شرح المنظومة، و له شرح النافع سماه بالمنافع، و له الكافى فى شرح الوافى، و له كنز الدقائق، و له المنار فى أصول الفقه، و له العمدة فى أصول الدين، تفقه على شمس الأئمة الكردى، و روى الزيادات عن أحمد بن محمد العتابى» ..

و النسفى باعتباره من أئمة أهل السنة كان له مواقف فى غاية القوة، و فى غاية العمق، فى الرد على كل انحراف فى تفسير القرآن، و خصوصا تفسير الكشاف ..، .. و لم يقتصر فى الرد على المعتزلة على ما كتبه عن تفسير الكشاف، و إنما فعل ذلك فى كل كتبه الكلامية التى كانت لقيمتها الكبرى مجال اهتمام فى رحاب الأزهر، قررت على الطلبة فى مختلف مراحل التعليم، و قام الأساتذة باختصارها، و بشرحها، و بالتعليق عليها مستفيدين منها، و مفيدين للغير بها- و اللّه سبحانه و تعالى يقول:

وَ نَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَ آثارَهُمْ. سورة يس الآية ١٢ و ان آثار الإمام النسفى فى الخير هائلة.

مناهج المفسرين، ص: ٢١٧

وفاته

: و كانت وفاة الإمام النسفى رحمه اللّه عام واحد و سبعمائة من الهجرة ببلدة ايذج بين خوزستان و اصبهان.

رحمه اللّه و نفع بعلمه ..

تفسير النسفى

سماه الإمام النسفى (مدارك التنزيل و حقائق التأويل) و يعتبر هذا التفسير من التفاسير العلمية المحررة، ليس بالطويل الممل، و لا بالقصير المخل.

و قد تحدث الإمام النسفى عن السبب الذى دعاه إلى تأليف هذا التفسير فقال:

(سألنى من تتعين أجابته كتابا وسطا فى التأويلات، جامعا لوجوه الاعراب و القراءات، متضمنا لدقائق علمى البديع و الاشارات، حاليا بأقاويل أهل السنة و الجماعة، خاليا عن أباطيل أهل البدع و الضلالة، ليس بالطويل الممل، و لا بالقصير المخل .. ثم ذكر أنه تردد فى الاجابة .. و لكنه قطع هذا التردد، و سار فى تأليفه بجد، حتى أتمه فى مدة يسيرة.

و الناظر فى هذا التفسير يجد فيه فهما واعيا، و خبرة دقيقة، و اطلاعا واسعا، و حسن استفادة من هذا الاطلاع ..

و قد استفاد من تفسيرى البيضاوى و الكشاف أيما استفادة، فأخذ من البيضاوى معناه الدقيق، و فهمه الواعى، و توجيهه السديد، و إيجازه المركز .. و أخذ من الزمخشرى فى كشافه خبرته الواسعة باللغة، و مناقشته للآراء المتعددة، و اختيار ما يراه .. على أنه لم يقع فيما وقع فيه الزمخشرى فى كشافه من التعصب لمذهب الاعتزال، و حمل الآيات فى تعسف على تأييد أصوله و قواعده.

مناهج المفسرين، ص: ۲۱۸

إنه على العكس من ذلك اتخذ موقفا مضادا، فحارب ما يخالف المذهب الأشعرى مستفيدا من طريقة الزمخشرى، رادا عليه، منتقدا طريقته و حججه.

و يمتاز تفسير النسفى باقلاله من الاسرائيليات، و ابتعاده ما استطاع عنها.

كما يمتاز بتحريه فى اختيار أكثر الأحاديث، و يظهر ذلك أبلغ ما يظهر فى تركه ذكر الاحاديث الموضوعة فى فضائل السور ..

كما أنه لم يتوسع فى الإعراب، و لم يدخل فى تفصيلات فرعية، تشتت الذهن، و تبتعد بالقارئ عن الجو القرآنى.

و لم يخل تفسيره من الإشارة إلى المذاهب الفقهية فى بعض آيات الأحكام، و الانتصار لمذهبه الحنفى.

تفسير قوله تعالى:

إِذْ قالَ الْحَوارِيُّونَ يا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنا مائِدَةً مِنَ السَّماءِ قالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ.

(سورة المائدة الآية ۱۱۲) عن الحسن: أن المائدة لم تنزل، و لو نزلت لكانت عيدا إلى يوم القيامة، لقوله: و آخرنا .. و الصحيح أنها نزلت:

فعن وهب: نزلت مائدة منكوسة تطير بها الملائكة، عليها كل طعام إلا اللحم ..

و قيل: كانوا يجدون عليها ما شاءوا.

و قيل: كانت تنزل حيث كانوا بكرة و عشيا.

مناهج المفسرين، ص: ۲۱۹

ما يؤخذ على تفسيره

: و لا يسلم تفسير النسفى على وجه العموم من النقد:

لقد اكتفى بإشارات فى غاية الايجاز إلى الآراء المختلفة فيما يتعلق بالآيات التى استدلت بها الفرق، و كأنه يفترض شهرة هذه الآراء، و معرفة الكل بها، و دوام هذه المعرفة، و يتمثل لنا ذلك فى تفسير قوله تعالى:

أَ لا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَ هُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (سورة الملك الآية ۱۴) إنه يقول: أنكر أن لا يحيط علما بالمضمر و المسر و المجهر من خلقها، و صفته أنه اللطيف أى العالم بدقائق الأشياء، الخبير العالم بحقائق الأشياء، و فيه إثبات خلق الأقوال فيكون دليلا على خلقه أفعال العباد، و قال أبو بكر بن الأمم و جعفر بن حرب من مفعول و الفاعل مضمر و هو اللّه تعالى، فاحتالا بهذا لنفى خلق الأفعال ..

و لم يسلم من الإسرائيليات رغم احتياطه و تحفظه، فتراه عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النمل:

وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ.

(سورة النمل الآية ۱۶) روى أنه صاحب فاختة (طائر معروف) فأخبر أنها تقول: ليت ذا الخلق لم يخلقوا، و صاح طاوس فقال: يقول: كما تدين تدان، ثم ذكر أصنافا من الطير، و قول كل صنف من هذه الأصناف، دون أن يعقب على ذلك، بل دون أن يحترز من ذكر مثل هذه الأقوال التى لا سند لها من الأحاديث الصحيحة.

مناهج المفسرين، ص: ۲۲۰

و نأخذ عليه: أن أسلوبه يعلو على مستوى العامة، حيث حشد مفسره فيه ألوانا من العلوم المتعلقة بالقرآن لا يفهمها إلا من عنده فكرة سابقة عنها .. و فى آية المائدة التى ذكرناها سابقا يذكر آراء عن الحسن و عن وهب و عن غيرهما دون أن يوجه نظره إلى ما رواه الترمذى بسنده عن عمار بن ياسر قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

(انزلت المائدة من السماء خبزا و لحما .. الخ الحديث) ..

و الواقع أنه على الرغم من منزلة الإمام النسفى الكبرى فإن مكانته فى علم الكلام هى مناط شهرته، و مصدر ذيوع صيته، أما تفسيره على ما له من مكانة كبيرة لا- تنكر، و من منزلة سامية لا يشك فيها، فإنه- كان فيه عالة على تفسير الإمام البيضاوى، و على تفسير الإمام الزمخشرى، فى مجال معين هو مجال الجوانب البلاغية التى برع فيها جار اللّه الزمخشرى و لم يجاره فيها مجار و الإمام النسفى و إن كان عنى عناية بالغة بالرد على الإمام الزمخشرى فإنه تبنى كل ما كتبه الإمام الزمخشرى تقريبا فى البلاغة القرآنية.

و رحم اللّه الإمام النسفى رحمة واسعة جزاء زهده و نشره للعلم فقها و أصولا و كلاما و تفسيرا.

نماذج من تفسير النسفى

۱- يقول اللّه تعالى:

وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَ الْأَنْصارِ، وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ، خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (سورة التوبة لآية ۱۰۰)

مناهج المفسرين، ص: ۲۲۱

«و السّابقون» مبتدأ، (الأولون) صفة لهم (من المهاجرين) تبيين لهم و هم الذين صلوا إلى القبلتين، أو الذين شهدوا بدرا، أو بيعة- الرضوان (و الأنصار) عطف على المهاجرين، أى و من الأنصار، و هم أهل بيعة العقبة الأولى، و كانوا سبعة نفر، و أهل العقبة الثانية و كانوا سبعين (و الّذين اتبعوهم بإحسان) من المهاجرين و الأنصار، فكانوا سائر الصحابة، و قيل:

هم الذين اتبعوهم بالايمان و الطاعة إلى يوم القيامة، و الخبر (رضى اللّه عنهم) بأعمالهم الحسنة (و رضوا عنه) بما أفاض عليهم من نعمته الدينية و الدنيوية (و أعدلهم) عطف على رضى (جنّات تجرى تحتها الأنهار) من تحتها مكى (خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم).

۲- يقول اللّه تعالى:

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (سورة التوبة الآية ۱۲۸ و ۱۲۹) «لقد جاءكم رسول» محمد صلّى اللّه عليه و سلم (من أنفسكم) من جنسكم، و من نسبكم، عربى قرشى مثلكم (عزيز عليه ما عنتم) شديد عليه شاق- لكونه بعضا منكم- عنتم لقاؤكم المكروه، فهو يخاف عليكم الوقوع فى العذاب (حريص عليكم) على ايمانكم (بالمؤمنين) منكم و من غيركم (رءوف رحيم) قيل: لم يجمع اللّه اسمين من أسمائه لأحد غير رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم (فإن تولوا) فإن أعرضوا عن الأيمان بك و ناصبوك (فقل حسبى اللّه)

فاستعن باللّه و فوض إليه أمورك، فهو كافيك و ناصرك عليهم (لا اله إلا هو عليه توكلت) فوضت أمرى إليه (و هو رب العرش) هو أعظم خلق اللّه، خلق مطافا لأهل السماء، و قبلة للدعاء (العظيم) بالجر و قرئ بالرفع على نعت الرب جل و عز، عن أبى: آخر آية نزلت: لقد جاءكم رسول من أنفسكم، الآية.

مناهج المفسرين، ص: ۲۲۳

الإمام ابن كثير و تفسيره

الحمد اللّه رب العالمين، و الصلاة و السلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد و على آله و صحبه و من اتبع هديه إلى يوم الدين ..

نبدأ مع الإمام ابن كثير بالحديث عن منهجه فى تفسير القرآن الكريم لأنه منهج من المناهج المثالية التى تتبع فى التفسير.

إن أصح الطرق فى تفسير القرآن الكريم- حسما يرى ابن كثير- هى:- ۱- أن يفسر القرآن بالقرآن، و ذلك أنه كثيرا ما يكون المجمل فى مكان قد بسط فى موضع آخر.

۲- فإذا تعذر ذلك فعلى المفسر بالسنة فإنها شارحة للقرآن و موضحة له، بل لقد قال الإمام الشافعى رحمه اللّه تعالى و رضى عنه حسبما يذكر ابن كثير:

«و كل ما حكم به رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فهو ما فهمه من القرآن، قال اللّه تعالى:

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَ لا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً (سورة النساء الآية ۱۰۵) و قال تعالى:

وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (سورة النحل الآية ۶۴)

مناهج المفسرين، ص: ۲۲۴

و قال تعالى:

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (سورة النحل الآية ۴۴) و لهذا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم «الا أنى أوتيت القرآن و مثله معه» يعنى السنة.

و السنة أيضا تنزل عليه بالوحى كما ينزل القرآن، الا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن.

۳- فإذا لم نجد التفسير فى القرآن و لا فى السنة رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم ادرى بذلك لما شاهدوا من القرائن و الأحوال التى اختصوا بها، و لما لهم من الفهم التام و العلم الصحيح و العمل الصالح، لا سيما علماؤهم و كبراؤهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين و الأئمة المبتدين المبدين، و عبد اللّه بن مسعود- رضى اللّه عنهم- و الحبر البحر عبد اللّه بن عباس ابن عم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و ترجمان القرآن.

۴- و إذا لم تجد التفسير فى القرآن و لا فى السنة و لا وجدته عند الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة فى ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر فإنه كان آية فى التفسير، و كسعيد بن جبير، و عكرمة مولى ابن عباس و عطاء ابن ابى رباح و الحسن البصرى و مسروق بن الاجدع، و سعيد بن المسيب و ابى العالية و الربيع بن انس و الضحاك بن مزاحم و غيرهم من التابعين و تابعيهم و من بعدهم فتذكر أقوالهم فى الآية.

و هؤلاء فيما يرى ابن كثير يقع فى آرائهم اختلاف، و لكن ابن كثير ينظر إلى آرائهم نظرة تشبه القداسة و يقول فى ذلك حرفيا: فيقع فى عبارتهم تباين فى الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافا فيحكيها أقوالا- أى يحكيها آراء متباينة مختلفة .. و الكل بمعنى واحد فى أكثر الأماكن فيتفطن اللبيب لذلك.

مناهج المفسرين، ص: ۲۲۵

و نحن و ان كنا نشكر ابن كثير على موقفه هذا من آراء التابعين الذى يدل على نزعة طيبة نحو التقريب و تقليل شقة الخلاف فإننا

نرى أن التابعين بحكم اصالتهم كانت لهم آراؤهم المتباينة.

و إذا سألت الآن عن موقف ابن كثير من التفسير بالرأى فإنه يقول: «أما التفسير بالرأى فقد ورد عن السلف ما يدل على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم فيه فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة و شرعا فلا حرج عليه».

و هذا الرأى لا بن كثير رأى موفق، أنه لا حرج على من تكلم فى التفسير بالرأى ما دام قد استكمل عدة ذلك من اللغة و من الشرع.

و قد طبق ابن كثير منهجه هذا النفيس فى كتابه و من أجل ذلك كان تفسيره من انفس التفاسير، يرجع إليه المحققون و قد استفاد منه الكثيرون فيما بعد فاغترف منه اغترافا صاحب محاسن التأويل و صاحب تفسير المنار و غيرهم كثير ..

و من أمثلة هذا التفسير ما يلى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَ لا خُلَّةٌ وَ لا شَفاعَةٌ وَ الْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (سورة البقرة الآية ۲۵۴) يأمر اللّه تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم فى سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم و مليكهم و ليبادروا إلى ذلك فى هذه الحياة الدنيا.

(من قبل أن يأتى يوم) يعنى يوم القيامة.

(لا بيع فيه و لا خلة و لا شفاعة) أى لا يباع أحد من نفسه و لا يفادى بمال لو بذله و لو جاء بملء الأرض ذهبا لا تنفعه خلة أحد يعنى صداقته بل و لا نسابته كما قال: (فإذا نفخ فى الصور فلا انساب بينهم يومئذ و لا يتساءلون).

مناهج المفسرين، ص: ۲۲۶

(و لا شفاعة) أى لا تنفعهم شفاعة الشافعين.

و قوله (و الكافرون هم الظالمون) مبتدأ محصور فى خبره، أى و لا ظالم أظلم ممن وافى اللّه يومئذ كافرا، و قد روى ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: «الحمد اللّه الذى قال (و الكافرون هم الظالمون) و لم يقل: «و الظالمون هم الكافرون».

و قال تعالى: وَ لَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى يعنى أهل مكة و قد أهلك اللّه الأمم المكذبة بالرسل مما حولها كعاد و كانوا بالأحقاف بحضرموت عند اليمن و ثمود و كانت منازلهم بينهم و بين الشام و كذلك سبأ و هم أهل اليمن و مدين و كانت فى طريقهم و ممرهم إلى غزة، و كذلك بحيرة قوم لوط كانوا يمرون بها أيضا:

و قوله عز و جل: وَ صَرَّفْنَا الْآياتِ أى بيناها و أوضحناها لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ. (سورة الأحقاف الآية ۲۷) و إذا كنا قد قدمنا الحديث عن المنهج لأهميته، فإننا نتحدث الآن عن الشخص و عن تقدير العلماء له.

انه الحافظ الكبير، المدقق المحقق، عماد الدين اسماعيل بن عمر بن كثير البصرى ثم الدمشقى الفقيه الشافعى:

ولد سنة إحدى و سبعمائة بقرية شرقى بصرى من أعمال دمشق و ابتدأ فى طلب العلم من صغره و رحل فى طلبه، و قدم دمشق و له سبع سنين سنة ست و سبعمائة مع أخيه و قد مات أبوه و هو طفل لم يشب عن الطوق فى سنة ۷۰۳ و ساعده أخوه فى شئون حياته و اتجه بكليته إلى العلم: دارسا و متفقها، و متعرفا على ألوان العلوم فحفظ و الف و كان- فى كل ذلك- كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، يشارك فى العربية و ينظم نظما وسطا.

مناهج المفسرين، ص: ۲۲۷

و لم يتحصل له العلم إلا بعد أن سمع من كثير من العلماء و تفقه على العديد من الشيوخ كالشيخ برهان الدين الفزارى و كمال الدين بن قاضى شهبة، ثم صاهر الحافظ أبا الحجاج المزى و لازمه و أخذ عنه، و أقبل على علم الحديث و أخذ الكثير عن ابن تيمية و قرأ الأصول على الأصبهانى، و سمع الكثير، و برع فى حفظ المتون و معرفة الأسانيد و العلل و الرجال و التاريخ حتى برع فى ذلك و هو شاب.

قال عنه الإمام الذهبى فى معجمه:

«الإمام المفتی المحدث البارع: فقیه متفنن و محدث متقن، و مفسر نقاد.

و قال ابن حجر فی الدرر:

سمع من ابن الشحنهٔ و ابن الزرّاد و إسحاق الآمدی و ابن عساکر و المزی و ابن الرضی و أجاز له من مصر: الدبوسی و الوانی و الختنی و غیرهم .. و اشتغل بالحدیث مطالعهٔ فی متونه و رجاله، فجمع التفسیر، و شرع فی کتاب کبیر فی الأحکام لم یکمل، و جمع التاریخ الذی سماه البدایهٔ و النهایهٔ و عمل طبقات الشافعیهٔ و خرج أحادیث مختصر ابن الحاجب و شرع فی شرح البخاری، و لازم المزی و قرأ علیه تهذیب الکمال و صاهره علی ابنته و أخذ عن ابن تیمیهٔ، ففتن بحبه و امتحن بسببه.

و قال عنه ابن حبیب: زعیم أرباب التأویل، سمع و جمع و صنف و أطرب الأسماع بالفتوی و شنف، و حدث و أفاد و طارت أوراق فتاویه فی البلاد، و اشتهر بالضبط و التحریر و انتهت إلیه رئاسهٔ العلم فی التاریخ و الحدیث و التفسیر.

و قال تلمیذه الحافظ شهاب الدین بن حجی:

«کان احفظ من ادرکناه لمتون الأحادیث، و اعرفهم بتخریجها و رجالها و صحیحها و سقیمها و کان اقرانه و شیوخه یعترفون له بذلک، و کان یستحضر شیئا کثیرا من الفقه و التاریخ قلیل النسیان و کان فقیها جید الفهم صحیح

مناهج المفسرین، ص: ۲۲۸

الذهن، یشارک فی العربیهٔ مشارکهٔ جیدهٔ و ینظم الشعر، و ما اعرف أنی اجتمعت به علی کثرهٔ ترددی إلیه إلا و استفدت منه».

و قال ابن حجر:

کان کثیر الاستحضار، حسن المفاکههٔ، سارت تصانیفه فی البلاد فی حیاته و انتفع بها الناس بعد وفاته.

و قد انتهت إلیه رئاسهٔ العلم فی التاریخ و التفسیر و الحدیث فولی مشیخهٔ أم الصالح بعد موت الذهبی، و مشیخهٔ دار الحدیث الاشرفیهٔ بعد موت السبکی مدهٔ یسیرهٔ، ثم أخذت منه.

و هو القائل:

تمر بنا الأیام تتری و انمانساق إلی الآجال و العین تنظر

فلا عائد هذا الشباب الذی مضیو لا زائل هذا المشیب المکدر

مناهج المفسرین، ص: ۲۲۹

بصائر ذوی التمییز فی لطائف الکتاب العزیز للفیروز بادی

اشارهٔ

مؤلف هذا الکتاب أمام مشهور، و عالم فاضل، برز فی اللغهٔ و علومها، و الحدیث و فنونه، و ضم إلی ذلک معرفهٔ تاریخیهٔ صائبهٔ و سلوکا صوفیا طیبا، و جمع کل معارفه فنسقها تنسیقا لم یسبق إلیه، و قدمها تقدیما حاول به أن ییسر القرآن للباحثین، و یکشف للعالم عن وجوه الإعجاز فیه فجاء وافیا بآیهٔ محققا للغایهٔ المنشودهٔ منه.

و الفیروزآبادی: مجد الدین أبو الطاهر محمد بن یعقوب بن محمد بن إبراهیم بن عمر الشیرازی الشیخ العلامهٔ.

کان بروزه إلی ساحهٔ الحیاهٔ فی سنهٔ تسع و عشرین و سبعمائهٔ بکازرون لأب کان من علماء اللغهٔ و الأدب بشیراز فحفظ القرآن و هو ابن سبع سنین و شغل بکتب اللغهٔ من هذه السن ثم انتقل إلی شیراز فی سن الثامنهٔ فأخذ اللغهٔ من أبیه و الحدیث من محمد بن یوسف الزرندی الحنفی.

و انطلق فی رحلاته بین أرجاء العالم الإسلامی محصلا جامعا متفهما متعلما:

يقول ابن حجر فى أنباء الغمر: (و دخل الديار الشامية بعد الخمسين فسمع بها و ظهرت فضائله و كثر الآخذون عنه، ثم دخل القاهرة ثم جال فى البلاد الشمالية و الشرقية و دخل الهند و عاد منها على طريق اليمن قاصدا مكة، و دخل زبيد فتلقاه الملك الأشرف إسماعيل بالقبول، و كان ذلك بعد وفاة جمال الدين الريمى قاضى الأقضية باليمن كله فقرره الملك الأشرف مكانه و بالغ فى إكرامه فاستقرت قدمه بيزيد و استمر فى ذلك إلى مات و قدم فى هذه المدة مكة مرارا و أقام بها و بالطائف، ثم رجع).

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۰

و من معالم شخصيته البارزة قوة الحفظ فقد حكى عنه أنه قال: «ما كنت أنام حتى احفظ مائتى سطر».

و من هذه المعالم طيب النفس و سماحة السلوك و حسن الصحبة، قال ابن حجر: (اجتمعت به فى زبيد و فى وادى الخصيب و ناولنى جل «القاموس» و اذن لى مع المناولة أن أرويه عنه و قرأت عليه من حديثه عدة أجزاء و سمعت منه «المسلسل» بالأولية بسماعة من السبكى و كتب لى تقريظا على بعض تخريجاتى أبلغ فيه و أنشدنى لنفسه فى سنة ثمانمائة بيزيد.

و قد كان لهذه السماحة أطيب الأثر فى إقبال أهل عصره و احرصهم على تكريمه فكان كما قال ابن حجر: (لم يقدر له قط أنه دخل بلدا الا و أكرمه متوليه و بالغ فى إكرامه مثل شاه شجاع صاحب تبريز و الأشرف صاحب مصر و الأشرف صاحب اليمن و ابن عثمان صاحب الروم و أحمد بن ادريس صاحب بغداد و غيرهم.

أما من علمه فقد كان عزيزا، لقد استفاد بكبار علماء عصره، و استنار بما دون فى الكتب من العلوم و مع دقة حفظه وسعة اطلاعه فقد كانت المراجع لا تفارقه فى حله و ترحاله لقد كان لا يسافر إلا و صحبته عدة احمال من الكتب يخرج أكثرها فى كل منزلة فينظر فيها و يعيدها إذا رحل و كان إذا املق باعها.

و نقل السخاوى عنه أنه قال: اشتريت بخمسين ألف مثقال ذهبا كتبا.

أما عن شيوخه فقد قرأ القراءات العشر على الشهاب أحمد بن على الديوانى و أخذ ببغداد عن التاج محمد بن السباك و السراج عمر بن على القزوينى، و فى دمشق أخذ عن الشيخ تقى الدين السبكى و ابنه التاج عبد الوهاب و فى الشام أخذ عن صلاح الدين العلائى و فى القاهرة أخذ عن بهاء الدين ابن عقيل شارح الألفية و جمال الدين الاسنوى و ابن هشام النحوى.

و الناظر فى تفسيره يجد أنه قد رسم له خطته و حدد طريقته فقال فى مقدمته:

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۱

و بعد: فهذا كتاب جليل و مصنف حفيل ايتمرت بتأليفه الأوامر الشريفة العالية المولوية الامامية السلطانية العامية الهمتمية الصمصاوية الأعدلية الأفضلية السعدية الأجلية الملكية الاشرفية ممهد الدنيا و الدين، خليفة اللّه فى العالمين أبو العباس إسماعيل بن العباس بن على بن داود بن يوسف بن عمر بن رسول خلد اللّه سلطانه. و أنار فى الخافقين برهانه قصد بذلك نصره اللّه- جمع شتات العلوم و ضم أنواعها، على تباين أصنافها فى كتاب مفرد تسهيلا لمن رام سرح النظر فى أزاهير أفنان الفنون و تيسيرا لمن أراد الاستمتاع برائع أزهارها، و يانع ثمارها الغض المصون.

فاستعنت بتوفيق اللّه و تأييده، و رتبته على مقدمة و ستين مقصدا:

المقدمة فى تشويق العالم إلى استزادة العلم الذى طلبه فرض، و تمييز العلوم بعضها من بعض.

المقصد الأول: فى لطائف تفسير القرآن العظيم.

أما المقاصد الباقية فتتعلق بعلوم أخرى كعلم الحديث و علم الفقه و علم الحروف و خواصها و نحو ذلك.

المقصد الأول

: و بعد المقدمة يقول المقصد الأول فى لطائف تفسير القرآن العظيم.

اعلم أن رتبنا هذا المقصد الشريف على أغرب اسلوب و قدمنا أمامه مقدمات و مواقف:

أما المقدمات: ففى ذكر فضل القرآن الكريم و وجه اعجازه و عد اسمائه و ما لا بد للمفسرين من معرفته: من ترتيب نزول سور القرآن و اختلاف أحوال آياته و فى مواضع نزوله و فى وجوه مخاطباته و شىء من بيان الناسخ و المنسوخ و أحكامه و مقاصده: من ابتداء القرآن إلى انتهائه. ثم يقول: (و اذكر فى كل سورة على حدة سبعة أشياء).

موضع النزول، و عدد الآيات، و الحروف و الكلمات و اذكر الآيات التى

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۲

اختلفت فيها القراءات و مجموع فواصل آيات السورة، و ما كان للسورة من اسم أو اسمين فصاعدا، و اشتقاقه و مقصودة السورة و ما هى متضمنة له و آيات الناسخ و المنسوخ منها و المتشابه منها و بيان فضل السورة مما ورد فيها من الأحاديث.

ثم اذكر موقفا يشتمل على تسعة و عشرين بابا على عدد حروف الهجاء ثم اذكر فى كل باب من كلمات القرآن ما أوله حرف ذلك الباب مثاله أنى أذكر فى أول باب الألف الألف و اذكر وجوهه و معانيه ثم اتبعه بكلمات أخرى مفتتحة بالألف و كذلك فى باب الباء و التاء إلى آخر الحروف فيحتوى ذلك على جميع كلمات القرآن و معانيها على أتم الوجوه.

و اختتم ذلك بباب الثلاثين اذكر فيه أسماء الأنبياء و متابعيهم من الأولياء، ثم أسماء اعدائهم المذكورين فى القرآن و اشتقاق كل ذلك لغة، و ما كان له فى القرآن من النظائر و اذكر ما يليق به من الأشعار و الأخبار و اختم الكتاب بذكر خاتم النبيين.

ثم استفاض فى تفسيره على النمط الذى ذكره و من أمثلته ما يلى:

«بصيرة»- أنا انزلناه

السورة مكية عند بعض المفسرين، مدنية عند الأكثرين.

آياتها ست فى عد الشام و خمس عند الباقين.

و كلماتها ثلاثون و حروفها مائة و اثنتا عشرة.

فواصل آياتها على الراء.

سميت سورة القدر لتكرر ذكره فيها.

معظم مقصود السورة: بيان شرف ليلة القدر فى نص القرآن و نزول الملائكة المقربين من عند الرحمن و اتصال سلامهم طوال الليل على أهل الإيمان فى قوله حتى مطلع الفجر السورة محكمة.

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۳

المتشابهات

: قوله تعالى:

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... وَ ما أَدْراكَ ما لَيْلَةُ الْقَدْرِ (سورة القدر الآية ۱، ۲) ثم قال (ليلة القدر) فصرح به، و كان حقه الكناية مرفعا لمنزلتها فإن الإسم قد يذكر بالصريح فى موضع الكناية تعظيما و تخويفا كما قال الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شىءنغص الموت ذا الغنى و الفقيرا فصرح باسم الموت ثلاث مرات تخويفا و هو من أبيات كتاب سيبويه

فضل السورة

: فيه أحاديث ضعيفة: عن أبى: من قرأها أعطى من الأجر كمن صام رمضان و احيا ليلة القدر.

و قال جعفر: من قرأها فى ليلة نادى مناد: استأنف العمل فقد غفر اللّه لك.

و قال: يا على، من قرأها فتح اللّه فى قبره بابين من الجنة و له بكل آية قرآن ثواب من صلى بين الركن و المقام ألف ركعة.

بصيرة فى الرزق

: و الرزق- بالكسر- ما ينتفع به و يقال للعطاء الجارى تارة دنيويا كان أو أخرويا و للنصيب تارة و لما يصل إلى الجوف و يتغذى به تارة و الجمع أرزاق.

و الرزق- بالفتح- المصدر الحقيقى و المرة الواحدة رزقه و الجمع رزقات و يقال: أعطى السلطان رزق الجند و رزقت علما، قال تعالى: وَ أَنْفِقُوا مِنْ ما رَزَقْناكُمْ من المال و الجاه و العلم.

و قوله:

وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (سورة الواقعة ۸۲)

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۴

أى تجعلون نصيبكم من النعمة تحرى الكذب و قوله:

وَ فِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ (سورة الذاريات ۲۲) قيل: عنى به المطر الذى به حياة الحيوان.

و قيل: هو كقوله:

فَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً (سورة الحجر ۲۲) و قيل: تنبيه ان الحظوظ بالمقادير و قوله: (فليأتكم برزق منه) أى بطعام يتغذى به.

و قوله (رزقا للعباد) قيل عنى به الأغذية و يمكن أن يحمل على العموم فيما يؤكل و يلبس و يستعمل. و قال فى العطاء الأخروية. و قوله:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ (سورة الذاريات الآية ۵۸) محمول على العموم.

و الرزاق يقال الخالق الرزق معطيه و السبب له و هو اللّه تعالى و يقال للإنسان الذى يصير سببا فى وصول الرزق فلا يقال إلا اللّه تعالى و قوله:

وَ مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرازِقِينَ (سورة الحجر الآية ۲۰) أى بسبب رزقه و لا مدخل لكم فيه.

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً (سورة النحل الآية ۷۳) الآية: أى ليسوا بسبب فى رزقهم بوجه من الوجوه و بسبب من الأسباب.

و ارتزق الجند: أخذوا أرزاقهم، و الرزقة ما يعطونه دفعة واحدة. ا ه.

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۵

النيسابورى المتوفى سنة ۷۲۸ ه

اشارة

هو الإمام الكبير، و العالم الشهير، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين الخراسانى النيسابورى.

ولد نيسابورى و أقام بمدينة «قم» و كان منشؤه و موطنه بديار نيسابور ..

كان ملما بالعلوم العقلية و النقلية، عارفا باللغة العربية، متمكنا من ناحية التعبير عارفا بالتأويل و التفسير، واعيا بالقراءات، و ضم إلى ذلك الشهرة العلمية الواسعة على جانب كبير من الورع و التقوى، و معرفة واسعة بالتصوف و علوم الاشارات.

كانت له كتب مفيدة، و آثار جيدة، ثلاثة كتب فى التفسير: كبير و متوسط و موجز و منها كتاب تعبير التحرير شرح لتحرير المجسطى للطوسى، و توضيح التذكرة النصيرية فى الهيئة هذا فضلا عما كتبه فى أوقاف القرآن ..

تفسير النيسابورى

و من أهم كتب النيسابورى تفسيره المشهور: غرائب القرآن و رغائب الفرقان الذى الفه رغبة فى تيسير القرآن للدارسين، و مساعدة الراغبين فى فهمه، و التعرف على ما يمكن التعرف عليه من اسراره ..

و قد بين السبب فى قيامه بتأليفه فقال:

و إذ وفقنى اللّه تعالى لتحريك القلم فى أكثر الفنون المنقولة و المعقولة، كما اشتهر بحمد اللّه تعالى و منه فيما بين أهل الزمان، و كان علم التفسير من العلوم بمنزلة، الانسان من العين و العين من الانسان، و كان قد رزقنى اللّه تعالى من إبان الصبا و عنفوان الشباب حفظ لفظ القرآن، و فهم معنى الفرقان، و طالما

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۶

طالبنى بعض أجلة الاخوان، و أعزة الأخدان، ممن كنت مشارا إليه عندهم بالبنان فى البيان، و اللّه المنان، يجازيهم عن حسن ظنونهم، و يوفقنا لا- سعاف سؤلهم و انجاح مطلوبهم، ان اجمع كتابا فى علم التفسير، مشتملا على المهمات، مبينا على ما وقع لنا من نقل الاثبات و أقوال الثقات، من الصحابة و التابعين، ثم من العلماء الراسخين، و الفضلاء المحققين المتقدمين و المتأخرين، جعل اللّه تعالى سعيهم مشكورا، و عملهم مبرورا، فاستعنت بالمعبود و شرعت فى المقصود، معترفا بالعجز و القصور فى هذا الفن و فى سائر الفنون ..

ثم ذكر أهم المراجع التى اعتمد عليها فى اعداد تفسيره فقال:

و لما كان التفسير الكبير المنسوب إلى الإمام الافضل، و الهمام الامثل، الحبر النحرير، و البحر الغزير، الجامع بين المعقول و المنقول، الفائز بالفروع و الأصول، أفضل المتأخرين، فخر الملة و الحق و الدين، محمد بن عمر بن الحسن الخطيب الرازى، تغمده اللّه برضوانه و أسكنه بحبوحة جنانه، اسمه مطابق لمسماه، و فيه من اللطائف و البحوث ما لا يحصى، و من الزوائد و الفنون ما لا يخفى، فإنه قد بذل مجهوده، و نثل موجوده، حتى عسر كتابه على الطالبين، و اعوز تحصيله على الراغبين، فحاذيت سياق مرامه، و أوردت حاصل كلامه و قربت مسالك أقدامه، و التقطت عقود نظامه، من غير اخلال بشىء من الفرائد، و اهمال لما يعد من اللطائف و الفوائد، و ضمت إليه، ما وجدت فى الكشاف و فى سائر التفاسير من اللطائف المهمات إذ رزقنى اللّه تعالى من البضاعة المزجاة، و أثبت القراءات المعتبرات و الوقوف المعللات ثم التفسير المشتمل على المباحث اللفظيات و المعنويات، مع اصلاح ما يجب اصلاحه، و إتمام ما ينبغى إتمامه، من المسائل الموردة فى التفسير الكبير و الاعتراضات، و مع حل ما يوجد فى الكشاف من المواضع المعضلات، سوى الابيات المعقدات، فان ذلك يوردها من ظن أن تصحيح القراءات و غرائب القرآن انما يكون بالامثال و المستشهدات، كلا فان القرآن حجة على غيره و ليس غيره عليه، فلا علينا أن نقتصر فى غرائب القرآن على تفسيرها

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۷

بالألفاظ المشتهرات و على ايراد بعض المتجانسات، التى تعرف منها أصول الاشتقاقات، و ذكرت طرفا من الاشارات المقنعات و التأويلات الممكنات، و الحكايات المبكيات، و المواعظ الرادعة عن المنهيات الباعثة على أداء الواجبات ..

ثم قال مبينا منهجه فى التفسير:

«و التزمت ايراد لفظ القرآن الكريم أولا مع ترجمته على وجه بديع، و طريق منيع مشتمل على ابراز المقدرات، و اظهار المضمرات، و تأويل المتشابهات، و تصريح الكنايات و تحقيق المجازات و الاستعارات، فان هذا النوع من الترجمة مما تسكب فيه العبرات، و يزل

المترجمون هنالك إلى العثرات، و قلما يفطن له الناشئ الواقف على متن اللغة العربية، فضلا عن الدخيل القاصر فى العلوم الأدبية، و اجتهدت كل الاجتهاد فى تسهيل سبيل الرشاد. و وضعت الجميع على طرف التمام ليكون الكتاب كالبدر فى التمام، و كالشمس فى افادة الخاص و العام، من غير تطويل يورث الملام، و لا تقصير يوعر مسالك السالك و يبدد نظام الكلام، فخير الكلام ما قل و دل، و حسبك من الزاد ما بلغك المحل.

و قد قدم لتفسيره بمقدمات هامة:

المقدمة الاولى: فى فضل القراءة و القارئ و آداب القراءة و جواز اختلاف القراءات و ذكر القراء المشهورين المعتبرين.

المقدمة الثانية: فى الكلام على الاستعاذة المندوب إليها فى قوله عز من قائل: (فإذا قرأت القرآن فاستعذ باللّه من الشيطان الرجيم).

المقدمة الثالثة: فى فوائد مهمة تتصل بتواتر القراءات السبع، و الكلام على نزول القرآن على سبعة أحرف.

المقدمة الرابعة فى كيفية جمع القرآن ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۸

المقدمة الخامسة فى معانى المصحف و الكتاب و القرآن و السورة و الآية و الكلمة و الحرف و غير ذلك.

المقدمة السادسة: فى ذكر السبع الطوال و المثانى و المئين و الطواسيم و الحواميم و المفصل و المسبحات و غير ذلك.

المقدمة السابعة: فى ذكر الحروف التى كتب بعضها على خلاف بعض فى المصحف و هى فى الأصل واحدة المقدمة الثامنة: فى أقسام الوقف.

المقدمة التاسعة: فى تقسيمات يعرف منها اصطلاحات مهمة المقدمة العاشرة: فى أن كلام اللّه تعالى قديم أولا المقدمة الحادية عشرة: فى كيفية استنباط المسائل الكثيرة من الألفاظ القليلة.

و يبدأ بعد ذلك فى تفسيره على ما رسمه فى مقدمته.

أنه يبدا بكتابة مجموعة من الآيات ثم يتحدث عما فيها من القراءات، و ما تشتمل عليه من الوقوف ثم يبدأ التفسير، و غالبا ما يعقب بالتأويل.

و لتعرض نموذجا صغيرا من تفسيره فى قول اللّه تعالى:

يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ. وَ اتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَ لا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَ لا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَ لا هُمْ يُنْصَرُونَ.

(سورة البقرة الآية ۴۸) القراءات:

و لا تقبل بالتاء الفوقانية (قراءة) ابن كثير و أبو عمرو و سهل و يعقوب

مناهج المفسرين، ص: ۲۳۹

الوقوف:

العالمين (.) (أى آخر آية) ينصرون (.)

التفسير (و لطول الكلام فيه سنوجزه فيما يأتى):

إنما أعاد سبحانه هذا الكلام توكيدا للحجة، و تحذيرا من ترك اتباع محمد صلّى اللّه عليه و سلم، كأنه قال: ان لم تطيعونى لاجل سوالف نعمتى عليكم، فاطيعونى للخوف من عقابى فى المستقبل.

و المراد بالعالمين هاهنا: الجم الغفير من الناس، كقوله بارَكْنا فِيها لِلْعالَمِينَ سورة الانبياء (۷۱) و يمكن أن يكون المراد: فضلتكم على عالمى زمانكم، لان الشخص الذى سيوجد بعد ذلك لا يكون من جملة العالمين و يحتمل ان يكون لفظ العالمين عاما للموجودين و لمن سيوجد، لكنه مطلق فى الفضل، و المطلق يكفى فى صدقه صورة واحدة.

۲- قال تعالى: إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً وَ لا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ (سورة البقرة: ۱۱۹) القراءات:- «و لا تسئل» على النهى نافع و يعقوب، للباقون بضم التاء، و رفع اللام على الخبر.

الوقوف:- «و نذيرا و لا» للعطف: أى نذيرا، و غير مسئول إلا لمن قرأ (و لا تسأل) على النهى لاختلاف الجملتين (الجحيم) تمام الآية.

التفسير:

لما بين غاية اصرارهم على العناد، و تصميمهم على الكفر بعد نزول ما يكفى فى باب الاقتداء و الاهتداء من الآيات البينات، اراد أن يسلى

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۰

و يسرى عن رسوله لئلا يضيق صدره فقال: إِنَّا أَرْسَلْناكَ يا محمد (بالحق) و الصواب ما تقتضيه الحكمة، و هو أن لا يكون لك أن تجبرهم على الايمان بل لا يتجاوز حالك عن أن تكون (بشيرا) لمن اتبعك بكل خير (و نذيرا) لمن خالفك بكل سوء فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ (سورة فاطر: ۸) انك غير مسئول عَنْ أَصْحابِ الْجَحِيمِ «سورة البقرة: ۱۱۹» و هو من أسماء النار و كل نار عظيمة فى مهواة فهى جحيم، من قوله تعالى:- قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ.

(سورة الصافات: ۷۷) و الجاحم: المكان الشديد الحر، و هذا كقوله فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسابُ (سورة الرعد: ۴۰) و أما قراءة النهى، فيروى أنه قال: «ليت شعرى ما فعل أبواى؟ «فنهى عن السؤال عن أحوال الكفرة و الاهتمام بأعداء اللّه، و فى هذه الرواية بعد «لان سياق الكلام ينبو عن ذلك و لانه صلّى اللّه عليه و سلم مع علمه الاجمالى بحال الكفار كيف يتمنى ذلك؟

و الاقرب أن معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من المحن كما إذا سألت عمن وقع فى بلية، فيقال لك. لا تسأل عنه، فكأن المسئول يحرج أن يجرى على لسانه ما هو فيه لفظاعته، أو يرى أنك لا تقدر على استماع خبره، لانه يورث الوحشة و الضجر ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۱

الإمام البيضاوى و منهجه فى التفسير

هو الإمام عبد اللّه بن عمر بن محمد بن على الشيرازى، أبو سعيد أبو الخير ناصر الدين البيضاوى من قرية يقال البيضاء لها من بلاد فارس ولى القضاء بشيراز و فسر القرآن، و ألف فى كثير من الفنون و تيسر له هذا المنصب بعد حادثة دلت على نبوغه، و كشفت عن عبقريته ..

لقد دخل تبريز، فصادف دخوله إليها مجلس درس قد عقد بها لبعض الفضلاء، فجلس القاضى ناصر الدين فى اخريات القوم، بحيث لم يعلم به أحد فذكر المدرس نكتة زعم أن أحدا من الحاضرين لا يقدر على جوابها، و طلب من القوم حلها، و الجواب عنها، فإن لم يقدر فالحل فقط فان لم يقدر فإعادتها فلما انتهى من ذكرها شرع القاضى ناصر الدين فى الجواب فقال له:

لا اسمع حتى اعلم أنك فهمتها، فخيره بين اعادتها بلفظها أو معناها، فبهت المدرس، و قال: اعدها بلفظها، فاعادها ثم حلها و بين أن فى ترتيبه اياها خللا، ثم اجاب عنها، و قابلها فى الحال بمثلها، و دعا المدرس إلى حلها، فتعذر عليه ذلك، فاقامه الوزير من مجلسه، و ادناه إلى جانبه و سأله من انت؟ فاخبره انه البيضاوى، و أنه جاء فى طلب القضاء بشيراز، فاكرمه، و خلع عليه فى يومه، و رده و قد قضى حاجته ..

كان إماما علامة، عارفا بالفقه و التفسير و أصول الفقه و أصول الدين و العربية و المنطق و كان عالما بفنون المناظرة و آداب المناقشة، صالح السلوك، مجتهدا فى العبادة، زاهدا فى متاع الدنيا الفانى، شافعى المذهب ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۲

قال ابن شهبة فى طبقاته عنه صاحب المصنفات، و عالم اذربيجان، و شيخ تلك الناحية و قال السبكى: كان إماما مبرزا نظارا صالحا

معبدا ..

و قال ابن حبيب: تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته، و لو لم يكن له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه ..

صنف الكتب المهمة فى شتى الفنون الدينية، فصنف مختصر الكشاف، و المنهاج فى علم الاصول و شرح مختصر ابن الحاجب فى الاصول و شرح المنتخب فى الاصول للإمام فخر الدين، و شرح المطالع فى المنطق، و الايضاح فى أصول الدين، و الغاية القصوى فى الفقه، و الطوالع فى الكلام، و شرح الكافية لابن الحاجب، و شرح المصابيح و لب اللباب فى علم الاعراب ما زال مخطوطا، و الغاية القصوى فى دراسة الفتوى فى فقه الشافعية، و ما زال فى عداد المخطوطات ..

و من أهم مصنفاته تفسيره المشهور الذى قدم له فقال بعد الحمد و الثناء.

و بعد: فان أعظم العلوم مقدارا، و ارفعها شرفا و منارا، علم التفسير الذى هو رئيس العلوم الدينية و رأسها، و مبنى قواعد الشرع و اساسها، لا- يليق لتعاطيه و التصدى للتكلم فيه إلا- من برع فى العلوم الدينية كلها- اصولها و فروعها، و فائق فى الصناعات العربية و الفنون الادبية بانواعها، و لطالما أحدث نفسى أن اصنف فى هذا الفن كتابا يحتوى على صفوة ما بلغنى من عظماء الصحابة، و علماء التابعين، و من دونهم من السلف الصالحين، و ينطوى على نكت بارعة، و لطائف رائعة، استنبطتها أنا و من قبلى من افاضل المتاخرين، و اماثل المحققين، و يعرب عن وجوه القراءات المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين، و الشواذ المروية عن القراء المعتبرين إلا أن قصور بضاعتى يثبطنى عن الاقدام، و يمنعنى عن الانتصاب فى هذا المقام، حتى سنح لى بعد الاستخارة ما صح به عزمى على الشروع فيما اردته، و الاتيان بما قصدته، ناويا ان اسميه بعد ان اتممه ب «انوار التنزيل، و أسرار التأويل».

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۳

ثم شرع فى التفسير:- و المتأمل فى تفسيره يجد أنه قد نحا فيه نحو الاختصار، و ركز فيه الافكار، و وجه الانظار إلى ما تشتمل عليه الآيات فى كثير من نواحى الاعراب و الفقه و الاصول و نحو ذلك، معتمدا على ما سبقه من التفاسير كتفسير الكشاف و الرازى و نحوهما ..

و قد افاض العلماء فى الحديث عن هذا الكتاب محللين و مبينين، فقال السيوطى فى حاشيته عليه:- إن القاضى ناصر الدين البيضاوى لخص هذا الكتاب فاجاد، و أتى بكل مستجاد و ماز فيه أماكن الاعتزال، و طرح موضع الدسائس و ازال، و حرر مهمات، و استدرك تتمات، فظهر كأنه سبيكة نضار، و اشتهر اشتهار الشمس فى رابعة النهار، و عكف عليه العاكفون، و لهج بذكر محاسنه الواصفون، و ذاق طعم دقائقه العارفون، فاكب عليه العلماء تدريسا و مطالعة، و بادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه و مسارعة ..

و قال صاحب كشف الظنون:- تفسيره- أى البيضاوى- كتاب عظيم الشأن، غنى عن البيان، لخص فيه من الكشاف ما يتعلق بالاعراب و المعانى و البيان، و من التفسير الكبير- رأى الرازى- ما يتعلق بالحكمة و الكلام، و من تفسير الراغب ما يتعلق بالاشتقاق و غوامض الحقائق و لطائف الاشارات، و ضم إليه ما ورى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، و زاد فى العلم بسطة و بصيرة كما قال مولانا المنشى ..

اولوا الالباب لم ياتوابكشف قناع ما يتلى

و لكن كان للقاضى يد بيضاء لا تبلى و لكونه متبحرا فى ميدان فرسان الكلام فاظهر مهارته فى العلوم حسبما يليق بالمقام كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الاشارة و ملح الاستعارة، و هتك

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۴

الاستار الاخرى عن اسرار المعقولات بيد الحكمة و لسانها، و ترجمان المناطقة و كيزانها، فحل ما اشكل على الانام، و ذلل لهم صعاب المرام، و اورد فى المباحث الدقيقة ما يدحض بعض الشبه المضلة، و اوضح لهم مناهج الادلة و الذى ذكره من وجوه التفسير ثانيا أو ثالثا أو رابعا بلفظ قيل فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود ..

و أما الوجه الذى تفرد فيه و ظن بعضهم انه مما لا ينبغى أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية كقوله:

و حمل الملائكة العرش و خفيفهم حوله مجاز عن حفظهم و تدبيرهم له، و نحوه فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن تصور مبانيه، و لا يبلغ علمه الا الاحاطة بما فيه، فمن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء، و يروم أن يصيد نسر السماء، لانه مالك زمام العلوم الدينية، و الفنون اليقينية، على مذهب أهل السنة و الجماعة، و قد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق، و سلموا إليه قصب السبق، فكان تفسيره يحتوى على فنون من العلم و عرة المسالك، و انواعا من القواعد المختلفة الطرائق، و قل من برز فى فن الأوصدة عن سواه و شغله، و المرء عدو لما جهله، حتى يسلم من الغلط و الزلل، و يقتدر على رد السفسطة و الجدل ..

و استطرد صاحب كشف الظنون فى الثناء على الكتاب و على صاحب الكتاب، حتى قال بحق:

ثم ان هذا الكتاب رزق من عند اللّه سبحانه و تعالى بحسن القول عند جمهور الافاضل و الفحول، فعكفوا عليه بالدرس و التحشية، فمنهم من علق تعليقته على سورة منه، و منهم من حشى تحشية تامة، و منهم من كتب على بعض مواضع منه ..

و من أشهر الحواشى عليه حاشية قاضى زاده (مطبوعة) و حاشية الشهاب الخفاجى (مطبوعة) و حاشية القونوى ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۵

هذا هو تفسير البيضاوى مختصر فى غير خلل، و مشتمل على الوان من العلم النافع، و الخير الغزير، و يتضح ذلك بذكر نماذج منه:

قوله تعالى: قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ..

(سورة الأنعام: ۱۶۱ و ۱۶۲ و ۱۶۳) قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ بالوحى و الارشاد إلى ما نصب من الحجج. (دينا) بدل من محل «الى صراط» إذ المعنى: هدانى صراطا، كقوله: و يهديكم صراطا مستقيما، أو مفعول فعل مضمر دل عليه الملفوظ، (قيما) فعل من قام كسيد من ساد، و هو ابلغ من المستقيم باعتبار الزنة «الوزن» و المستقيم باعتبار الصيغة، و قرأ ابن عامر و عاصم و حمزة و الكسائى: «قيما» على أنه مصدر، و كان قياسه قوما كعوض فاعل الاعلال فعله كالقيام، مِلَّةَ إِبْراهِيمَ عطف بيان لدينا حَنِيفاً حال من إبراهيم وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ عطف عليه ..

قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَ نُسُكِي عبادتى كلها، أو قرباتى، أو حجى وَ مَحْيايَ وَ مَماتِي و ما انا عليه فى حياتى و اموت عليه من الايمان و الطاعة، او طاعات الحياة و الخيرات و المضافة إلى الممات كالوصية و التدبير، أو الحياة و الممات أنفسهما، و قرا نافع: محياى باسكان الياء اجراء للوصل مجرى الوقف للّه رب العالمين لا شريك له، خالصة لا اشرك فيها غيره، وَ بِذلِكَ القول أو الاخلاص أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ لانه إسلام كل نبى متقدم على إسلام

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۷

الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى

ولد الإمام السيوطى فى أول رجب سنة ۸۴۹ ه و كانت وفاته فى جمادى الأول سنة ۹۱۱ و دفن فى حوش قوصون خارج باب القرافة بالقاهرة.

أفرد الحافظ الداودى- و هو تلميذ الامام السيوطى- ترجمة كتاب مستقل عن أستاذه الحافظ السيوطى، و قد ترجم الحافظ السيوطى لنفسه فى كثير من كتبه يذكر فى أحدها ما لم يذكره فى الآخر، و ترجم له كثيرون من محبيه و من خصومه، و من المعتدلين بين هؤلاء و ممن ترجم له من القدماء ابن اياس فى تاريخه، و صاحب الكواكب السائرة، و عبد الغنى النابلسى.

و ترجم له من المحدثين العالم المحقق الثبت السيد عبد الحى الكنانى.

و لقد كان السيوطى قمة من القمم التى أثارت الكثير من الحديث عنها فيما بين ذام و مادح، و قد كان خصبا فى التأليف، و كان

صاحب ذاكرة قوية وجد و اجتهاد منذ صغره، فحفظ القرآن الكريم و ما بلغ الثامنة من عمره بعد.

و درس على مشايخ و تتلمذ على أساتذة، وصل بعضهم بعددهم إلى ستمائة، أما مشايخه فى الرواية سماعا و اجازة فقد وصل إلى مائة و خمسين.

و كتبه بلغ تقديرها أكثر من خمسمائة، و هذه الكتب منها المؤلف الأصيل، و منها ما هو مختصر من كتب سابقيه و منها ما هو جمع أو تنسيق، و السيوطى فى كل ذلك له طابعه الموجود فى كل كتبه، و أعنى به طابع السهولة، فكتبه لا تعقيد فيها، سواء أ كانت تأليفا أم جمعا و تنسيقا.

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۸

يقول ابن العماد فى الشذرات:

«ان تلميذه الحافظ الداودى استقصى أسماء مؤلفاته الحافلة الكبيرة الكاملة الجامعة فنافت عدتها على خمسمائة مؤلف، و قد أشتهر أكثر مؤلفاته فى أقطار الأرض شرقا و غربا و كان آية كبرى فى سرعة التأليف، قال تلميذه الداودى:

عاينت الشيخ و قد كتب فى يوم واحد ثلاث كراريس تأليفا و تحريرا، و كان مع ذلك يملى الحديث، و يجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة» أ. ه.

و يقول أبو الحسنات: محمد عبد الحى اللكنوى فى فى حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطى:

«و تصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة، و فوائد شريفة، تشهد كلها بتبحره وسعة نظره و دقة فكره، و أنه حقيق بأن يعد من مجددى الملة المحمدية فى بدء المائة العاشرة، و آخر التاسعة، كما ادعاه بنفسه، و شهد بكونه حقيقا به من جاء بعده، كعلى القارى المكى فى المرآة شرح المشكاة.

و يقول السيد محمد عبد الحى الكنانى:

«و قد ظفرت» فى مصر بكراسة من تأليف السيوطى عدد فيها تآليفه إلى سنة ۹۰۴ قبل موته بسبع سنين اوصل فيها عدد مؤلفاته إلى ۵۳۸، فعدد ما له فى علم التفسير ۷۳، و فى الحديث ۲۰۵، و المصطلح ۳۲، و الفقه ۷۱، و أصول الفقه، و الدين و التصوف ۲۰، و اللغة و النحو و التصريف ۶۶، و المعانى و البيان و البديع ۶ و الكتب الجامعة من فنون ۸ الطبقات و التاريخ ۳۰، الجميع ۳۷، أ. ه.

و فى فترة من فترات حياته كان له مثل عليا يجب أن يصل إلى مكانة علمية تماثلها:

فهو يتحدث قائلا: انه لما حج شرب من ماء زمزم لأمور منها.

مناهج المفسرين، ص: ۲۴۹

۱- أن يصل فى الفقه إلى رتبة الشيخ سراج الدين البلقينى.

۲- و فى الحديث إلى رتبة الحافظ بن حجر.

و لكن السيوطى فيما بعد كتب يقول:

«و قد كملت عندى الآن آلات الاجتهاد بحمد اللّه تعالى، أقول ذلك تحدثا بنعمة اللّه تعالى لا فخرا و لو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفا بأقوالها و ادلتها النقلية و مداركها و نقوحها و أجوبتها و الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها و القدرة على ذلك من فضل اللّه لا بحولى و لا بقوتى فلا حول و لا قوة إلا باللّه».

و من استكمل آلات الاجتهاد و لا يكون مثله الأعلى فى الفقه الشيخ سراج الدين البلقينى و فى الحديث الحافظ بن حجر، و ذلك أن من استكمل آلات الاجتهاد يكون قد تربع على القمة فى مختلف الفنون.

و رتبة الاجتهاد قد ادعاها الامام السيوطى فجرت عليه مشاكل و أثارت حوله جدلا و اضطر هو أن يدافع و يهاجم، و أن يدخل معركة تتعلق بجدارته و كفاءته كان فى غنى عنها، لقد قال بعضهم- و هو قول باطل- ان من يبلغ رتبة الاجتهاد لا بدّ و أن يكون عالما محققا

فی فن المنطق، و السیوطی لیس من أئمة المنطق فهو لیس مجتهدا.

و رغم أن هذه الدعوی باطلة و ذلک أن الکثیر من أئمة الاجتهاد توفاهم اللّه قبل أن یترجم المنطق الأرسطی إلی اللغة العربیة، و کثیر من أئمة الاجتهاد نأوا بأنفسهم عن المنطق بعد أن ترجم و لم یتهمهم أحد بنقص فی اجتهادهم.

و لکن بمجرد أن وجه هذا النقد إلی الامام السیوطی کتب یرد عن نفسه و فی کتابه الجمیل:

«صون المنطق و الکلام» عن: «فنی المنطق و الکلام» أخذ یدافع عن نفسه و یعلن أنه اتقن علم المنطق اتقان ائمته و أنه لذلک مستوف شرائط الاجتهاد، و لکن السیوطی لم یدع الاجتهاد فحسب، و أنما ادعی أنه مجدد القرن العاشر.

مناهج المفسرین، ص: ۲۵۰

لقد روی أبو داود و غیره بسند صحیح عن أبی هریرة رضی اللّه عنه أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قال:

«ان اللّه یبعث إلی هذه الأمة علی رأس کل مائة سنة من یجدد لها دینها».

و الناس من قدیم یتنازعون فی شخصیة المجدد لکل قرن، و یختلفون علی اسمه، و قد أرضی الامام بن کثیر أغلب العلماء حین عمم فی الموضوع و جعله شاملا لکثیرین. انه یقول:

«و قد ادعی کل قوم فی امامهم أنه المراد بهذا الحدیث، و الظاهر أنه یعم جملة من العلماء من کل طائفة و کل صنف و من مفسر و محدث و فقیه و نحوی و لغوی و غیرهم».

و عن ذلک و عن تقدیر الامام السیوطی القاری فی شرح المشکاة:

«شیخ شیوخنا السیوطی هو الذی أحیا علم التفسیر فی الدر المنثور، و جمع جمیع الاحادیث المتفرقة فی جامعه المشهور، و ما ترک فنا الا فیه له متن أو شرح مسطور، بل و له زیادات و مخترعات یستحق أن یکون هو المجود فی القرن العاشر کما ادعاه و هو فی دعواه مقبول و مشکور.

و نختم هذا بقول العارف باللّه الشیخ الحافظ التیجانی أطال اللّه فی عمره:

«و لما بلغ العلامة السیوطی أربعین سنة من عمره أخذ فی التجرد للعبادة و الانقطاع إلی اللّه تعالی و الاشتغال به صرفا و الاعراض عن الدنیا و أهلها کأنه لم یعرف أحدا منهم و شرع فی تحریر مؤلفاته التی سبقت الاشارة إلیها و ترک الافتاء و التدریس و اعتذر عن ذلک فی مؤلف ألفه فی ذلک و سماه بالتنفیس، و أقام فی روضة المقیاس فلم یتحول منها إلی أن مات، و لم یفتح طاقات بیته التی علی النیل من سکناه، و کان الأمراء و الأغنیاء یأتون إلی زیارته و یعرضون علیه الأموال النفیسة فیردها و أهدی إلیه القوم خصیا و ألف دینار فرد الألف و أخذ الخصی فأعتقه و جعله خادما فی الحجرة النبویة، و قال لقاصد

مناهج المفسرین، ص: ۲۵۱

السلطان: لا- تعد تأتینا قط بهدیة، فان اللّه تعالی أغنانا عن مثل ذلک، و کان لا یتردد إلی السلطان، و لا إلی غیره و طلبه مرارا فلم یحضر إلیه، و قیل له: ان بعض الأولیاء کان یتردد إلی الملوک و الامراء فی حوائج الناس فقال: اتباع السلف فی عدم التردد علیهم أسلم لدین المسلم» أ. ه.

و نأتی الآن إلی السیوطی و التفسیر لقد ذکر السیوطی أنه ألف فی التفسیر و ما یتعلق به ۷۳ رسالة و کتابا، و یقول الامام السیوطی فی مقدمة کتابه: «الدر المنثور» «و بعد: فلما ألفت کتاب ترجمان القرآن و هو التفسیر المسند عن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم و أصحابه رضی اللّه عنهم، و تم بحمد اللّه فی مجلدات فکان ما أوردته فیه من الآثار بأسانید الکتب المخرج منها رأیت قصور أکثر الهمم عن تحصیله و رغبتهم فی الاقتصار علی متون الاحادیث دون الاسناد و تطویله فلخصت منه هذا المختصر مقتصرا فیه علی متن الأثر مصدرا بالعزو و التخریج إلی کل کتاب معتبر، و سمیته: بالدر المنثور فی التفسیر بالماثور» و اللّه أسأل أن یضاعف لمؤلفاته الأجور و یعصمه من الخطأ و الزور، بمنه و کرمه أنه البر الغفور».

و الـدر المنثور هو أجمع كتاب للتفسير بالمأثور، لم يبـد فيه الامام السـيوطى رأيا، و لم يقل فيه كلمـة مفسـرة أو جملة شارحة، و أنما التزم التزاما كاملا أن يكون تفسيره جمعا لأحاديث رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم فى الآية و سردا لبعض أقوال الصحابة رضى اللّه عنهم.

و هو فى جمعه هـذا لم يلتزم صـحة الاحاديث و النقل، و من أجل ذلك فان هـذا الكتاب الجليل فى حاجـة ماسـة إلى عمل متقن، فى التحقيق و التخريج، و بيان الصحيح من الاحاديث و الحسن منها و الضعيف.

و نورد الآن نموذجا يغنى عن غيره:

يقول فى قول اللّه تعالى: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَ إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (سورة الفاتحة)

مناهج المفسرين، ص: ۲۵۲

«أخرج ابن جرير عن ابى حـاتم عن ابن عبـاس فى قوله: «إيـاك نعبـد» و يعنى إياك نوحـد و تخاف و نرجو ربنا لا غيرك، «و إياك نسـتعين» على طاعتـك و على أمورنا كلها، و أخرج وكيع و الفريانى عن ابن رزين قال سـمعت عليا قرأ هـذا الحرف كان قرشـيا عربيا فصيحا «إياك نعبد و إياك نستعين» اهدنا، برفعهما جميعا.

و أخرج الخطيب فى تاريخه عن أبى رزين أن عليا قرأ: إياك نعبـد و إياك نسـتعين «فهمز و مـد و شـد» و أخرج أبو القاسم البغوى و الماوردى معا فى معرفة الصـحابة و الطبرانى فى الأوسط و أبو نعيم فى الـدلائل عن انس بن مالك عن أبى طلحـة قال: كنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى غزوة فلقى العدو فسمعته يقول:

«يا مالك يوم الدين، إياك نعبد و إياك نستعين» قال: فلقد رأيت الرجال تصدع تضربها الملائكة من بين يديها و من خلفها»

مناهج المفسرين، ص: ۲۵۳

الإمام أبو السعود و تفسيره

الإمام أبو السـعود محمـد بن مصـطفى العمارى الحنفى صاحب التفسـير المشـهور، وصل إلى مرتبة عالية فى العلوم الدينية، بعد أن قرأ على أبيه و على كبار علماء عصره، و تنقل فى المدارس المتنوعة.

و أهلته هـذه الدراسـة الجادة مع مـا منـح من ميزات شخصـية لتقلـد أرقى المناصب الدينيـة الهامـة- فتقلـد القضاء فى عـدد من البلاد التركية، كان آخرها قضاء العسكر فى ولاية روم «أيلى» و دام عليه مدة ثمان سنين.

و لمـا توفى مفتى تركيـا سـعد اللّه بن عيسـى بن أمير خان تولى الفتيا مكانه، فكان له فيها أطيب الأثر، و أجمل الـذكر، سارت بفتاويه الركبان، و أشـبع حاجة السائلين، و اتسع عمله لاجابة الطالبين- و سـجلت آراؤه السديدة بأسلوبه اللطيف، الذى صبغت حقائقه العلمية فى أسـاليب ادبيـة طيبـة، و ممـا ذكر فى ذلـك أنه سـئل عن شـخص لاـ هو مريض و لاـ هو صـحيح و لا حى و لا ميت و لا عاقل و لا مجنون، و لا نائم و لا يقظان، فأجاب متكلما بقوله: أن كان لهذا وجود فهو الترياق.

و سـئل عن شـرب القهوة قبـل أن يكمل اشـتهارها بعـد ما قرر له اجتماع الفسـقة على شـربها، فأجاب بقوله: ما أكب أهل الفجور على تعاطيه، فينبغى أن يجتنبه من يخشى اللّه و يتقيه.

لقد حرمها بسـبب اجتماع الفساق على تعاطيها و ان كانت فى نفسـها حلالا، لأن اجتماع الفسقة على شىء، ينقل خبثهم إليه، و يخرجه عما هو عليه من السلامة إلى الضياع ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۵۴

و قد كثر ثناء العلماء عليه، فقال صاحب شذرات الذهب:

و كان من الذين قعدوا من الفضائل و المعارف على سنامها و غاربها، و ضربت له نوبة الامتياز فى مشارق الأرض و مغاربها.

تفرد فی میدان فضله و لم یجاره أحد، و انقطع عن القرین و المماثل فی کل بلد، و حصل له من المجد و الاقبال و الشرف و الافضال، ما لا یمکن شرحه بالمقال.

و یقول صاحب الکواکب السائرة:

و کان المولی أبو السعود عالما، و اماما کاملا شدید التحری فی فتاویه، حسن الکتابة علیها، حسن المحاورة، وافر الانصاف، دینا خیرا، سالما ابتلی به کثیر من موالی الروم، من أکل المکیفات، سالم الفطنة جید القریحة، لطیف العبارة، حلو النادرة.

أما صاحب الاعلام فیقول عنه:

و أضیف إلیه الافتاء سنة ۱۹۵۲ ه، و کان حاضر الذهن، سریح البدیهة، کتب الجواب مرارا فی یوم واحد علی ألف رقعة باللغات العربیة و الفارسیة و الترکیة تبعا لما یکتبه السائل.

و قد عاقه الدرس و الفتوی، و الاشتغال بما یقتضیه المنصب، عن التفرغ للتصنیف، غیر أنه- کما قال صاحب شذرات الذهب- اختلس فرصا، و صرفها إلی التفسیر الشریف، و قد أتی فیه بما لم تسمح به الأذهان، و لم تقرع بمثله الاذان و یتحدث الإمام أبو السعود عن ظروف اعداد هذا التفسیر مبرزا ظروف حیاته فی لمحات خاطفة فیقول:

و کنت اتردد فی ذلک بین اقدام و احجام، لقصور شأنی و عزة المرام، أین الحضیض من الذری؟ شتان بین الثریا و هیهات اصطیاد العنقاء بالشباک، و اقتیاد الجوزاء من بروج الافلاک فمضت علیه الدهور و السنون، و تغیرت الاطوار و تبدلت الشئون، فابتلیت بتدبیر مصالح العباد، برهة فی قضاء

مناهج المفسرین، ص: ۲۵۵

البلاد، و أخری فی قضاء العساکر و الاجناد، فحال بینی و بین ما کنت أخال، تراکم المهمات و تزاحم الاشغال، و جموح العوارض و العلائق، و هجوم الصوارف و العوائق و التردد إلی المغازی و الأسفار، و التنقل من دار إلی دار .. و کنت فی تضاعیف هاتیک الامور، أقدر فی نفسی أن انتهز نهزه من الدهور، و یتسنی لی القرار، و تطمئن بی الدار، و أظفر حینئذ بوقت خال، أتبتل فیه جانب ذی العظمة و الجلال، و أوجه إلیه وجهتی، و أسلم له سری و علانیتی، و أنظر إلی کل شیء بعین الشهود، و أ تعرف سر الحق فی کل موجود، تلافیا لما قد فات، و استعداد لما هو آت، و أتصدی لتحصیل ما عزمت إلیه، و أتولی لتکمیل ما توجهت إلیه، برفاهة و اطمئنان، و حضور قلب و فراغ جنان، فبینما أنا فی هذا الخیال، إذ بدا لی ما لم یخطر بالبال تحولت الاحوال و الدهر فوقعت فی أمر أشق من الأول: أمرت بحل مشکلات الأنام، فیما شجر بینهم من النزاع و الخصام، فلقیت معضلة طویلة الذیول، و صرت کالهارب من المطر إلی السول .. فاضحیت فی ضیق المجال وسعة الاشغال أشهر ممن یضرب بها الامثال، فجعلت أتمثل بقول من قال:

لقد کنت أشکو و الحوادث برهةو استمرض الأیام و هی صحائح

إلی أن تغشتنی و قیت حوادثتحقق أن السالفات منائح فلما انصرمت عری الآمال عن الفوز بفراغ البال عزمت علی انشاء ما کنت أنویه، توجهت إلی املاء ما ظلت أبتغیه ناویا أن اسمیه عند تمامه بتوفیق اللّه و أنعامه:

(ارشاد العقل السلیم إلی مزایا الکتاب الکریم) فشرعت فیه مع تفاقم المکاره علی، و تزاحم المشادة بین یدی، متضرعا إلی رب العظمة و الجبروت خلاق عالم الملک و الملکوت، فی أن یعصمنی عن الزیغ و الزلل، و یقینی مصارع السوء فی القول و العمل و یوفقنی لتحصیل ما أروی و أرجوه و یهدینی إلی تکمیله علی أحسن الوجوه ..

مناهج المفسرین، ص: ۲۵۶

و تلمح من ذلک ما کان لأبی السعود من شخصیة اجتماعیة ممتازة، و ما کان یتحلی به من إیمان قوی و روح طیبة و استمساک صادق بعری الدین.

و من ملامح العبقریة عند أبی السعود اشارته الواضحة إلی ما فی أسرار الخلق و الایجاد من آیات بینات، ثم قوله:

لكن الاستدلال بتلك الآيات و الدلائل، و الاستشهاد بتلك الامارات و المخايل، و التنبيه لتلك الاشارات السرية و التفطن لمعانى تلك العبارات العبقرية و ما فى تضاعيفها من رموز أسرار القضاء و القدر، و كنوز آثار التعاجيب و العبر، مما لا يطيق به البشر، إلا بتوفيق خلاق القوى و القدر، اذن مدار المراد ليس إلا كلام رب العباد، اذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينية، و المفسر لمشكلات الآيات التكوينية، و الكاشف عن خفايا حظائر القدس، و المطلع على خبايا سرائر الانس، و به تكتسب الملكات الفاخرة و به يتوصل إلى سعادة الدنيا و الآخرة.

ثم يبين أنه قرأ عن القرآن الكتب الكثيرة، فاغرم بتفسيرى الكشاف و أنوار التنزيل فقام بخلده نظم درر فرائدهما و ترتيب غرر فوائدهما و أن يضيف إليهما ما فى غيرهما من جواهر الحقائق و زواهر الدقائق فكان هذا الكتاب.

و لم يقتصر نشاط أبو السعود على تأليف هذا الكتاب بل ألف غيره من الكتب على ضيق وقته، و اتساع نشاطه، و مما نقل فى ذلك أنه ألف تحفة الطلاب فى المناظرة و رسالة فى المسح على الخفين، و رسالة فى مسائل الوقوف، و رسالة فى الأوقاف، و قصة هاروت و ماروت.

و كان له إلى جانب أسلوبه البارع فى النثر شعر جميل مطبوع، و مما اشتهر عنه من ذلك قصيدته الميمية التى أولها:

أبعد سليمى مطلب و مرامو غير هواها لوعة و غرام

و هيهات أن تثنى إلى غير بابهاعنان المطايا أو يشد حزام ثم يقول:

فكم عشرة ما أورثت غيراو رب كلام مقتضاه كلام

مناهج المفسرين، ص: ۲۵۷

ولد أبو السعود سنة ۸۹۸ .. و كانت وفاته بالقسطنطينية فى الثلث الأخير من ليلة الأحد خامس جمادى الأولى سنة اثنتين و ثمانين و تسعمائة، و كانت جنازته حافلة، و صلى عليه فى حرم جامع السلطان محمد الكبير فى جمع كثير، و دفن بمقبرته بالقرب من مدفن أبى أيوب الأنصارى الصحابى رضى اللّه عن الجميع.

و من تفسيره ما يلى:

قوله تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّباتِ ما رَزَقْناكُمْ وَ اشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ، إِنَّما حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَ الدَّمَ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَ ما أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ باغٍ وَ لا عادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

(سورة البقرة: ۱۷۲، و ۱۷۳) (يا أيّها الذين آمنوه كلوا من طيبات ما رزقناكم، أى مستلذاته.

«و اشكروا اللّه»: الذى رزقكموها، و الالفات لتربية المهابة.

«ان كنتم إياه تعبدون»: فان عبادته تعالى لا تتم إلا بالشكر له .. و عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم، يقول اللّه عز و جل: إنى و الانس و الجن فى نبأ عظيم، أخلق و يعبد غيرى، و أرزق و يشكر غيرى.

«إنما حرم عليكم الميتة و الدم» أى أكلها و الانتفاع بها، و هى التى ماتت على غير ذكاة و السمك و الجراد خارجان عنها بالعرف، أو استثناء الشرع، و خرج الطحال من الدم.

«و لحم الخنزير» انما خص لحمه مع أن سائر اجزائه أيضا فى حكمه لأنه يؤكل من الحيوان، و سائر أجزائه أيضا فى حكمه لأن معظمها يؤكل من الحيوان، و سائر أجزائه بمنزلة التابع له.

مناهج المفسرين، ص: ۲۵۸

«و ما أهل به لغير اللّه»، أى رفع به الصوت عند ذبحه للصنم، و الإهلال أصله رؤية الهلال، لكن لما جرت العادة برفع الصوت بالتكبير عند ذلك سمى اهلالا، ثم قيل لرفع الصوت و أن كان لغيره.

«فمن اضطر غير باغ» بالاستئثار على مضطر آخر.

«و لا عاد» سد الرمق و الجوعة، و قيل: غير باغ على الوالى و لا عاد بقطع الطريق.

و على هذا لا- يباح للعاصى بالسفر و هو ظاهر مذهب الشافعى، و قول أحمد رحمهما اللّه: «أى أن من سافر فى معصية لا يجوز له تناول شىء مما حرم عليه و لو اضطر لذلك لأنه تسبب فى هذا الاضطرار» «فلا اثم عليه»: فى تناوله.

«ان اللّه غفور»: لما فعل.

«رحيم»: بالرخصة.

ان قيل: كلمة انما تفيد قصر الحكم على ما ذكر، و كم من حرام لم يذكر.

قلنا: المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقا، أو قصر حرمته على حالة الاختيار، كأنه قيل: إنما حرم عليكم هذه الاشياء ما لم تضطروا إليها.

مناهج المفسرين، ص: ۲۵۹

السراج المنير للخطيب الشربينى

يقول المؤلف فى هذا التفسير:

«فدونك تفسيرا كأنه سبيكة عسجد، أو در منضد، جمع من التفاسير معظمها، و من القراءات متواترها، و من الأقاويل أظهرها، و من الأحاديث صحيحها و حسنها محرر الدلائل فى هذا الفن مظهرا لدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جن».

و لقد يظن بعض الناس من هذه الكلمة أن الخطيب الشربينى يجب الفخر أو يشعر بالخيلاء، و لكن ذلك أبعد الأشياء عن فطرته.

و لقد كانت فطرته التى صقلتها دراسته الدينية من أنقى الفطر و أطهرها و إذا نظرت إلى حياته فإنك تجده من كبار العلماء.

تلقى العلم على أعلام عصره مثل الشيخ أحمد البرلسى، و النور المحلى، و الشهاب الرملى و غيرهم.

و لقد أجازوه بالافتاء و التدريس فى حياتهم، فدرس و أفتى فى حياة أشياخه، و قد انتفع بعلمه: تدريسا و كتبا خلق لا يكادون يحصون.

و من كتبه شرح كتاب المنهاج و شرح كتاب التنبيه و هما شرحان نفيسان أقبل الناس على قراءتها و كتابتهما فى حياته، و له على الغاية شرح مطول حافل. مناهج المفسرين ۲۵۹ السراج المنير للخطيب الشربينى

كان الشيخ يستخدم علمه فى كل الظروف، و كان حركة لا تهدأ فإنه كان حينما يحج لا يركب، و إنما يستمر سائرا على قدميه إلى أن يبلغ به التعب مداه فيركب إلى أن يستريح ثم يعود إلى السير من جديد.

و كان إذا خرج من بلدته «بركة الحاج» إلى الحج لم يزل يعلم الناس مناسك الحج و مناسك الحج لا يعلمها كثير من الذاهبين إلى بيت اللّه الحرام،

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۰

فكان الشيخ يعلمهم المناسك و يعلمهم آداب السفر و ذلك أن للسفر فى الجو الإسلامى آدابا معينة هى من آداب الإسلام.

و كان يحث رفاقه على الصلاة و يعلمهم القصر أثناء السفر و الجمع بين الظهر و العصر و بين المغرب و العشاء.

و كان هو يكثر فى الطريق من قراءة القرآن، و من الذكر و الصلاة على الرسول صلّى اللّه عليه و سلم.

أما حينما يكون بمكة فإنه يكثر من الطواف فإنه العبادة المفضلة فيما يتعلق بالنوافل حينما يكون الإنسان بالمسجد الحرام.

و كان يكثر من الصوم فى السفر و فى مكة.

و كان يؤثر على نفسه فقد كان يحاول دائما أن يكون من الذين يؤثرون على أنفسهم، و لو كان بهم خصاصة.

و يقول المؤرخون: أجمع أهل مصر على صلاحه و وصفوه بالعلم و العمل، و وصفوه بالزهد و الورع، و وصفوه بكثرة النسك و

العبادة. و مما يدل على اتجاهه إلى العبادة و مرضات اللّه تعالى أنه حينما كان يحل شهر رمضان يعتكف فى أول يوم من الشهر و يستمر فى المسجد عابدا مصليا قائما قارئا للقرآن و لا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد.

و يقول المؤرخون حينما ينتهون من الحديث عن حياته:

«و بالجملة: كان آية من آيات اللّه تعالى، و حجة من حججه على خلقه».

و مع أنه كان بهذه المكانة العلمية و الاجتماعية، فإنه كان يؤثر «الخمول» كما تقول الكتب التى تؤرخ له، و ما كان الشيخ خاملا، كلا، و هو صاحب هذا النشاط الجم، و إنما يقصدون بالخمول أنه ما كان يجرى وراء دنيا و ما كان يتهافت على المناصب و لا يقف بأبواب الحكام.

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۱

و لقد أعلن الشيخ عن ظروف تاليف الكتاب، و عن منهجه فى التأليف من حيث الحجم، و من حيث التزام الصحة فى الروايات، و من حيث النحو، و من حيث القراءات و فى كل ذلك يقول:

«... ثم سألنى بعد ذلك جماعة من أصحابى المخلصين ... أن أجعل لهم تفسيرا وسطا بين الطويل الممل، و القصير المخل، فأجبتهم إلى ذلك ممتثلا وصية رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فيما يرويه أبو سعيد الخدرى رضى اللّه تعالى عنه أنه عليه الصلاة و السلام قال:

«ان رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيرا».

و اقتداء بالماضين من السلف فى تدوين العلم ابقاء على الخلف. و ليس على ما فعلوه مزيد، و لكن لا بدّ لكل زمان من تجديد ما طال به العهد، و قصر للطالبين فيه الجد و الجهد، تنبيها للمتوقفين، و تحريضا للمتثبطين، و ليكون ذلك عونا لى، و للقاصرين مثلى مقتصرا فيه: على أرجح الأقوال، و إعراب ما يحتاج إليه عند السؤال و ترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية و أعاريب محلها كتب العربية، و حيث ذكرت فيه شيئا من القراءات فهو من السبع المشهورات، و قد اذكر بعض أقوال و أعاريب لقوة مداركها أو لورودها و لكن بصيغة «قيل» ليعلم أن المرضى أولها ...

و لقد حاول الشيخ حقا أن يجرد كتابه عن الروايات الضعيفة و ينتقد ما ذكره منها المفسرون و لكنه هو لم يسلم من إيراد بعضها، و لكن يلاحظ أن الروايات الضعيفة التى يأتى بها عليها جميعها سمة الموعظة و الغبرة، و ليس فيها ما يمس أمرا من أمور الدين فى أصوله أو فى فروعه.

و الملاحظ فى التفسير أن أسلوبه سهل و عبارته فصيحة، و أنه يعتمد كثيرا على تفسير الفخر الرازى، و لكنه لا يتبعه اتباعا أعمى و ذلك أنه فى كثير من الأحيان يرد عليه و ينتقده.

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۲

و المؤلف لا ينكر أنه استفاد من الذين سبقوه و إنما يعلن ذلك فى صراحة، أنه يقول: و قد تلقيت التفسير- بحمد اللّه- من تفاسير متعددة، رواية و دراية، عن أئمة ظهرت و بهرت مفاخرهم، و اشتهرت و انتشرت مآثرهم ...».

و هذه شيمة العلماء الأعلام: أنهم يعترفون بالفضل لأولى الفضل فلا ينقصهم الاعتراف بل يزيدهم فضلا و رفعه.

و هاك نموذجا من تفسيره: قال فى قوله تعالى:

لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَ ما فِي الْأَرْضِ، وَ إِنْ تُبْدُوا ما فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ، وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. (سورة البقرة: ۲۸۴) «لله ما فى السموات و ما فى الأرض» خلقا و ملكا- قال الجلال السيوطى: و عبيدا و لعل ذكره بعد «ملكا» لئلا يتوهم أن «ما» لما لا يعقل «و ان تبدوا» أى تظهروا ... «ما فى أنفسكم» من السوء و العزم عليه «أو تخفوه» أى تسروه «يحاسبكم» أى يجزكم «به الله» يوم القيامة و الآية حجة على من أنكر الحساب كالمعتزلة و الروافض. «فيغفر لمن يشاء» مغفرته «و

يعذب من يشاء» تعذيبه، و هذا صريح فى نفى وجوبه، و قرأ ابن عامر و عاصم برفع الراء من «يغفر»، و رفع الياء من «يعذب» على الاستئناف، و الباقون يجزمهما عطفا على جواب الشرط، و أدغم الراء المجزومة فى اللام: السوس.

و قول الزمخشرى، و مدغم الراء فى اللام مخطئ خطأ فاحشا و رواية عن ابن عمر يعنى: السوس- مخطئ مرتين: لأنه يلحن و ينسب اللحن إلى أعلم الناس بالعربية مما يؤذن بجهل عظيم، و السبب فى نحو هذه الروايات قلة ضبط الرواة، و السبب فى قلة الضبط قلة الدراية و لا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو مردود لأنه مبنى على القول بأن الراء إنما تدغم فى الراء لتكرره الفائت بإدغامها فى اللام ...

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۳

ورد بأن ذلك قراءة أبى عمرو و هى متواترة مع أن القول بامتناع ادغام الراء فى اللام إنما هو مذهب البصريين، و أما الكوفيون- بل و بعض البصريين كأبى عمرو فقائلون بالجواز- كما نقله عنهم أبو حيان- و نقل أبو عمرو و الكسائى و أبو جعفر صحة ادغام: «صار لى» و «صار لك» عن العرب- و من حفظ حجة على من لم يحفظ و وجه الجعبرى ادغام الراء فى اللام بتقارب مخرجيهما على رأى سيبويه و تشاركهما على رأى الفراء، و تجانسهما فى الجهر و الانفتاح و الاستقلال.

«و اللّه على كل شىء قدير» فيقدر على جزائكم و محاسبتكم ...

نموذج آخر فى تفسير قوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَ صابِرُوا، وَ رابِطُوا وَ اتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ.

الآية الأخيرة من سورة آل عمران:

«يا أيها الذين آمنوا اصبروا» على مشاق الطاعة، و ما يصيبكم من الشدائد و عن المعاصى «و صابروا» أى و غالبوا أعداء اللّه فى الصبر على شدائد الحرب فلا يكونوا أشد صبرا منكم «و رابطوا» أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو، قال اللّه تعالى: «و من رباط الخيل ترهبون به عدو اللّه و عدوكم» و روى أنه صلّى اللّه عليه و سلم قال «من رابط يوما و ليلة فى سبيل اللّه كان كعدل صيام شهر و قيامه لا يفطر و لا ينفتل عن صلاته إلا لحاجة» و روى أنه صلّى اللّه عليه و سلم قال: «من الرباط انتظار الصلاة بعد الصلاة» «و اتقوا اللّه» فى جميع أحوالكم «لعلكم تفلحون» أى تفوزون فى الجنة و تنجون من النار و قال بعض العلماء:

اصبروا على السراء و الضراء، و رابطوا فى دار الأعداء، و اتقوا اله الأرض و السماء لعلكم تفلحون فى دار البقاء ..

رحم اللّه الخطيب الشربينى و نفع بعلمه ...

هذا و باللّه التوفيق.

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۵

روح البيان فى تفسير القرآن لاسماعيل حقى

إن هذا التفسير مشهور شهرة كبيرة تسمع به هنا و تسمع به هناك، و هو مشهور فى أوساط العرب، و مشهور فى أوساط العجم يعجب به أولئك و يقدسه هؤلاء، ألفه إسماعيل حقى ابن مصطفى الاسلامبولى.

و هو تركى ولد فى آيدوس، و تعلم كما كان طلبة العلم إذ ذاك يتعلمون:

العربية فى استفاضة حتى تزيل العجمة، و حتى تكون هى الطابع الغالب على طالب العلم، و تعلم الطالب إسماعيل حقى فى إطار اللغة: النحو و الصرف و تعلم البلاغة بأقسامها و كان نابها نابغا فى المدارس فى الدرس ممتازا و فى القسطنطينية تعلم عن طريق العربية و التفسير و الحديث و الفقه، و العلوم الإسلامية على وجه العموم.

و كان يقف كثيرا أمام آيات القرآن التى تتحدث عن التقوى و عن القرب مثل:

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ. (سورة التوبة: ۱۱۲) و مثل:

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَ الْمُسْلِماتِ وَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِناتِ وَ الْقانِتِينَ وَ الْقانِتاتِ وَ الصَّادِقِينَ وَ الصَّادِقاتِ وَ الصَّابِرِينَ وَ الصَّابِراتِ وَ الْخاشِعِينَ وَ الْخاشِعاتِ وَ الْمُتَصَدِّقِينَ وَ الْمُتَصَدِّقاتِ وَ الصَّائِمِينَ وَ الصَّائِماتِ وَ الْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ الْحافِظاتِ وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۶

كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً.

(سورة الأحزاب ۳۵) و يقف عند الآيات التى تتحدث عن التوكل، و يبحث فى الجو الذى نزلت فيه و هكذا فى كل ما يتصل بالقلب فى القرآن الكريم.

أما فى الأحاديث الشريفة، فانه كان يطيل النظر فيما يسمى الرقائق، و الرقائق كلمة يراد بها فى الحديث كل ما يتصل بالسرائر و البواطن تهذيبا و اصلاحا، أو- على حد تعبير القرآن الكريم- تزكية، و اللّه سبحانه و تعالى يقول:

قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها سورة الشمس: ۹) و يقوده ذلك كله إلى أن يتجه شطر التصوف و ينخرط فى سلك المريدين، و أخذ طريق الخلوتية.

و كان للطريق اذ ذاك منهج اصطلاحى يرقى بالمريد خطوة فخطوة إلى القرب من اللّه تعالى، و لم يكن الطريق سلبيا، و إنما الجهاد للنفس و الجهاد فى المجتمع حتى تستقيم النفس و يستقيم المجتمع على أمر اللّه.

و لكن الجهاد فى المجتمع محفوف دائما بالاشواك و ذلك أن الغرائز و الشهوات و النزعات و الفساد المختلف الألوان حينما يستشرى فى المجتمع، فان اقتلاعه مثير دائما للخواطر، و لم يبال اسماعيل حقى بهذه المخاطر، و إنما جابه المجتمع بكل ما يعتقد أنه حق، و ثار ذوو الاغراض الفاسدة.

و كان إسماعيل حقى قد انتقل من القسطنطينية إلى «بروسة» و أعلن منهجه الاصلاحى و جاهد فى سبيله فنفى إلى «تكفور طاغ».

و ناله من الأذى الكثير: لقد اوذى فى نفسه و فى ماله و استمر الايذاء امدا من الدهر، ثم عاد إلى بروسة و استمر إلى أن مات سنة ۱۱۲۷ ه ۱۷۱۵ م أما تآليفه فانه كان تارة يؤلف بالعربية: الرسالة الخليلية» فى التصوف.

و هى رسالة الخلة: شروطها و طريقها و ثمرتها و غايتها، الخلة التى وصل

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۷

إليها سيدنا إبراهيم عليه السلام حينما أصبح خليل اللّه، و هى درجة لا تتأتى لغير الأنبياء، و لكن وضعها كذروة يسير الانسان نحو انوارها و يهتدى بهديها و هو ما يجوز لغير الأنبياء: ان اللّه سبحانه و تعالى حينما يقول:

لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ سورة الأحزاب: ۲۲) إنما أحب سبحانه أن نتخذ منه المنارة التى تسير نحوها فى اضوائها، و الرسالة الخليلية إنما تنهج هذا المنهج.

و من عادة كثير من كبار العلماء أن يختاروا أربعين حديثا من الاحاديث الشريفة ينتخبونها فى دقة و يذيعونها و يشرحونها يستشفعون بها إلى اللّه فى أن يكتب لهم النجاة و من أشهرها «الأربعون النووية» التى جمعها الإمام النووى رضى اللّه عنه، و سلك الإمام إسماعيل حقى هذا المسلك فجمع من الاحاديث الشريفة أربعين و سماها «الأربعون حديثا».

أما أثره الخالد فانه كتابه فى التفسير و هو تفسير لغوى بيانى صوفى، أى أنه جمع ميزة التفسير العادى الذى يلتزم أسباب النزول و الآثار و القراءات، و اللغة، و ميزة التفسير الصوفى، و لعل مكانة هذا التفسير عند الصوفية لا تضارعها مكانة تفسير آخر ذلك أنه خلا من الشطح و من المغالاة و التزم القصد و الاعتدال مع اعتماد على الأثر و اللغة.

و فيما يلى بعض الأضواء على جوانب من حياته و على ظروف تأليف التفسير، انه يقول: «و بعد: فيقول العبد الفقير سمى الذبيح الشيخ إسماعيل حقى الناصح المهاجر كلأه اللّه من فتن الغدايا و العليا و الهواجر، لما أشار إلى شيخى الإمام العلامة، و استاذى الجهبذ

الفهامة، سلطان وقته و نادرة زمانه، حجة اللّه على الخلق بعلمه و عرفانه، مطلع أنوار العناية و التوفيق، وارث أسرار الخليفى على التحقيق، المشهود له بسر التجديد فى رأس العقد الثانى من الألف الثانى، معدن الالهام الربانى السيد الثانى، الشيخ الحسيب

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۸

النسيب سمى بن عفان نزيل قسطنطينية، أمده اللّه و أمدنا به فى السر و العلانية، بالنقل إلى بروج الأولياء مدينة بروسا، صينت عن تطاول يد الضراء و البؤس فى العشر السادس من العشر العاشر من العقد الأول من الألف الثانى و لم أجد بدا من الوعظ و التذكير فى الجامع الكبير و المعبد المنير الشهير، و قد كان منى حين انتواء الاقامة ببعض ديار الروم، بعض صحائف ملتقطة من صفحات التفاسير و ادوات العلوم، مشتمله على ما يزيد عن آل عمران، من سورة القرآن، و لكنها مع الاطناب الواقع فيها كانت متفرقة كأيدى سبا جزء منها حوته الصبا، و أردت أن الخص ما فرط من الالتقاط، و أضم إليها مما سنح لى من المعارف، و أجعله فى سمط ما أنظمه، و أسرد بانملة البراعة، و إن كنت قليل البضاعة قصير الباعة ما يليه إلى آخر النظم الكريم، ان أمهلنى اللّه العظيم إلى قضاء هذا الوطر الجسيم، و أبيض للناس قدر ما حررته فى الاسابيع و الشهور و افرزته بالتسوية أثناء السطور ليكون ذخرا للآخرة يوم لا ينفع مال و لا بنون، و شفيعا لى حين لا- يجدى نفعا غير الصاد و النون و أسأل اللّه تعالى أن يجعله من صالحات الأعمال، و خالصات الآثار، و باقيات الحسنات إلى آخر الاعمال، فانه إذا أراد بعبد خيرا حسن عمله فى الناس، و أهله لخيرات هى بمنزلة العين من الرأس و هو الفياض» ا ه

و يقول فى آخر التفسير:

«هذا و قد تم تحرير روح البيان فى تفسير القرآن، فى مدة الوحى تقريبا لما أن أقصت الاقدار إلى أقاصى أقطار الأرض، و أيدى الاسفار النائية تداولتنى من طول إلى عرض، حتى أقامنى اللّه مقام الاتمام، فجاء باذن اللّه التمام يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأولى المنتظم فى سلك شهور سنة سبع عشرة و مائة و ألف» ا ه و قد اتقن إسماعيل حقى الفارسية أيضا و كثيرا ما يستخدم الفارسية و التركية فى تفسيره فيورد أبياتا من الشعر بالفارسية أو التركية و جملا بهذه و بتلك.

مناهج المفسرين، ص: ۲۶۹

و هاك نموذجا من تفسيره:

تِلْكَ الرُّسُلُ إشارة إلى الجماعة الذين من جملتهم النبى عليه الصلاة و السلام فاللام فى الرسل للاستغراق فَضَّلْنا بَعْضَ هُمْ عَلى بَعْضٍ بأن خصصناه بمنقبة ليست لغيره، و أعلم أن الأنبياء كلهم متساوون فى النبوة لأن النبوة شىء واحد لا تفاضل فيها و انما التفاضل باعتبار الدرجات بلغ بعضهم منصب الخلة كإبراهيم عليه الصلاة و السلام و لم يحصل ذلك لغيره، و جمع لداود الملك و النبوة و طيب النعمة و لم يحصل هذا لغيره، و سخر لسليمان الجن و الانس و الطير و الريح و لم يحصل هذا لأبيه داود، و خص محمدا عليه و عليهم السلام بكونه مبعوثا إلى الجن و الأنس، و يكون شرعه ناسخا لجميع الشرائع المتقدمة، و منهم من دعا امته بالفعل إلى توحيد الأفعال و بالقوة إلى الصفات و الذات، و منهم من دعا امته بالفعل إلى الصفات أيضا و بالقوة إلى الصفات و الذات، و منهم من دعا بالفعل و هو إبراهيم عليه السلام فانه قطب التوحيد اذ الأنبياء كانوا يدعون إلى المبدأ أو العماد و إلى الذات الأحدية الموصوفة ببعض الصفات الالهية الأحدية و لذا أمر اللّه نبينا صلّى اللّه عليه و سلم باتباعه بقوله ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً (سورة النحل: ۱۲۳) فهو من أتباع إبراهيم باعتبار الجمع دون التفصيل إذ لامتمم لتفاصيل الصفات إلا هو و لذلك لم يكن غيره خاتما فالانبياء و ان كانوا متفاوتين فى درجات الدعوة بحسب مشارب الأمم إلا أن كلهم واصلون فانون فى اللّه باقون باللّه لأن الولاية قبل النبوة حيث أن آخر درجات الولاية أول مقامات النبوة فهى تبنى على الولاية و معنى الولاية الفناء فى اللّه و البقاء باللّه فالنبى لا يكون إلا و اصلا محرزا جميع مراتب التوحيد من الأفعال و الصفات و الذات مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ أى فضله اللّه بأن كلمه بغير واسطة و هو موسى عليه الصلاة و السلام فهو كليمه بمعنى مكالمه و اختلفوا فى الكلام الذى سمعه موسى و غيره من اللّه تعالى هل هو الكلام القديم الازلى الذى ليس من جنس الحروف و الاصوات قال، الأشعرى و أتباعه المسموع هو

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۰

ذلك الكلام الازلى قالوا كما أنه لم تمتنع رؤية ما ليس بمكيف فكذا لا يستعبد سماع ما ليس بمكيف، و قيل سماع ذلك الكلام محال و انما المسموع هو الحروف و الصوت وَ رَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ (سورة البقرة: ۱۵۳) أى عمل درجات أى على درجات فانتصابه على نزع الخافض و ذلك بأن فضله على غيره من وجوه متعددة أو بمراتب متباعدة و الظاهر أنه أراد محمدا صلّى اللّه عليه و سلم لأنه هو المفضل عليهم أوتى ما لم يؤته أحد من الآيات المتكاثرة المرتقية إلى ثلاثة آلاف آية و أكثر و لو لم يؤت الا القرآن وحده لكفى به فضلا منيفا على سائر ما أوتى الأنبياء لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات، و فى الحديث (فضلت على الأنبياء بست أوتيت جوامع الكلم و نصرت بالرعب و احلت لى الغنائم و جعلت لى الأرض مسجدا و طهورا و أرسلت إلى الخلق كافة و ختم بى النبيون)، قال فى التأويلات النجمية اعلم أن فضل كل صاحب فضل يكون على قدر استعلاء ضوء نوره لأن الرفعة فى الدرجات على قدر رفعة الاستعلاء كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ (سورة المجادلة: ۱۱) فالعلم هو الضوء من نور الوحدانية فكلما ازداد العلم زادت الدرجة فناهيك عن هذا المعنى قول النبى عليه السلام فيما يخبر عن المعراج أنه رأى آدم فى السماء الدنيا و يحيى و عيسى فى السماء الثانية و يوسف فى السماء الثالثة و ادريس فى السماء الرابعة، و هارون فى السماء الخامسة، و موسى فى السماء السادسة و إبراهيم فى السماء السابعة و عبر النبى عليه السلام حتى رفع إلى سدرة المنتهى و من ثم إلى قاب قوسين أو أدنى، فهذه الرفعة فى الدرجة فى القرب إلى الحضرة كانت له على قدر قوة ذلك النور فى استعلاء ضوئه و على قدر غلبات أنوار التوحيد على ظلمات الوجود كانت مراتب الانبياء بعضهم فوق بعض فلما غلب نور الوحدانية على ظلمة انسانية النبى عليه السلام اضمحلت و تلاشت و فنيت ظلمة وجوده بسطوات تجلى صفات الجمال و الجلال فكل نبى بقدر بقية ظلمة وجوده بقى فى مكان من أماكن السموات فانه صلى اللّه تعالى عليه و سلم ما بقى فى مكان و لا فى الامكان لأنه كان غائبا عن ظلمة

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۱

وجوده باقيا بنور وجوده و لهذا سماه اللّه نورا و قال قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ (سورة المائدة: ۱۵) فالنور هو محمد عليه السلام و الكتاب هو القرآن، فافهم و اغتنم فانك لا تجد هذه المعانى إلا هاهنا، انتهى كلام التأويلات النجمية.

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۳

فتح القدير للإمام الشوكانى

لقد كتب مفسرنا تاريخا لحياته و كتابه تاريخ الحياة فى جو مفكرى الاسلام نادر و ربما كان أول من بدأ كتابة تاريخ حياته الفكرية فى عالمنا الاسلامى هو الإمام الغزالى فى كتابه «المنقذ من الضلال» و لكن مفسرنا كتب حياته الانسانية يختلط فيها الفكر بالنسب و الحسب و الدراية و التحصيل انه من هجرة شوكان و هو يعتز بهذه البلدة و إليها ينتسب الشوكانى و يقول عنها.

و هذه الهجرة معمورة بأهل الفضل و الصلاح و الدين من قديم الازمان لا يخلو وجود عالم منهم فى كل زمن و لكنه يكون تارة فى بعض البطون و تارة فى بطن أخرى.

تولى والده القضاء مدة أربعين عاما و كان عالما ورعا تقيا و عنى عناية فائقة بابنه و تثقف الابن الثقافة الاسلامية كاعمق ما يكون المثقف لقد حفظ القرآن وجوده و هذا من أهم الامور لمن يشتغل بعلوم الدين و العربية فالقرآن الكريم هو الاساس الأول لكل دارس للدين و لكل نابغ فى العربية.

و بينما كان يدرس القرآن فى المكتب عن له سؤال سأله لوالده القاضى:

انه يقول:

(و إنى أذكر و أنا فى المكتب مع الصبيان أنى سألت والدى رحمه اللّه عن أعلم من بالديار اليمنية اذ ذاك فقال:

فلان يعنى: «عبد القادر بن أحمد».

و وطن نفسه على أن ينال- عند ما يكون أهلا لذلك- فن علم هذا الشيخ.

و قد كان الشوكانى صاحب ذاكرة قوية فحفظ منذ صغره كثيرا من متون

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۴

العلم و المتون هى الصورة الموجزة المركزة لفنون العلم. راقه فى بواكير شبابه الاشتغال بكتب التواريخ و مجاميع الأدب.

و وصل الأمر بنبوغه وجده فى طلب العلم أنه تصدر للافتاء و هو فى سن العشرين و كان مثله فى ذلك مثل العالم الكبير أمير المؤمنين فى الحديث سفيان الثورى العالم النابغة الذى تصدر للفتوى هو الآخر و هو فى سن العشرين.

و كل ذلك حصله فى صنعاء و كان فى صنعاء ذاك الوقت كثير من أفذاذ العلماء و كان يروق للشوكانى أن يدرس الكتاب على عدة من اعلام العلم ليرى منهج كل منهم و ليوازن و يقارن بين أفهام النابهين من أولى العلم و كان هذا الأمر كأنه هو آية عنده.

لقد استمع لشرح كتاب «الأزهار» على أربعة من العلماء. بل انه قرأ شرح «الأزهار» على العالم الكبير أحمد بن محمد الرازى ثلاث مرات و يقول عن ذلك فى طرافة «اثنتان إلى ما تدعو إليه الحاجة و الثالثة استكملنا بها الدقيق و الجليل من ذلك مع بحث و تحقيق.

و يتحدث الشوكانى عن بعض قراءاته على شيخ واحد من مشايخه فيقول:- صحيح مسلم من أوله إلى آخره بلا قوت مع بعض شرحه للنورى، و بعض صحيح البخارى مع بعض شرحه فتح البارى، و بعض جامع الأصول لابن الأثير و سنن الترمذى من أولها إلى آخرها بلا فوت و بعض سنن ابن ماجة و بعض الموطأ و بعض المنتقى لابن تيمية و بعض شفاء القاضى عياض.

و سمعت منه كثيرا من الاحاديث المسلسلة ... و قرأت عليه فى علم الاصطلاح بعض منظومة الزين العراقى و شرحها.

و فى الفقه بعض ضوء النهار و بعض البحر الزخار مع حواشيهما ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۵

و فى علم أصول الدين بعض المواقف العضدية و شرحها للشريف و بعض القلائد و شرحها.

و فى أصول الفقه بعض جمع الجوامع و شرحه للحملى و فى اللغة بعض الصحاح و بعض القاموس و مؤلفه الذى سماه «فلك القاموس» و لما استكمل الشوكانى شيئا من النضج العلمى أصبحت تلمذته نوعا من الاستفادة و الافادة و هو يصف نمطا من ذلك فيقول:

و كانت القراءات جميعها تجرى فيها المباحث الجارية على نمط الاجتهاد فى الاصدار و الايراد ما تشد إليه الرجال و ربما انجد البحث إلى تحرير رسائل مطولة و وقع من هذا كثير.

و كنت أحرر ما يظهر لى فى بعض المسائل و اعرضه عليه فان و افق ما لديه من اجتهاده فى تلك المسألة .. قرظة تارة بالنظم الفائق، و تارة بالنثر الرائق ..

و ان لم يوافق كتب عليه ثم أكتب على ما كتبه ثم كذلك فان بعض المسائل التى وقعت فيها المباحثة حال القراءة اجتمع ما حررته و حرره فيها إلى سبع رسائل.

و كانت هذه الطريقة هى بداية التأليف عند الامام الشوكانى.

و لقد ساعده على التأليف استاذه الكبير عبد القادر بن أحمد الذى دله عليه والده و هو فى المكتب صبيا لقد كان هذا الشيخ يدفعه دفعا إلى القراءة فى كتب معينة يرشده إليها و يقول الشوكانى فى ذلك.

و ما سألته القراءة عليه فى كتاب فابى قط بل كان يبتدينى تارات و يقول، تقرأ فى كذا و كان يبذل لى كتبه و يؤثر بها على نفسه.

بل كان يقترح عليه الكتب التى يؤلفها كما رغبه فى تأليف شرح المنتقى فشرع الشوكانى فى هذا و عرض عليه عددا من الكراريس التى انتهى منها

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۶

فقال: اذا تم على هذه الكيفية كان فى نحو عشرين مجلدا و أهل العصر لا يرغبون فيما بلغ من التطويل إلى دون هذا المقدار.

ثم أرشدنى إلى الاختصار ففعلت ..

و ما كان هذا الشيخ وحده هو الذى يفعل مع الشوكانى ذلك، و إنما كان غيره من خيرة الشيوخ يفعلون ذلك أيضا، و كان الشيوخ اذ ذاك يتخذون العلم رسالة يريدون بها وجه اللّه، و لا يتخذونه حرفة أو مهنة، و كانوا كلما رأوا طالبا مجدا ساعدوه مساعدة فعاله، ساعدوه فى العلم و ساعدوه فى السلوك حتى يصبح شيخا له تلاميذ يساعد المجد منهم فى العلم، و يساعده فى حسن السلوك.

و تربع الشوكانى على منصة العلم فى صنعاء، و درس و أفتى، و كان الناس لا يكادون يذهبون فى الفتوى إلى غيره، و كانوا يحبون أن ينفحوه على الفتوى بعض المال فكان يأبى و يقول هذه الكلمات النفيسة:

«أنا أخذت العلم بلا سبب فأريد انفاقه كذلك».

و فى سنة ۱۲۰۹ ه كان الشوكانى فى السادسة و الثلاثين من عمره المبارك، توفى قاضى القضاة، و نترك الآن للشوكانى يقص ما جرى، و هى قصة لها مغزاها العميق نضعها أمام طلاب الدنيا و المناصب الذين يجرون وراء الرئاسة و الحكم:

و كان المتولى لهذا المنصب مرجع العامة و الخاصة و عليه المعول فى الرأى و الاحكام و مستشار الامام الوزراء فيما يعرض لهم و للدولة من احداث أو ما ينوبهم من أمور:

فلما مات فى ذلك التاريخ و كنت اذ ذاك مشتغلا بالتدريس فى علوم الاجتهاد و الافتاء و التصنيف مجتمعا عن الناس لا سيما أهل الأمر و أرباب الدولة، فانى لا اتصل بأحد منهم كائنا من كان.

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۷

و لم يكن لى رغبة فى شىء سوى العلم و كنت أدرس للطلبة فى اليوم الواحد نحو ثلاثة عشر درسا منها ما هو فى التفسير كالكشاف و حواشيه، و منها ما هو فى الأصول كالعضد و حواشيه و الغاية و حواشيها، و جمع الجوامع و شرحه و حاشيته.

و منها ما هو فى المعانى و البيان كالمطول و المختصر و حواشيهما، و منها ما هو فى النحو كشرح الرضى على الكافية و المغنى، و منها ما هو فى الفقه كالبحر و ضوء النهار، و منها ما هو فى الحديث كالصحيحين و غيرهما، مع ما يعرض من تحرير الفتاوى و يمكن من التصنيف: فلم أشعر إلا بطلاب لى من الخليفة بعد موت القاضى المذكور بنحو اسبوع فعزمت إلى مقامه العالى فقال لى أنه قد رجح قيامى مقام القاضى المذكور، فاعتذرت له بما كنت فيه من الاشتغال بالعلم، فقال: القيام بالامرين ممكن و ليس المراد إلا القيام بفصل ما يصل من الخصومات إلى ديوانه العالى فى يومى اجتماع الحكام فيه.

فقلت: سيقع منى الاستخارة للّه و الاستشارة لا هل الفضل و ما اختاره اللّه ففيه الخير.

فلما فارقته ما زلت مترددا نحو اسبوع و لكنه وفد إلى غالب من ينتسب إلى العلم فى مدينة صنعاء و اجمعوا على أن الاجابة واجبة، و أنهم يخشون أن يدخل هذا المنصب. الذى إليه مرجع الاحكام الشرعية فى جميع الأقطار اليمنية- من لا يوثق بدينه و علمه و أكثروا من هذا و أرسلوا إلى بالرسائل المطولة.

فقبلت مستعينا باللّه و متكلا عليه.

و لقد ألف الشوكانى كثيرا من الكتب منها:

۱- نيل الاوطار فى الفقه.

۲- ارشاد الغبى و هو كتاب نفيس يتحدث فيه الشوكانى عن وجوب البعد عن ذم الصحابة أو سبهم و هو كتاب ضروى فى أوساط الشيعة.

۳- كتاب البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع.

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۸

۴- تفسير القرآن المسمى: فتح القدير الجامع بين فن الرواية و الدراية من التفسير.

و عنوان هذا الكتاب يشرح الطريقة، فهى ليست طريقة التفسير بالمأثور تقتصر على ايراد ما ورد فى الآية من الآثار كما فعل مثلا الامام السيوطى فى تفسيره الذى اقتصر فيه على ايراد ما ورد من الماثورات.

و ليس تفسيرا يجعل كل همه العقليات كما فعل مثلا أبو مسلم الاصفهانى أو الفخر الرازى و أنما هو تفسير يجمع بين» الرواية و الدراية» و الرواية، هى ايراد المأثورات و الدراية هى ابداء الرأى الشخصى بعد الفهم و التأمل فى الآية و ما روى عنها، و نأتى الآن بنموذج منه.

يقول اللّه تعالى فى سورة الأنبياء إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ ما هذِهِ التَّماثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَها عاكِفُونَ، قالُوا وَجَدْنا آباءَنا لَها عابِدِينَ، قالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (سورة الأنبياء: ۵۲، ۵۳، ۵۴) و هكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل الملة الاسلامية، فان العالم بالكتاب و السنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل. قالوا: هذا قد قال به امامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين و برأيه آخذين. و جوابهم هو ما أجاب به الخليل هاهنا (قال لقد كنتم أنتم و آباؤكم فى ضلال مبين) أى فى خسران واضح لا يخفى على أحد و لا يلتبس على ذى عقل، فإن قوم إبراهيم عبدوا الاصنام التى لا تضر و لا تنفع و لا تسمع و لا تبصر، و ليس بعد هذا الضلال ضلال، و لا يساوى هذا الخسران خسران. و هؤلاء المقلدة من أهل الاسلام استبدلوا بكتاب اللّه، و بسنة رسوله كتابا فدونت- اجتهادات عالم من علماء الاسلام، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها، أما لقصور منه، أو لتقصير فى البحث، فوجد ذلك الدليل من وجده، و ابرزه واضح المنار كأنه علم فى رأسه نار، و قال: هذا كتاب اللّه أو هذه سنة رسول اللّه.

مناهج المفسرين، ص: ۲۷۹

و يقول فى تفسير: وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (سورة آل عمران: ۱۶۹) و قد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم؟

فقيل: شهداء أحد. و قيل فى شهداء بدر، و قيل فى شهداء بئر موتة ..

و على فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .. و معنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققه .. ثم اختلفوا: فمنهم من قال: أنها ترد إليهم ارواحهم فى قبورهم فيتنعمون. و قال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها و ليسوا فيها. و ذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية و المعنى: أنهم فى حكم اللّه مستحقون للنعم فى الجنة، و الصحيح الأول، و لا موجب للمصير إلى المجاز و قد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى اجواف طيور خضر، و أنهم فى الجنة يرزقون و يأكلون ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۸۱

الإمام الألوسى و تفسيره روح المعانى

اشارة

الألوسى هو العلامة المحقق شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى مفتى بغداد.

و كان مولده فى جانب الكرخ من بغداد سنة سبع و مائتين بعد الألف من الهجرة النبوية.

أخذ العلم عن العلماء الاعلام، و على رأسهم والده و كان من العلماء الكبار و الشيخ على السويدى، و الشيخ خ‌ل د النقشبندى .. و كان حرصه على العلم و ما وهبه اللّه من قدرة على التحصيل، و تمكن من الفهم، و عمل على التزود من العلم من العوامل التى جعلت

منه أرضا خصبة صالحة للانبات، فأثمر علما يانعا جعل منه شيخ علماء العراق، و صاحب التفسير الجامع الكبير.

ابتدأ النشاط العلمى الزاخر و هو ابن ثلاث عشرة سنة، و درس فى عدة مدارس و كان حريصا على تبليغ العلم كما كان حريصا على جمعه، فكان يشجع طلاب العلم و يواسيهم بما يملك، و يقدم لهم ما يستطيع من وسائل الحياة و متطلباتها ليتفرغوا للبحث و التحصيل.

و تقلد الألوسى الكثير من المناصب العلمية، و الاعمال المتصلة بالناحية الدينية فعين مفتيا للحنفية فى السنة الثامنه و الأربعين بعد المائتين و الألف من الهجرة المحمدية.

كما تولى قبل ذلك أوقاف المدرسة المرجانية ... و تفرغ فى شوال سنة ثلاث و ستين و مائتين بعد الألف لتفسير القرآن الكريم حتى أتمه، ثم سافر إلى القسطنطينية فى السنة السابعة و الستين بعد المائتين و الألف عارضا تفسيره على السلطان عبد المجيد خان، فنال اعجابه و رضاه ..

مناهج المفسرين، ص: ۲۸۲

تميز الألوس بسرعة الفهم، و اتساع الحافظة، و ثبات الحفظ، حتى لقد عبر عن ذلك شاكرا فقال:

ما استودعت ذهنى شيئا فخاننى، و لا دعوت فكرى لمعضلة إلا و أجابنى و كان جادا فى تحصيل العلم، لا يبالى بما يصيبه فيه، شعاره هذه البيت المشهور:

سهرى لتنقيح العلوم الذلىمن وصل غانية و طيب عناق و خلف رحمه اللّه كثيرا من المؤلفات المفيدة فضلا عن تفسيره المشهور ..

منها حاشية على القطر فى النحو، أكملها إلى موضع الحال، و شرح المسلم فى المنطق و الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية، و الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية و درة الغواص فى أوهام الخواص، و النفحات القدسية فى المباحث الامامية و الفوائد السنية فى علم آداب البحث ..

و قد توفى رحمه اللّه فى يوم الجمعة الخامس و العشرين من ذى القعدة ۱۲۷۰ ه و دفن مع أهله فى مقبرة الشيخ معروف الكرخى .. رحمه اللّه و نفع بعلمه ..

التفسير

قدم الألوسى لكتابه بمقدمة مهمة، بين فيها منهجه، و حدد فيها سبب تأليفه له، و ألمح إلى بعض مظاهر حياته، و جوانب شخصيته فقال بعد الحمد و الثناء:

أما بعد، فيقول عيبة العيوب، و ذنوب الذنوب، أفقر العباد إليه عز شأنه، مدرس دار السلطنة العلية، و مفتى بغداد المحمية، أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى عفى عنه.

مناهج المفسرين، ص: ۲۸۳

ان العلوم و ان تباينت اصولها و غربت و شرقت فصولها، و اختلفت احوالها فهى بأسرها مهمة.

ثم بين أن اعلاها قدرا، و أغلاها مهرا علم التفسير، الباحث عما اراده اللّه سبحانه بكلامه المجيد، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثم قال بعد ذلك:

و أنى- و للّه تعالى المنة- مذ ميطت عنى التمائم، و نيطت على رأسى العمائم لم أزل متطلبا لاستكشاف سره المكتوم، مترقبا لارتشاف رحيقه المختوم طالما فرقت نومى لجمع شوارده، و فارقت قومى لوصال خرائده فلو رأيتنى و أنا أصافح بالجبين صفحات الكتاب من السهر، و اطالع- ان أعوز الشمع يوما- على نور القمر، فى كثير من ليالى الشهر، و امثالى إذ ذاك يرفلون فى مطارف اللهو، و يرقلون

فی میادین الزهو و یؤثرون مسرات الاشباح علی لذات الارواح، و یهبون نفائس الاوقات لنهب خصائص الشهوات، و أنا مع حداثة سنی، و ضیق عطنی، لا- تغرینی حالهم و لا- تغرینی افعالهم، کان لبنی لبانتی، و وصال سعدی سعادتی حتی وقفت علی کثیر من حقائقه، و وفقت لحل وفیر من دقائقه، و ثقبت- و الثناء للّه تعالی- من دره بقلم فکری درا مثمنا، و لا بدع فأنا من فضل اللّه الشهاب و أبو الثناء و قبل أن یکمل سنی العشرین جعلت اصدح به و اصدع، و شرعت أدفع کثیرا من اشکالات الأشکال و ادفع، و أتجاهر بما الهمنیه ربی مما لم أظفر به فی کتاب من دقائق التفسیر، و أعلق علی ما أغلق مما لم تعلق به ظفر کل ذی ذهن خطیر و لست أنا أول من من اللّه تعالی علیه بذلک، و لا آخر من سلک فی هاتیک المسالک فکم و کم للزمان ولد مثلی، و کم تفضل الفرد عز شأنه علی کثیر بأضعاف مثلی:

ألا أنما الأیام أبناء واحدو هذی اللیالی کلها أخوات ألا أن ریاض الأعصار أعصار، و حیاض تیک الامصار اعتراها

مناهج المفسرین، ص: ۲۸۴

اعتصار، فصار العلم بالقیوق و العلماء أعز من بیض الأنوق. و الفضل معلق باجنحة النسور، و میت حی الأدب لا یرجی له نشور:

کان لم یکن بین الحجون إلی الصفاأنیس و لم یسمر بمکة سامر و لکن الملک المنان- أبقی من فضله الکثیر قلیلا من ذوی العرفان، فی هذه الازمان دینهم اقتناص الشوارد، و دیدنهم افتضاض ابکار الفوائد، یرون فیرمون، و یقدحون فیرون، لکل منهم مزیة لا یستتر نورها، و مرتبة لا ینتثر نورها، طالما اقتطفت من ازهارهم، و اقتبست من انوارهم، و کم صدر منهم أودعت علمه صدری، و حبر فیهم افنیت فی فوائده حبری، و لم أزل مدة علی هذه الحال لا أعبأ بما عبا لی مما قیل أو یقال، کتاب اللّه لی أفضل مؤنس، و سمیری إذا اخلوا لکشف ظلمة الحناوس.

نعم السمیر کتاب اللّه أن لهحلاوة هی احلی من جنی الضرب

به فنون المعانی قد جمعن فماتفتر من عجب ألا إلی عجب

أمر و نهی و أمثال و موعظةو حکمة أودعت فی أفصح الکتب

طائف یجتلیها کل ذی بصرو روضة یجتنیها کل ذی ادب و کانت کثیرا ما تحدثنی فی القدیم نفسی، أن أحبس فی قفص التحریر ما اصطاده الذهن بشبکة الفکر، أو اختطفه باز الالهام فی جو حدس.

فاتعلل تارة بتشویش البال یضیق الحال، و أخری یفرط الملال وسعة المجال إلی أن رأیت فی بعض لیالی الجمعة من رجب الأصم سنة الألف و المائتین و الاثنتین و الخمسین بعد هجرة النبی صلّی اللّه علیه و سلم رؤیة لا أعدها اضغاث احلام- و لا أحسبها خیالات أوهام: إن اللّه جل شأنه- و عظم سلطانه امرنی بطی السموات و الأرض و رتق فتقهما علی الطول و العرض، فرفعت یدا إلی السماء، و خفضت الأخری إلی مستقر الماء- ثم انتبهت من نومتی و أنا مستعظم رؤیتی فجعلت افتش لها عن تعبیر، فرأیت فی بعض الکتب أنها إشارة إلی تألیف تفسیر،

مناهج المفسرین، ص: ۲۸۵

فرددت حینئذ علی النفس تعللها القدیم و شرعت مستعینا باللّه تعالی العظیم.

و کأنی ان شاء اللّه عن قریب عند اتمامه بعون عالم سری و نجوای، أنادی و أقول غیر مبال بتشنیع جهول: هذا تأویل رؤیای، و کان الشروع فی اللیلة السادسة عشرة من شعبان المبارک من السنة المذکورة و هی السنة الرابعة و الثلاثون من سنی عمری جعلها اللّه تعالی بسنی لطفة میسورة و هاک نموذجا من تفسیره:- قال تعالی: وَ لا تَأْکُلُوا أَمْوالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْباطِلِ وَ تُدْلُوا بِها إِلَی الْحُکَّامِ- لِتَأْکُلُوا فَرِیقاً مِنْ أَمْوالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

(سورة البقرة: ۱۸۸) (و لا تأکلوا اموالکم بینکم بالباطل).

و المراد من- الأکل ما یعم الأخذ و الاستیلاء، و عبر به لأنه أهم الحوائج و به یحصل اتلاف المال غالبا ..

و المعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض، فهو على حد وَ لا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ سورة الحجرات: ۱۱ من تقسيم الجمع على الجمع، كما فى «راكبو دوابهم» حتى يكون معناه لا يأكل واحد منكم مال نفسه، بدليل قوله سبحانه: (بينكم) فإنه- بمعنى الواسطة- يقتضى أن يكون ما يضاف إليه منقسما إلى طرفين، يكون الأكل و المال حال الأكل متوسطا بينهما، و ذلك ظاهر على المعنى المذكور، و الظرف متعلق ب «تأكلوا» كالجار و المجرور بعده، أو بمحذوف حال من (الأموال) و الباء للسببية، و المراد- من «الباطل» الحرام، كالسرقة، و الغضب، و كل ما لم يأذن بأخذه الشرع.

(و تدلوا بها إلى الحكام) عطف على تأكلوا، فهو منهى عنه مثله، مجزوم بما جزمه و جوز نصبه بأن مضمرة، و مثل هذا التركيب و ان كان للنهى عن الجمع إلا أنه لا ينافى أن يكون كل من الأمرين منهيا عنه.

مناهج المفسرين، ص: ۲۸۶

و الادلاء فى الاصل إرسال الحبل فى البئر ثم استعير للتوصيل إلى الشيء أو الالقاء و الباء صلة الادلاء، و جوز أن تكون سببه، و الضمير المجرور للاموال أى لا تتوصلوا أو لا تلقوا بحكومتها و الخصومة فيها إلى الحكام، و قيل لا تلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة و قرأ أبى (و لا تدلوا) (لتأكلوا) بالتحاكم و الرفع إليهم.

فريقا: جملة.

من اموال الناس بالاثم: أى بسبب ما يوجب اثما كشهادة الزور و اليمين الفاجرة و يحتمل أن تكون الباء للمصاحبة، أى متلبسين بالاثم، و الجار و المجرور على الاول متعلق بتأكلوا .. و على الثانى حال من فاعله، و كذلك:

(و انتم تعلمون) و مفعول العلم محذوف أى: تعلمون أنكم مبطلون.

و فيه دلالة على أن من لا يعلم أنه مبطل و حكم له الحاكم يأخذ مال يجوز له أخذه اخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير مرسلا أن عبد اللّه بن أشوع الحضرمى و امرؤ القيس بن عابس اختصما فى أرض و لم تكن بينه، فحكم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بأن يحلف امرؤ القيس فهم به، فقرأ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم:

إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَ أَيْمانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلًا (سورة آل عمران: ۷۷) فارتدع عن اليمين و سلم الأرض فنزلت.

و استدل بها على أن حكم القاضى لا ينقذ باطنا فلا يحل به الأخذ فى الواقع و إلى ذلك ذهب الشافعى رضى اللّه تعالى عنه، و أبو يوسف محمد، و يؤيده ما أخرجه البخارى و مسلم عن أم سلمه زوج النبى صلّى اللّه عليه و سلم أن رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و سلم قال:- «إنما أنا بشر و إنكم تختصمون إلى، و لعل بعضكم أن يكون الحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما اسمع منه فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فلا يأخذنه فإنما اقطع له قطعة من النار».

مناهج المفسرين، ص: ۲۸۷

و ذهب الامام أبو حنيفة رضى اللّه تعالى عنه إلى أن الحاكم إذا حكم بينه بعقد أو فسخ عقد مما يصح أن يبتدأ فهو نافذ ظاهرا و باطنا و يكون كعقد فداء، و إن كان الشهود زورا كما روى أن رجلا خطب امرأة هو دونها فأبت فادعى عند على كرم اللّه تعالى وجهه أنه تزوجها، و أقام شاهدين، فقالت المرأة لم اتزوجه و طلبت عقد النكاح فقال على كرم اللّه تعالى وجهه:

قد زوجك الشاهدان، و ذهب فيمن ادعى حقا فى يدى و أقام بينة تقتضى أنه له و حكم بذلك الحاكم أنه لا يباح له أخذه، و ان حكم الحاكم لا يبيح له ما كان قبل محظورا عليه و حمل الحديث على ذلك، و الآية ليست نصا فى مدعى مخالفيه لانهم ان أرادوا أنها دليل على عدم النفوذ فى الجملة فسلم و لا نزاع فيه، لأن الامام الأعظم رضى اللّه تعالى عنه يقول بذلك، لكن فيما سمعت و المسألة معروفة فى الفروع و الأصول و لها تفصيل فى أدب القاضى فارجع إليه.

مناهج المفسرين، ص: ۲۸۹

حاشية الإمام الصاوى على الجلالين

و الجلالين هنا هما جلال الدين المحلى، و جلال الدين السيوطى، و قد اشتركا فى تفسير القرآن غاية فى الإيجاز، و ربما كان أوجز تفسير للقرآن.

أما الذى نتحدث عنه اليوم فهو حاشية العالم العلامة العارف باللّه تعالى، الشيخ أحمد الصاوى المالكى على هذا التفسير.

و الشيخ الصاوى إمام من أئمة علماء الأزهر، و صوفى من كبار الصوفية، و شيخه فى الطريق هو الامام الدردير الملقب بأبى البركات، شيخ الدردير هو الإمام الأكبر الشيخ الحفنى الملقب بأبى الأنوار ..

و الشيخ الصاوى مالكى المذهب، خلوتى الطريقة، من اقليم الغربية، بلدة «صان الحجر» بمصر، ولد سنة ۱۱۷۵ ه ۱۷۶۱ ميلادية.

و كانت وفاته بالمدينة المنورة سنة ۱۲۴۱ ه ۱۸۲۵ ميلادية.

و له كتب، و له حواش على بعض كتب شيخه الشيخ أحمد الدردير فى فقه المالكية.

و له شرح مشهور على صلوات الدردير طبع عدة مرات بالقاهرة.

و هو يسير فى تفسيره للقرآن على نمط العلماء المتزنين، و على نهج الصوفية الصادقين المتواضعين.

إنه يقول مثلا فى أوائل حاشيته مفسرا منهجه و طريقته:

و بعد: فيقول العبد الفقير الذليل أحمد بن محمد الصاوى المالكى الخلوتى:

و لما كان علم التفسير اعظم العلوم مقدارا، و أرفعها شرفا و منارا، إذ هو

مناهج المفسرين، ص: ۲۹۰

رئيس العلوم الدينية و رأسها، و مبنى قواعد الشرع و اساسها، و كان كتاب الجلالين من أجل كتب التفسير، و اجمع على الاعتناء به الجم الغفير، من أهل البصائر و التنوير، و جاءنى الداعى الالهى بقراءته، فاشتغلت به على حسب عجزى، و وضعت عليه ملخصة من حاشية شيخنا العلامة المحقق المدقق الورع الشيخ سليمان الجمل، مع زوائد و فوائد فتح بها مولانا من نور كتابه و إنما اقتصرت على تلخيص تلك الحاشية لكونى وجدتها ملخصة من جميع كتب التفسير التى بأيدينا تنسب لنحو عشرين كتابا منها البيضاوى و حواشيه، و حواشى هذا الكتاب ... و منها الخازن و الخطيب و السمين و أبو السعود و الكواشى و البحر و النهر و الساقية و القرطبى و الكاشف و ابن عطية و التحبير و الاتقان، و لم انسب العبارات لاصحابها غالبا اكتفاء بنسبة الأصل، و اللّه على ما أقول وكيل، و هو حسبى و كفى، و سلام على عباده الذين اصطفى ..

و قد تلقيت هذا الكتاب من أوله إلى آخره مرتين عن العلامة الصوفى سيدى الشيخ سليمان الجمل و عن الامام أبى البركات العارف باللّه تعالى استأذنا الشيخ أحمد الدردير، و عن أستاذنا العلامة الشيخ الامير، و كل من هؤلاء الأئمة تلقاه عن تاج العارفين شمس الدين سيدى محمد بن سالم الحفناوى، و عن أبى الحسن سيدى الشيخ على الصعيدى العدوى و مما يرويه فى مقدمته.

هذا الترتيب الذى نقرؤه توقيفى.

و نزل القرآن على النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى ثلاث و عشرين سنة على حسب الوقائع لقول اللّه تعالى:- وَ لا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَ أَحْسَنَ تَفْسِيراً (سورة الفرقان: ۳۳) لكنه نزل لا- على هذا الترتيب، فإنه نزل عليه ثلاث و ثمانون سورة بمكة قبل الهجرة و بالمدينة احدى و ثلاثون على التحقيق.

فأول ما نزل بمكة: اقرأ.

مناهج المفسرين، ص: ۲۹۱

و آخر ما نزل بها: قيل: العنكبوت، و قيل: المؤمنون، و قيل المطففين، و أول سورة نزلت بالمدينة: البقرة.

و آخر سورة نزلت بها: المائدة.

و أما أول آية نزلت على الاطلاق: فأقرأ باسم ربك.

و آخر آية على الاطلاق: «و اتقوا يوما ترجعون فيه إلى اللّه».

و من طريق ما يقوله فى مقدمته:

و عدة حروف القرآن: ألف ألف و خمسة و عشرون ألفا.

و عدة آياته: ستة آلاف و ستمائة و ستة و ستون آية.

و نصفه بحسب الآيات قوله تعالى فى سورة الشعراء:

فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (الآية رقم ۴۵) و نصفه بحسب الحروف قوله تعالى:

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (سورة الكهف: ۷۴) فالنون من النصف الأول، و الكاف من الثانى.

و نصفه بحسب السور: الحديد، و المجادلة من النصف الثانى ..

و عدة كلماته سبعة و سبعون ألفا و أربعمائة و خمسون كلمة.

و ترتيب السور هكذا توقيفى.

و أما وضع أسمائها فى المصاحف، و تقسيمها إلى أعشار و أرباع، و أثلاث و أجزاء، و أحزاب فمن الحجاج الثقفى بأخذ من الصحابة فى وضع أسماء السور، و باجتهاد منه فى تقسيمه إلى ما ذكر و لذلك تجد ابتداء الربع وسط قصة.

مناهج المفسرين، ص: ۲۹۲

و كان الامام الصاوى يأخذ على الحجاج أنه لم يراع المعنى فى ابتداء أرباع القرآن الكريم و النماذج التى نوردها نحاول أن تكون من خصائص الامام البيضاوى.

فهو عند قوله تعالى فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ (سورة البقرة: ۱۵۲) يقول: معنى اذكرونى: تذللوا لجلالى.

اذكركم: اكشف الحجب عنكم، و افيض عليكم رحمتى و احسانى، و أحبكم، و أرفع ذكركم فى الملأ الاعلى، لما فى الحديث: (من تقرب إلى شبرا تقربت منه ذراعا).

و فى الحديث أيضا: إن اللّه إذا أحب عبدا نادى جبريل فقال له:

يا جبريل، إنى أحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى فى السماء: إن اللّه يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول فى الأرض.

و هذا من جملة الثمرات المعجلة، و أما المؤجلة فرؤية وجه ربه الكريم، و رفع الدرجات و غير ذلك ..

و ينبغى للانسان أن يذكر اللّه كثيرا، لقوله تعالى:

وَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَ الذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْراً عَظِيماً. (سورة الاحزاب: ۳۵) و لا يلتفت لواش و لا رقيب، لقول السيد الحفنى خطابا للعارف باللّه تعالى، استاذنا الشيخ الدردير:

يا مبتغى طرق أهل اللّه و التسليكدع عنك أهل الهوى تسلم من التشكيك

أن اذكرونى لرد المعترض يكفيكفاجعل سلاف الجلالة دائما فى فيك و لا تترك الذكر لعدم حضورك مع اللّه فيه، فربما ذكر مع غفلة يجر لذكر

مناهج المفسرين، ص: ۲۹۳

مع حضور، لأنهم شبهوا الذكر بقدح الزناد، فلا يترك الانسان القدح لعدم ايقاده من أول مرة مثلا، بل يكرر حتى يوقد، فإذا ولع القلب نارت الاعضاء فلا يقدر الشيطان على وسوسته، لقوله تعالى:- إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّرُوا (سورة الاعراف: ۲۰۱) و خفت العبادة على الاعضاء فلا يكون على الشخص كلفة فيها، قال العارف:

إذا رفع الحجاب فلا ملالهبتكليف الإله و لا مشقّة و يكفى الذاكر من الشرف قول اللّه تعالى فى الحديث القدسى:
(أنا جليس من ذكرنى) و قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (الأنفال: ۴۵) و هل الأفضل الذكر مع الناس، أو الذكر فى خلوة؟ و الحق التفصيل، و هو ان كان الانسان ينشط وحده، و لم يكن مدعوا من اللّه لهداية الناس، فالخلوة فى حقه أفضل و إلا فذكره مع الناس أفضل، إما لينشط أو لتقتدى الناس به.
نسأل اللّه أن يجعلنا من أهل ذكره.
و عند قوله تعالى:
وَ اشْكُرُوا لِى (سورة البقرة: ۱۵۲) يقول:
مناهج المفسرين، ص: ۲۹۴
الحق أنه يتعدى بنفسه و باللام و المعنى واحد، و هو من عطف الخاص على لعام و النكتة فى الذكر، فإن المقاصد فى الذكر مختلفة، فمن قصد بذكره لدنيا فقط فهو دنى، و من قصد بذكره الجنة و النجاة من النار فهو اعلى من لأول، و من قصد بذكره شكر اللّه على خلقه إياه و انعامه عليه، و لم يقصد غيره فهو من المقربين لما فى الحديث: أ فلا أكون عبدا شكورا.
مناهج المفسرين، ص: ۲۹۵

الإمام جمال الدين القاسمى و تفسيره محاسن التأويل

اشارة

من علماء الشام الكبار المحقق المدقق العالم الجليل جمال الدين ابن محمد سعيد بن قاسم القاسمى.
ولد فى سنة ثلاث و ثمانين و مائتين و ألف و نشأ فى حجر والده و تلقى مبادئ العلوم الدينية و الشرعية على يديه ثم تلقى سائر العلوم على كثير من علماء عصره و من أبرزهم الشيخ بكرى العطار و الشيخ عبد الرازق البيطار.
مدحه أمير البيان شكيب ارسلان فكان مما قال عنه: كان فى هذه الحقبة الأخيرة جمال دمشق، و جمال القطر الشامى بأسره فى غزارة فضله وسعة علمه.
و شفوف حسه و ذكاء نفسه و كرم اخلاقه و شرف منازعه و جمعه بين الشمائل الباهية و المعارف المتناهية.
و قد سما فى العلم و الفضل و علا فى سماء الشهرة و المجد حتى صار هو و الشيخ عبد الرازق البيطار علمين من أعلام الشام تشابها كما يقول الأمير شكيب فى سماحة الخلق و رجاحة العقل و نبالة القصد و غزارة العلم و الجمع بين العقل و النقل و الرواية و الفهم و لم يكن فى وقتهما أعلى منهما فكرا و أبعد نظرا و أثقب ذهنا فى فهم المتون و النصوص و التميز بين العموم و الخصوص، و كان وجودهما ضربة شديدة على الحشوية، الفرقة المجسمة فى العقائد تلك الطبقة الجاحدة التى صارت هى و أمثالها حجة على الاسلام فى تدهوره، و قال عنه الشيخ رشيد رضا:
مناهج المفسرين، ص: ۲۹۶
هو علامة الشام و نادرة الايام و المجدد لعلوم الاسلام محيى السنة بالعلم و العمل و التعليم و التهذيب و التأليف واحد حلقات الاتصال بين هدى السلف و الارتقاء الذى يقتضيه الزمن الفقيه الاصولى المفسر المحدث الأديب المتفنن التقى الأواب الحليم الأواه- العفيف النزيه صاحب التصانيف الممتعة و الابحاث المقنعة.
بدأ الشيخ حياته العلمية مدرسا فى حياة والده فلما توفى والده تولى مكانة فى خدمة امامه فى جامع السنانين بدمشق و مارس نشاطه العلمى فى التأليف و الشرح و النقد و الاصلاح حتى ازدهرت تأليفه و كثرت مصنفاته و وصل عددها إلى ما يقرب من الثمانين ما بين

مخطوط و مطبوع و من أشهرها:

- محاسن التأويل فى تفسير القرآن الكريم.

- و منها:

- فصل الكلام فى حقيقة عود الروح إلى الميت حين الكلام.

- بحث فى جمع القراءات المتعارف عليها.

- دلائل التوحيد.

- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين.

- قواعد التحديث فى فنون مصطلح الحديث.

طريقته فى التأليف

: تعتمد طريقته فى التأليف على النقل الواعى من التراث الاسلامى الزاخر و الاكتفاء بالترتيب و التبويب و التعقيب اللطيف أو الاستدراك الخفيف.

و كان من المعجبين بالشيخ ابن تيمية و من اقطاب المدرسة السلفية و قد اكتسب خبرة واسعة فى الاطلاع و الاحاطة حتى لقد حكى عن نفسه أنه قد من اللّه عليه بفضله فاسمع صحيح مسلم رواية و دراية فى مجالس من اربعين يوما

مناهج المفسرين، ص: ۲۹۷

و سنن ابن ماجة احدى و عشرين يوما و الموطأ فى تسعة عشر يوما و طالع بنفسه لنفسه كتاب تقريب التهذيب لابن حجر مع تصحيح سهو القلم فيه و ضبطه و تحشيته من نسخة مصححة جدا ثم قال: و هذه الكتب قرأتها اثر بعضها فأجهدت نفسى و بصرى حتى رمدت.

و لقد ذكرنا ذلك لنعرف بهمته العالية و اطلاعه الواسع و علمه الغزير و لشدة عنايته بالاصلاح و اخلاصه فى بث الدعوة و نشر الدين و الحرص على التجديد.

اتهم بالدعوة إلى مذهب جديد فى الدين سمى بالمذهب الجمالى و قبض عليه و حقق معه و لكنه رد التهمة و أثبت براءته فأخلى سبيله.

و لم تخل حياته من التنقل و الارتحال فرحل إلى مصر و زار المدينة و عاد إلى دمشق فانقطع فى منزله للتصنيف و القاء الدروس الخاصة و العامة فى التفسير و الأدب و علوم الشريعة إلى أن وافاه الموت فى شهر رجب من سنة اثنين و ثلاثين و ثلاثمائة و ألف من الهجرة.

رحمه اللّه و نفع به.

تفسير القاسمى

إذا أحببت أن تقرأ تفسيرا كاملا للقرآن لا تجد فيه خرافة و لا أسطورة و لا شيئا من الإسرائيليات المذمومة التى حشيت بها التفاسير فعليك بكتاب الإمام القاسمى (محاسن التأويل) الذى فسر به القرآن الكريم تفسيرا يعتبر نموذجا إلى حد كبير ..

و قد تحدث القاسمى فى مقدمة تفسيره فقال بعد أن أثنى على القرآن:

(و إنى كنت حركت الهمة إلى تحصيل ما فيه من الفنون و الاكتمال باثمد مطالبه لتنوير العيون فاكببت على النظر فيه و شغفت بتدبير لآلئ عقوده و دراريه

مناهج المفسرين، ص: ۲۹۸

و تصفحت ما قدر لی من تفاسير السابقين و تعرفت- حين درست- ما تخللها من الغث و الثمين- و رأيت كلا- بقدر وسعه- حام حول مقاصده، و بمقدار طاقته جال فی ميدان دلائله و شواهده، و بعد أن صرفت فی الكشف عن حقائقه شطرا من عمری و وقفت علی الفحص عن دقائقه قدرا من دهری أردت أن انخرط فی سلك مفسريه الأكابر قبل أن تبلی السرائر و تفنی العناصر).

و قد استخار اللّه تعالی فی تسميته و تأليفه ثم شرع فی تنفيذ ما عزم عليه فكان هذا الكتاب الجليل.

و كان شروعه فی هذا التفسير بعد تكرار الاستخارة فی العشر الأول من شوال سنة ست عشرة و ثلاثمائة و ألف من الهجرة و ما أن تم هذا العمل الجليل حتی تفسيرا حافلا فی سبعة عشر مجلدا.

فسد فراغا و حقق نفعا للعامة و الخاصة و نفع اللّه به المسلمين.

و الناظر فی هذا التفسير يجد أن مؤلفه قد أفرد جزءا كاملا مقدمة لتفسيره و فی هذه المقدمة يتجلی منهجه فی التفسير بل فی التأليف عموما.

لقد ناقش قضايا عامة و خطيرة فيما يتصل بالتفسير و نقل كثيرا عن مشاهير العلماء فی الأصول و التفسير و سائر العلوم القرآنية.

لقد تحدث عن مصادر التفسير وعد أن أصولها أربعة:

الأول: النقل عن النبی صلّی اللّه عليه و سلم و علی المفسر بطريق النقل أن يحذر من الضعيف و الموضوع.

الثانی: الأخذ بقول الصحابی اذ هو المعاصر للتنزيل و الفاهم لجو القرآن.

الثالث: الأخذ بمطلق اللغة.

الرابع: التفسير بما يقتضيه معنی الكلام و مفهوم الشرع.

و مصادر مقدمته غالبا من الشيوخ المعروفين:

مناهج المفسرين، ص: ۲۹۹

الإمام الشاطبی و الإمام ابن تيمية و شذرات من كلام العز بن عبد السلام، و الإمام الغزالی و الراغب الاصفهانی و بعض العلماء المحدثين مثل الشيخ محمد عبده و الشيخ رشيد رضا.

لقد كان الإمام القاسمی بوفرة اطلاعه و دقة فهمه و أمانته فی النقل ينتقی أجود الأقوال فيما يختص بموضوع بحثه ثم ينقله فی كتبه و علی هذا النهج جری فی تفسيره، فتفسيره أشبه ما يكون بحديقة غناء لا ترى فيها إلا زرعا ناضرا أو وردا عاطرا و لا تجد فيه ما يؤذی النفس و يثير الشعور و يمتاز هذا التفسير الجليل زيادة علی التحری فی النقل و حسن الاختيار و البعد عن الضعيف و الموضوع بما يأتی:

۱- العناية بالمعانی اللغوية للمفردات و توجيه الاعراف فی سهولة و يسر دون تفريع أو تطويل.

۲- اعتماده فی تفسير القرآن علی القرآن ثم علی السنة الصحيحة ثم علی أقوال الصحابة و آراء السلف الصالح.

۳- اهتمامه بالآيات التی تحتاج إلی بحث و اطالته النفس فيها و ذلك أن فی القرآن آيات بينه واضحة لا- تحتاج إلی بحث لأنها واضحة من ناحية المعنی.

و فی القرآن آيات واضحة و لكن بعض المفسرين قد حاول اثارة الجدل فيها أو أخطأ فی فهمها أو فسرها باسرائيليات أو انحرفت بها الأهواء علی أی وضع كانت و يشتد اهتمام مفسرنا بمثل هذه الآيات .. شارحا و مبينا و محققا للحق و كاشفا لزيف الباطل .. و ينقل فی سبيل ذلك عن القدماء ما يؤيد فكرته و يتخذ من هذا التأييد كمصدر أول- القرآن نفسه فإنه يفسر بعضه بعضا و يتخذ كذلك الأحاديث الصحيحة الشريفة عن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم كمصدر آخر ثم ينقل عن العلماء القدامی و عن العلماء المحدثين ما يؤيد وجهة نظره، و هی فی الأغلب الأعم وجهة نظر سليمة.

۴- اهتمامة بذكر وجوه القراءات مع الترجيح بينها يقول فى تفسير قوله تعالى:

مناهج المفسرين، ص: ۳۰۰

فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطانُ عَنْها فَأَخْرَجَهُما مِمَّا كانا فِيهِ.

(آية ۳۶ من سورة البقرة) فأزلّهما الشيطان عنها: أى اذهبهما عن الجنة و أبعدهما يقال: نزل عن مرتبته و زل عن ذاك: اذا ذهب عنك ... و زل من الشهر كذا .. و قال ابن جرير: فأزلهما بتشديد اللام بمعنى استنزلهما .. من قولك زل الرجل فى دينه إذا هفا فيه و أخطأ فأتى ما ليس له اتيان فيه .. و ازله غيره إذ سبب له ما يزل من أجله فى دينه أو دنياه .. و قرئ (فأزلهما) بالألف من التنحية فأخرجهما مما كان فيه من الرغد و النعيم و الكرامة.

لقد ذكر الإمام القاسمى كلا من القراءتين و المعنى على حسب كل قراءة و نقل من كلام العلماء ما يؤيد ما ذهب إليه.

أما عن العلماء الذين تأثر بهم الإمام القاسمى فأولهم الإمام ابن تيمية و تلميذه ابن القيم و هو يهتم اهتماما واضحا بكل ما انفراد به من آراء: انه ينقل عن ابن تيمية رأيه فى مجازات القرآن، و هو من الآراء التى اشتهر بها ابن تيمية و خالف فيها كثيرا من العلماء و ذكر ابن تيمية منهجه فى التفسير و رأيه فى مناهج المفسرين.

و تأثر فى منهجه بهذا المنهج فى التفسير.

و لقد أعجب القاسمى بالإمام محمد عبده و نقل عنه رأيه فى وجوه التفسير و مراتبه نقلا عن مقدمة تفسير الإمام محمد عبده المشهور .. لقد نقلها محبذا لها مقرا لكل ما فيها .. و نستطيع أن نقول بحق: لقد تأثر القاسمى بهذا المنهج و نسق بينه و بين منهج ابن تيمية فى تفسيره لكن هذا الإعجاب بالشيخ محمد عبده لم يمنعه من مخالفة الاستاذ الإمام فى مسائل الملائكة و آدم و ابليس و السحر و غير ذلك- لم يقل برأى الإمام فى هذه الأمور و سار على رأى الجمهور فى أنها حقائق و ليست تعبيرا بالمثال و الإرشاد و التفهيم.

مناهج المفسرين، ص: ۳۰۱

و لعل هذا يكشف لنا جانبا هاما من جوانب الإمام القاسمى لقد كان يعجب بقدر و كان يتحكم فيما يختار و لا ينساق و راء الآراء تبعا لشهرة قائلها و انتشارها بين الناس.

و من المعالم البارزة فى هذا التفسير اعتناء المفسر بالربط بين الآيات المختلفة و الكشف عن مظاهر الحكمة فى ترتيب القرآن .. ففى سورة البقرة مثلا يتحدث عن الانتقال من قصة آدم و دعوة بنيه إلى الدين إلى الحديث عن بنى إسرائيل فى قوله تعالى:

قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْها جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآياتِنا أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ يا بَنِى إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِى أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَ أَوْفُوا بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَ إِيَّاىَ فَارْهَبُونِ.

(البقرة: ۳۸، ۳۹، ۴۰) يتحدث عن الصلة بين الآيات فيقول:

و لما قدم اللّه تعالى دعوة الناس عموما و ذكر مبدأهم .. دعا بنى إسرائيل خصوصا و هم اليهود- لانهم كانوا أولى الناس- بالإيمان بالنبى صلّى اللّه عليه و سلم لأنهم يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة و الإنجيل فدعاهم تارة بالملاطفة و تارة بالتخويف و تارة بإقامة الحجة و توبيخهم على سوء أفعالهم.

و نعود فنقول: إن التفسير تعبير حى عن الشيخ القاسمى فى سعة علمه و وفرة مراجعه و حسن انتقائه و سلامة منهجه و دقته فى التعبير و اقتصاره على قدر الحاجة- و قد ضم عصارات الأفكار و خلاصة آراء العلماء فى كثير من الآفاق العلمية و الفكرية و العملية كما عبر عنها القرآن.

و مما يلاحظ على الإمام القاسمى فى تفسيراته إن استمداده من الإمام ابن كثير بلغ حدا كبيرا .. انه يكاد يشبه تفسير الإمام ابن كثير فى كثير من

مناهج المفسرين، ص: ۳۰۲

الموضوعات فی صورة تکاد تکون متقنة .. و مع ذلک فإن هذا التشابه القوی بینه و بین ابن کثیر لا ینزله عن أصالته فإن هذا التشابه آت من اتحاد الرأی و تشابه الأفکار لا من النقل و التقلید.

و کما قلنا فالکتاب نخبة ممتازة یضم الأفکار القیمة و الآراء الصحیحة فی کل ما یتصل بالتفسیر.

نموذج من تفسیر القاسمی

قال تعالی:

وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهِنَّ بَلْ أَتَیْناهُمْ بِذِکْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِکْرِهِمْ مُعْرِضُونَ.

أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَراجُ رَبِّکَ خَیْرٌ وَ هُوَ خَیْرُ الرَّازِقِینَ.

وَ إِنَّکَ لَتَدْعُوهُمْ إِلی صِراطٍ مُسْتَقِیمٍ.

وَ إِنَّ الَّذِینَ لا یُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّراطِ لَناکِبُونَ.

(سورة المؤمنون: ۷۱، ۷۲، ۷۳، ۷۴) وَ لَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْواءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّماواتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِیهِنَ.

أی لو کان ما کرهوه من الحق الذی هو التوحید و العدل المبعوث بهما الرسول صلوات اللّه و سلامه علیه موافقا لا هوائهم المتفرقة فی الباطل الناشئة عن نفوسهم الظالمة المظلمة لفسد نظام الکون لأن مناط النظام لیس إلا ذلک و فیه من شأن الحق و التنبیه علی سمو مکانه ما لا یخفی «بل أتیناهم بذکرهم»

مناهج المفسرین، ص: ۳۰۳

اضراب عن توبیخهم بکراهته و انتقال إلی لومهم بالنفور عما ترغب فیه کل نفس من خیرها أی لیس مکروها بل هو عظة لهم لو اتعظوا أو فخرهم أو متمناهم لأنهم کانوا یقولون لو أن عندنا ذکرا من الأولین لکنا من عباد اللّه المخلصین «فهم عن ذکرهم معرضون» أی بالنکوص عنه و أعاد الذکر تفخیما و اضافة لهم لسبقه و فی سورة الأنبیاء (ذکر ربهم) لاقتضاء ما قبله له «أم تسألهم خرجا» أی جعلا علی أداء الرسالة فلا جل ذلک لا یؤمنون «فخراج ربّک خیر» أی عطاؤه «و هو خیر الرازقین و انک لتدعوهم إلی صراط مستقیم و ان الذین لا یؤمنون بالآخرة عن الصراط لناکبون».

أی منحرفون- قال القاشانی: الصراط المستقیم الذی یدعوهم إلیه هو طریق التوحید المستلزم لحصول العدالة فی النفس و وجود المحبة فی القلب و شهود الوحدة و الذین یحتجبون عن عالم النور بالظلمات و عن القدس بالرجس إنما هم منهمکون فی الظلم و البغضاء و العداوة و الرکون إلی الکثرة فلا- جرم أنهم عن الصراط ناکبون منحرفون إلی ضده فهو فی واد و هم فی واد و قال الزمخشری: قد الزمهم الحجة فی هذه الآیات و قطع معاذیرهم و عللهم بأن الذی أرسل إلیهم رجل معروف أمره و حاله مخبور سره و علنه خلیق بأن یجتبی مثله للرسالة من بین ظهرانیهم و أنه لم یعرض له حتی یدعی بمثل هذه الدعوی العظیمة بباطل و لم یجعل ذلک مسلما إلی النیل من دنیاهم و استعطاء أموالهم و لم یدعهم إلا إلی دین الإسلام الذی هو الصراط المستقیم مع إبراز المکنون من أدوائهم و هو اخلالهم بالتدبر و التأمل و استئثارهم بدین الآباء الضلال من غیر برهان و تعللهم بأنه مجنون بعد ظهور الحق و ثبات التصدیق من اللّه بالمعجزات و الآیات النیرة و کراهتهم للحق و اعراضهم عما فیه حظهم من الذکر.

مناهج المفسرین، ص: ۳۰۵

الإمام محمد عبده و تفسیره

اشارة

لعل خير ما يعرف بالشيخ محمد عبده ما كتبه عن نفسه و نقله عنه صاحب المنار فى كتاب خاص سماه: تاريخ الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، و فيه يقول:

عرفت أنى ابن عبده خير اللّه، من سكان قرية محلة نصر بمركز شبراخيت من مديرية البحيرة، و وقر فى نفسى احترام والدى، و نظرت إليه أجل الناس فى عينى، و مسكن من هيبته فى قلبى ما لا أجده لأحد من الناس اليوم عندى.

و يقول وجدت والدى يقرى الضيف، و يؤوى الغريب، و يفتخر باكرام النزيل و ذلك كان يزيد منزلته من نفسى علوا، و أنا لا أفهم من هذا إلا أنه شيء يفتخر به بدون أن أعقل له علة .. و بالجملة كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية و كل من فيها دونه، و هو بذلك كان أعظم رجل فى الدنيا فإن الدنيا عندى لم تكن أوسع من قرية محلة نصر.

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى، و كانت ترحم المساكين و تعطف على الضعفاء، و تعد ذلك مجدا و طاعة للّه و حمدا، و لم أزل أجد أثر ما وعيت من ذلك فى نفسى إلى اليوم ..

أما عن تدرجه فى التعليم و الطلب فيقول:

تعلمت القراءة و الكتابة فى منزل والدى، ثم انتقلت إلى دار حافظ قرآن قرأت عليه وحدى جميع القرآن أول مرة، ثم اعدت القراءة حتى اتممت حفظه جميعه فى مدة سنتين، بعد ذلك حملنى والدى إلى طنطا حيث كان أخى لأمى الشيخ مجاهد رحمه اللّه لا جود القرآن فى المسجد الأحمدى لشهرة

مناهج المفسرين، ص: ۳۰۶

قرائه بفنون التجويد، و كان ذلك فى سنة ۱۲۷۹ هجرية .. ثم فى سنة احدى و ثمانين جلست فى دروس العلم و قضيت سنة و نصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم، فادركنى اليأس من النجاح، و هربت من الدرس و حاول أخى اكراهى على طلب العلم فأبيت، و انتهى الجدال بتغلبى عليه، فأخذت ما كان لى من ثياب و متاع، و رجعت إلى محلة نصر على نية أن لا أعود إلى طلب العلم و تزوجت فى سنة ۱۲۸۲ على هذه النية.

ثم يواصل الحديث عن تدرج حياته فى التعليم فيقول:

بعد أن تزوجت بأربعين يوما جاءنى والدى ضحوة نهار و ألزمنى بالذهاب إلى طنطا لطلب العلم، و بعد احتجاج و تمنع و إباء لم أجد مندوحة عن اطاعة الأمر ..

و لم يواصل السير إلى طنطا، لقد تغلبت عليه نزعة الهرب من طلب العلم و العزوف عن تحصيله فتخلف فى قرية بها عدد كثير من أقاربه، و انطلق مع أقرانه من الشباب يلهو و يلعب و فى هذه القرية التقى بأحد أخوال أبيه و هو الشيخ درويش.

و كان الشيخ درويش قد أخذ عن بعض الشيوخ طريقة الشاذلية، و كان يحفظ الموطأ، و بعض كتب الحديث، و يجيد حفظ القرآن و فهمه، ثم رجع من أسفاره إلى قريته هذه، و اشتغل بما يشتغل به الناس من فلح الأرض، و كسب الرزق بالزراعة.

و تدرج معه الشيخ درويش فى ترويضه على العلم، و العودة به إلى رحاب المعرفة فأعطاه كتابا يحتوى على رسائل كتبها السيد محمد المدنى إلى بعض مريديه بالأطراف و سأله أن يقرأ له فيها شيئا لضعف بصره، و ما زال به حتى قرأ بضعة أسطر فاندفع يفسر له معانى ما قرأ بعبارة واضحة غلبت اعراضه و سبقت إلى نفسه، و قاومت نزعته إلى اللعب و اللهو.

و ان هى الا أيام قليلة حتى صار أبغض شيء إليه ما كان يحبه من لعب و لهو

مناهج المفسرين، ص: ۳۰۷

و فخفخة و زهو و عاد أحب شيء إليه ما كان يبغضه من مطالعة و فهم .. ثم سأل الشيخ عن الطريقة فقال: الاسلام و عن الورد فقال: القرآن، و لم تمض أيام حتى رأى نفسه يطير فى عالم آخر غير الذى كان يعهد، فاتسع له ما كان ضيقا، و صغر عنده من الدنيا ما كان كبيرا، و عظم عنده من أمر العرفان و النزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرا و تفرقت عنه جميع الهموم و لم يبق إلا هم

واحد و هم أن يكون كامل المعرفة، كامل أدب النفس.

و يتابع الشيخ حديثه فيقول:

و فى منتصف شوال من تلك السنة ذهبت إلى الازهر، و داومت على طلب العلم على شيوخه، مع محافظتى على العزلة و البعد عن الناس، حتى كنت استغفر اللّه إذا كلمت شخصا كلمة لغير ضرورة و فى اواخر كل سنة دراسية كنت اذهب إلى (محلة نصر) لا قيم بها شهرين- من منتصف شعبان إلى منتصف شوال و كنت عند وصولى إلى البلد أجد خال والدى الشيخ درويش قد سبقنى إليه فكان يستمر معى بدراستى القرآن و العلم إلى يوم سفرى.

كان الشيخ يدارسه و يسأل ما ذا قرأت؟ ثم يوجهه إلى دراسة علوم أخرى إلى جانب ما يدرس بالأزهر كالمنطق و الحساب و الهندسة، و استجابة لتوجيهه كان يلتمس هذه العلوم عند من يعرفها فتارة كان يخطئ فى الطلب و أخرى يصيب إلى أن جاء السيد جمال الدين الأفغانى إلى مصر أواخر سنة ۱۲۸۶، فوجد عنده ما ابتغاه من العلوم و شاركه فى الدعوة إلى الاصلاح ثم عرض نفسه على مجلس الامتحان فى سنة ۱۲۹۴ هجرية للحصول على العالمية فخرج منه بالدرجة الثانية، و صار مدرسا من مدرسى الجامع الأزهر، و أخذ يقرأ العلوم الكلامية و المنطقية و غيرها.

و مع ما وصل إليه فى العلوم ظل يطلب العلم، و يتحدث عن ذلك فيقول:

بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عند ما كانت سنى أربعا و أربعين سنة، فبحثت عن معلم فوجدت استاذا لا بأس به، فتعلمت مبادئ اللغة الفرنسية،

مناهج المفسرين، ص: ۳۰۸

و حصلت منها ما كان يمكننى من القراءة و الفهم، لكن ما كنت استطيع الكلام .. سافرت بعد ذلك إلى فرنسا و إلى سويسرا عدة مرات فى أيام العطلة فى كلية جنيف، و بهذه الطريقة تعلمت اللغة الفرنساوية فى أوقات الفراغ مع اشتغالى بالقضاء فى المحاكم الابتدائية و محاكم الاستئناف.

و نشط الشيخ فى التأليف و التدريس بالأزهر و غير الأزهر فذاع صيته و طارت شهرته و عم النفع به ..

تفسيره

لم يكن التفسير عند الاستاذ الإمام بالشيء السهل، بل كان من أصعب الأمور و أهمها .. و وجه الصعوبة فيه- فيما يرى الإمام من وجوه أهمها:

إن القرآن كلام سماوى تنزل عن حضرة الربوبية على قلب أكمل الأنبياء و هو يشتمل على معارف عالية، و مطالب سامية، لا يشرف عليها إلا أصحاب النفوس الزاكية و العقول الصافية ..

و كان الإمام فى تصديه للتفسير راغبا بث الدعوة إلى أمرين عظيمين:

الأول: تحرير الفكر عن قيد التقليد، و فهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، و الرجوع فى كسب معارفه إلى ينابيعها الأولى، و اعتباره من ضمن موازين العقل البشرى التى وضعها اللّه لترد من شططه، و تقلل من خلطه و خبطه، لتتم حكمة اللّه فى حفظ نظام العالم الإنسانى، و أنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم باعثا على البحث فى أسرار الكون، داعيا إلى احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعديل عليها فى أدب النفس و اصلاح العمل.

الثانى: إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير، سواء كان فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة و مصالحها، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة منشئا أو مترجما من لغات أخرى أو فى المراسلات بين الناس.

مناهج المفسرين، ص: ۳۰۹

و للتفسير فى نظر الإمام وجوه شتى:

أحدها: النظر فى أساليب الكتاب و معانيه و ما اشتمل عليه من أنواع البلاغة، ليعرف به: علو الكلام و امتيازه على غيره من القول .. سلك هذا المسلك الزمخشرى، و نحا نحوه آخرون.

ثانيها: الاعراب .. و قد اعتنى بهذا أقوام توسعوا فى بيان وجوهه و ما تحتمله الألفاظ منها ..

ثالثها: تتبع القصص، و قد سلك هذا المسلك أقوام زادوا فى قصص القرآن و ما شاءوا من كتب التاريخ و الإسرائيليات، و لم يعتمدوا على التوراة و الإنجيل و الكتب المعتمدة عند أهل الكتاب و غيرهم، بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث و ثمين و لا تنقيح لما يخالف الشرع و لا يطابق العقل ...

رابعها: غريب القرآن.

خامسها: الأحكام الشرعية من عبادات و معاملات و الاستنباط منها.

سادسها: الكلام فى أصول العقائد و مقارعة الزائغين، و صحابة المختلفين، و للإمام الرازى العناية الكبرى بهذا النوع ..

سابعها: المواعظ و الرقائق، و قد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة و الجهاد، و خرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل و الآداب التى وضعها القرآن ..

ثامنها: ما يسمونه بالإشارة، و قد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية الصوفية ..

و من ذلك التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى، و إنما هو للقاشانى الباطنى الشهير، و فيه من النزعات ما يتبرأ منه دين اللّه و كتابه العزيز.

و إذا كان الاكثار فى مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج الكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهى، و يذهب بهم فى مذاهب تبهم معناه الحقيقى،

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۰

فإن ما كان يعنى الإمام من التفسير هو فهم الكتاب من حيث هو دين، و هداية من اللّه للعالمين، جامعة بين بيان ما يصلح به أمر الناس فى هذه الحياة الدنيا، و ما يكونون به سعداء فى الآخرة، و يتبعه- بلا ريب- بيان وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى، و تحقيق الإعراب على الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن و بلاغته عند الحاجة إلى ذلك.

و للتفسير فى نظر الإمام مراتب:

أدناها: أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة اللّه و تنزيهه، و يصرف النفس عن الشر، و يجذبها إلى الخير، و هذه التى تتيسر لكل أحد (و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر).

و أما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور:

أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن بحيث يجد المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان و فهم فلان.

ثانيها: الأساليب، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة، و ذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ و مزاولته، مع التفطن لنكته و محاسنه، و العناية بالوقوف على مراد المتكلم منه.

ثالثها: علم أحوال البشر، فقد ورد فى القرآن من الحديث عن أحوال الخلق و قصص الأمم و السنن الالهية فى البشر ما يجعل العلم بأطوار البشر و أدوارهم و مناشئ اختلاف أحوالهم من ألزم الأمور.

رابعها: العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن بمعرفة ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب و غيرهم و ما كانوا عليه من العوائد.

خامسها: العلم بسيرة النبى صلّى اللّه عليه و سلم و أصحابه، و ما كانوا عليه من علم و عمل و تصرف فى الشئون دينويها و أخرويها.

و الغرض الأول الذى دعا إليه فى قراءة التفسير، استجماع تلك الشروط لأجل ان تستعمل لغايتها و هى محاولة فهم المراد من القول، و حكمة التشريع فى

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۱

العقائد و الأحكام على الوجه الذى يجذب الأرواح، و يسوقها إلى العمل و الهداية المودعة فى الكلام ... فالمقصد الحقيقى و راء كل تلك الشروط و الفنون هو الاهتداء بالقرآن .. و فى سنة ۱۳۱۵ اتصل بالشيخ محمد عبده:

ان القرآن لا يحتاج إلى تفسير كامل من كل وجه، و لكن الحاجة شديدة إلى تفسير بعض الآيات ..

و لم يزل به الشيخ رشيد رضا حتى اقنعه بقراءة التفسير فى الأزهر، و بدأ بالدروس فى غرة المحرم سنة ۱۳۱۷ ه و انتهى منه فى منتصف المحرم سنة ۱۳۲۳ ه عند تفسير قوله تعالى: وَ كانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً من سورة النساء.

و على الرغم مما فى تفسير الشيخ محمد عبده من محاسن، فإنه يحتاج إلى تعقيب، و نكتفى هنا بمثال على ذلك:

اننا جميعا نجل الشيخ محمد عبده، و نحترمه، و ندين له بكثير من تخليص الدين عن الخرافات و الأساطير و لكن حينما نقرأ له تفسير قصة آدم، فنراه لا يضع احتمال أنها تمثيل متساءل: لم ذكر الشيخ محمد عبده هذا الاحتمال؟

حينما نتساءل حقيقة عن السر العميق- فى الشعور و فى اللاشعور- نجد أن الشيخ محمد عبده رأى أن فكرة التطور منتشرة فى جميع أرجاء أوربا، بل و العالم، و هى فيما يرى بظاهرها تتعارض مع التعاليم التى تنبئ أن آدم هو أول البشر، و هو الذى خلقه اللّه و سواه، و خاطب الملائكة فى شأنه و أمرهم أن يسجدوا له.

رأى الشيخ محمد عبده أن كل ذلك لا يتلاءم كثيرا مع فكرة التطور المزعومة فما ذا صنع؟ ذكر هذا الاحتمال، و بذلك يمكننا أن نؤولها كيفما شئنا، و ما كنا نود أن يجيز ذلك إذ أنه يفتح للناس باب التأويل فى صورة من الاستفاضة الضارة ..

كما رأى الشيخ محمد عبده أن يفسر اختلاف رسالات الرسل و تعاقبها:

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۲

موسوية و عيسوية و إسلامية بتطور الإنسانية.

الآن الإنسانية- حسبما برى- حسية فى زمن موسى، فكانت رسالة سيدنا موسى حسية.

ثم تطورت الإنسانية من الحس إلى العاطفة، فكانت رسالة سيدنا عيسى عاطفية.

ثم تطورت الإنسانية من الحس و العاطفة الى العقل، فكانت رسالة سيدنا محمد عقلية.

و رأيى أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور و أن الإنسانية لم تتطور هذا التطور هذا التطور و أن الإنسانية أينما سرنا و عند أى فرد رأينا، فى أى مجتمع شاهدنا، فإنما يتمثل فيها جوانب ثلاثة: الحسى و العاطفة و العقل ..

و لكن فكرة التطور، و أن الإنسانية متطورة، انتهت بأن أصبحت مسيطرة على الكثيرين فانقادوا لها، و أدخلوها فى المحيط الدينى، فأفسدت كثيرا من القضايا ..

و من تفسيره:

قال تعالى:

أَ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها، رَفَعَ سَمْكَها فَسَوَّاها، وَ أَغْطَشَ لَيْلَها وَ أَخْرَجَ ضُحاها، وَ الْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها، أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَ مَرْعاها، وَ الْجِبالَ أَرْساها، مَتاعاً لَكُمْ وَ لِأَنْعامِكُمْ.

(سورة النازعات: ۲۷، ۲۸، ۲۹، ۳۰، ۳۱، ۳۲، ۳۳) أأنتم أشدّ خلقا: عود إلى خطاب أولئك المكذبين المغرورين لتقريعهم و تسفيه أحلامهم، فى استبعاد ما يوعدون به من البعث و ما يتبعه، أو استبطاء أخذ اللّه لهم فى هذه الدنيا مع أنه هو الذى انشاهم و خلقهم أول مرة فإن كانوا

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۳

قد غفلوا عن أنه هو خالقهم فلينظروا إلى السماء و إلى الأرض، فيعلموا أن من خلقهما و أنشأهما لا يصعب عليه خلقهم، و لا يسعهم إنكار أن خالق السماء و الأرض هو اللّه، فكيف ينكرون أنه خالقهم، و أنه القادر على إعادتهم كما بدأهم؟ (أشدّ خلقا) أصعب انشاء ..

(بناها) بيان لكيفية خلق السماء، و البناء ضم الأجزاء المتفرقة بعضها إلى بعض مع ربطها بما يمسكها حتى يكون عنها بينة واحدة، و هكذا صنع اللّه بالكواكب وضع كل منها على نسبة من الآخر مع ما يمسك كلا فى مداره حتى كان منها عالم واحد فى النظر سمى باسم واحد و هو السماء التى تعلونا، و هى معنى قوله:

(رفع سمكها فسوّاها) و السمك قامة كل شيء، فقد رفع اجرامها فوق رءوسنا.

(فسوّاها) عدلها بوضع كل جرم فى موضعه (أغطش الليل) أظلمه، و غطش الليل أظلم و نسبة الليل إلى السماء لأنه يكون بعقيب كواكبها (ضحاها) نورها و ضوء شمسها، قال تعالى و الشمس و ضحاها أى ضوؤها، و تعاقب الليل و النهار و اختلاف الفصول التابع لحركة بعض السيارات يهيئ الأرض للسكنى، و هو معنى قوله (و الأرض بعد ذلك) تسوية السماء على الوجه السابق و ابراز الأضواء (دحاها) أى مهدها و جعلها قابلة للسكنى، و ذلك بأن (أخرج منها ماءها) بتفجير الينابيع و العيون و الأنهار، (و مرعاها) أى رعيها، و هو النبات الذى يأكل منه الناس و الدواب، و تثبيت الجبال و جعلها مانعة من اضطراب الأرض من تتمة التمهيد و اعداد الأرض لسكنى الأحياء، و هو متأخر عن الاستعداد الأول لا نبات النبات و إن كان برور الجبال سابقا على ذلك، و قد جعل اللّه ذلك كله ليتمتع به الناس و الأنعام أ فلا يكون صانع ذلك كله هو صانعكم؟ أ فلا يكون خالقكم و واهبكم ما به تحبون و رافع السماء فوقكم و ممهد الأرض تحتكم، قادرا على بعثكم، و هل يليق به أن يترككم سدى بعد أن دبركم هذا التدبير، و وفر لكم هذا الخير الكثير؟

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۵

الأستاذ رشيد رضا و تفسيره

اشارة

أحد رجال الاصلاح الاسلامى: محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس الدين القلمونى المنشأ البغدادى الاصل الحسينى النسب، من الكتاب العلماء بالحديث و الادب و التاريخ و التفسير، و هو صاحب مجلة المنار المشهورة التى كانت منارا للفكر و الاصلاح الاجتماعى فى العصر الحديث.

نشأ صاحبنا و ترعرع فى بلدة القلمون- من أعمال طرابلس الشام- و درج فيها طالبا للعلم ساعيا فى تحصيله فيها و فى مدينة طرابلس و جاشت عاطفته فى صباه بالشعر و ظهرت كتاباته فى الصحف و المجلات فلمع نجمه و عرف من بين الكتاب.

و كانت مصر كنانة اللّه فى أرضه منارا خاصا بأشهر العلماء و منهم الإمام الأستاذ محمد عبده و طبقته من العلماء المشهورين فى ذلك الوقت حتى إذا كان العام الخامس عشر بعد الألف و الثلاثمائة للهجرة رحل الشيخ محمد رشيد رضا إليها و اتصل بعلمائها و تتلمذ على الشيخ محمد عبده الذى كان ثورة كبيرة بعلمه و آرائه الخلاقة فى الاصلاح و الاجتماع، ثم أصدر المجلة المشهورة التى عرفت بالمنار و ذلك لبث آرائه فى الاصلاح الدينى و الاجتماعى و أصبح الشيخ مرجع الفتيا فى التأليف بين الشريعة الاسلامية الغراء و الأوضاع العصرية المتجددة.

و عند ما أعلن الدستور العثمانى سنة ۱۳۲۶ زار الشيخ بلاد الشام لتسير آراءه و ابداء وجهة النظر الاسلامية فى كثير من المسائل الهامة، و قد اعترضه- و هو على منبر الجامع الأموى بدمشق- أحد أعداء الاصلاح فكادت تكون فتنة كبيرة لو لا حكمة الشيخ الذى عاد فى

ذلك الوقت إلى مصر.

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۶

و فى مصر نشطت حركته فأنشأ (مدرسة الدعوة و الارشاد) و أمدها بروحه القوية و كرس جهوده لخدمتها، ثم قصد سورية فى أيام الملك فيصل بن الحسين و انتخب رئيسا للمؤتمر السورى فيها ثم غادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها سنة ۱۹۲۰ فأقام فى مصر مدة رحل بعدها إلى الهند و الحجاز و اروبا و عاد فاستقر بمصر إلى أن توفى فجأة فى سيارة كان راجعا فيها من السويس إلى القاهرة و دفن بالقاهرة عام أربع و خمسين و ثلاثمائة و ألف للهجرة النبوية.

مؤلفاته و آثاره

:- لقد غصت المكتبة العربية بمؤلفات الشيخ رشيد رضا الكثيرة و من أشهرها:

مجلة «المنار» و قد أصدر منها ۳۴ مجلدا.

تفسير القرآن- فى ۱۲ مجلدا.

تاريخ الاستاذ الامام الشيخ عبده فى ثلاثة أجزاء.

نداء للجنس اللطيف.

الوحى المحمدى.

يسر الاسلام و أصول التشريع العام.

الخلافة

. الوهابيين و الحجاز.

محاورات المصلح و المقلد.

ذكرى المولد النبوى شبهات النصارى و حجج الاسلام.

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۷

هذا و قد ألف الامير شكيب أرسلان كتابا فى سيرة الشيخ محمد رشيد رضا سماه «السيد رشيد رضا، أو أخا أربعين سنة»

منهجه فى تفسيره

: للشيخ رشيد رضا منهج واضح فى تفسيره غايته فهم القرآن و معرفة اهدافه و أغراضه و الانتفاع بها كما اراد اللّه لهذه الامة حتى تكون خير امة اخرجت للناس و على ذلك فالذين يفيدون من القرآن فقها و علما طائفة خاصة من الناس هم من يقول عنهم صاحب المنار:

«إنما يفهم القرآن و يتفقه فيه من كان نصب عينه و وجهه قلبه فى تلاوته فى الصلاة و فى غير الصلاة ما بينه اللّه تعالى فيه من موضوع تنزيله و فائدة ترتيله و حكمة تدبره من علم و نور، و هدى و رحمة و موعظة و عبرة و خشوع و خشية و سنن فى العالم مطردة، فتلك غاية انذاره و تبشيره و يلزمها عقلا و فطرة تقوى اللّه تعالى بترك ما نهى عنه، و فعل ما أمر به بقدر الاستطاعة، فإنه كما قال: (هدى للمتقين).

ثم ينعى الشيخ رشيد رضا على المسلمين حظهم بسبب ما اشتملت عليه كثير من التفاسير مما ابعدها عن مقاصد القرآن أساسا فيقول:

«كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية، و الهداية السامية، فمنها ما يشغله عن

القرآن به لبحث الاعراب و قواعد النحو و نكت المعانى و مصطلحات البيان، و منها ما يصرفه عنه بجدل المتظلمين، و تخريجات الاصوليين و اشتباكات الفقهاء المقلدين و تأويلات المتصوفين و تعصب الفرق و المذاهب بعضها على بعض و بعضها يلفته عنه بكثرة الروايات، و ما مزجت به من خرافات الاسرائيليات ...

نعم ان أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن، فنون العربية لا بدّ منها و اصطلاحات الاصول و قواعده الخاصة بالقرآن ضرورية أيضا كقواعد النحو

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۸

و المعانى، و كذلك معرفة الكون و سنن اللّه تعالى فيه كل ذلك يعين على فهم القرآن.

ثم يقول- مبينا ما وقع فيه غيره من المفسرين عن خرافات و اضاليل اجتنبها هو فى تفسيره.

و أما الروايات المأثورة عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم و أصحابه و علماء التابعين فى التفسير، فمنها ما هو ضرورى أيضا، لأن ما صح من المرفوع لا يقدم عليه شىء، و يليه ما صح عن علماء الصحابة فيما يتعلق بالمعانى اللغوية أو عمل عصرهم، و الصحيح من هذا و ذاك قليل، و اكثر التفسير المأثور قد سرى إلى الرواة من زنادقة اليهود و الفرس و مسلمة أهل الكتاب كما قال الحافظ ابن كثير و جل ذلك فى قصص الرسل مع اقوامهم، و ما يتعلق بكتبهم و معجزاتهم، و فى تاريخ غيرهم كأصحاب الكهف و مدينة أرم ذات العماد و سحر بابل ... و فى أمور الغيب من اشراط الساعة و قيامتها و ما يكون فيها و بعدها، و جل ذلك خرافات و مفتريات صدقهم فيها الرواة .. و كان الواجب جمع الروايات المفيدة فى كتب مستقلة كبعض كتب الحديث و بيان قيمة اسانيدها، ثم يذكر فى التفسير ما يصح منها بدون سند كما يذكر الحديث فى كتب الفقه لكن يعزى إلى تخرجه كما نفعل ثم يقول:

و غرضنا من هذا كله أن أكثر ما روى فى التفسير حجاب على القرآن و شاغل لنا فيه عن مقاصده العالية المزكية للانفس المنورة للعقول، الفضول للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التى لا قيمة لها اسنادا و لا موضوعا، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم صوارف أخرى كما تقدم.

فكانت الحاجة شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه، و ما أنزل لا جله من الانذار و التبشير و الهداية و الاصلاح ... ثم العناية إلى مقتضى حال هذا

مناهج المفسرين، ص: ۳۱۹

العصر فى سهولة التعبير، و مراعاة اقبال صنوف القارئين، و كشف شبهات المشتغلين بالفلسفة و العلوم الطبيعية و غيرها إلى غير ذلك مما تراه قريبا هو ما يسره اللّه بفضله لهذا العاجز ...

و الناظر فى تفسير الشيخ رشيد رضا يجد فيه روح الشيخ الإمام محمد عبده و كلامه و آراءه و وقفاته الكريمة لفهم كتاب اللّه الحكيم.

رحم اللّه الشيخ رشيد رضا و استاذه الامام محمد عبده و جزاهما عن المسلمين خير الجزاء.

نموذج من تفسيره

قال فى قوله: أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (سورة البقرة: ۵) هاهنا إشارتان، و المشار إليه عند الجمهور واحد و هو ما فى الآيتين السابقتين الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ (سورة البقرة:

۳) و الذين يؤمنون بما انزل (إليك)، من غير أهل الكتاب و المؤمنين منهم، و كرر الاشارة للاعلام بأنه لا بدّ عن تحقيق الوصفين لتحقق الحكم بأنهم على هدى و أنهم هم المفلحون، كما قال بعضهم و هو تكلف ظاهر و كذا قولهم: ان تنكير «هدى» هنا للتعظيم، و شيخنا قد جعل الاشارتين لنوعى المؤمنين المذكورين فى الآية السابقة بأسلوب اللف و النشر المرتب.

قال: ان الاشارة الأولى أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ فى هذه الآية للفرقة الولى: و هم الذين ينتظرون الحق لانهم على شىء منه- كما يدل عليه تنكير «هدى» الدال على النوع، و ينتظرون بيانا من اللّه تعالى ليأخذوا به

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۰

و كذلك تقبلوه عند ما جاءهم، فقد أشعر اللّه قلوبهم الهداية بما آمنوا به من الغيب، و أقاموا الصلاة بالمعنى الذى سبق و انفقوا مما رزقهم اللّه.

و أما الفرقة الثانية: و هم المؤمنون بما جاء به محمد صلّى اللّه عليه و سلم فعلى هدى تشترك فيه تلك الفرقة الاولى لكن على وجه أكمل .. لأنها مؤمنة بالقرآن و عاملة به.

و قوله «على هدى» تعبير يفيد التمكن من الشىء كمتمكن المستقر عليه كقولهم: ركب هواه، و لقد كان افراد تلك الفرقة (أى الأولى) على بصيرة و تمكن من نوع الهدى الذى كانوا عليه، فان كان هذا غير كاف لإسعادهم و فلاحهم فهو كاف لا عدادهم و تأهيلهم لهما بالايمان التفصيلى المنزل و لذلك قبلوه عند ما بلغتهم دعوته.

و الى الفرقة الثانية وقعت الاشارة الثانية و أولئك هم المفلحون كما هو ظاهر، و هم المفلحون بالفعل لاتصافهم بالايمان الكامل بالقرآن، و بما تقدمه من الكتب السماوية و اليقين بالآخرة- لا مطلق الايمان بالغيب اجمالا .. و يرشد إلى التغاير بين مرجع الاشارتين ترك ضمير الفصل «هم» فى الأولى و ذكره فى الثانية و لو كان المشار إليه واحدا لذكر الفعل فى الأولى لأن المؤمنين بالقرآن هم الذين على الهدى الصحيح التام فهو خاص بهم دون سواهم لكنه اكتفى عن التنصيص على تمكنهم من الهدى بحصر الفلاح فيهم.

و مادة الفلح تفيد فى الأصل معنى الشق و القطع .. و يطلق الفلاح و الفلح على الفوز بالمطلوب، و لكن لا يقال: افلح الرجل إذا فاز بمرغوبة عفوا من غير تعب و لا- معاناة، بل لا بد فى تحقيق المعنى اللغوى لهذه المادة من السعى إلى الرغبة و الاجتهاد لإدراكها، فهؤلاء ما كانوا مفلحين إلا بالإيمان بما أنزل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم و ما أنزل من قبله، و اتباع هذا الايمان بامتثال الأوامر و اجتناب النواهى التى نيط بها الوعد و الوعيد فيما انزل إليه صلّى اللّه عليه و سلم مع اليقين بالجزاء على جميع ذلك فى الآخرة و يدخل فى هذا كله ترك الكذب و الزور و تزكية النفس من سائر الرذائل كالشر، و الطمع و الجبن و الهلع و البخل و الجود و القسوة و ما

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۱

ينشأ عن هذه الصفات من الافعال الذميمة، و ارتكاب الفواحش و المنكرات و الانغماس فى شرور اللذات، كما يدخل فيه الفضائل التى هى اصدار هذه الرذائل المتروكة، و جميع ما سماه القرآن عملا صالحا من العبادات و حسن المعاملة مع الناس، و السعى فى توفير منافعهم العامة و الخاصة مع التزام العدل و الوقوف عند ما حده الشرع القويم و الاستقامة على صراطه المستقيم.

و جملة القول:

أن الإيمان الذى أنزل إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم هو الايمان بالدين الاسلامى جملة و تفصيلا فما علم من ذلك بالضرورة و لم يخالف فيه مخالف يعتد به فلا يسع أحدا جهله، فالإيمان به إيمان و الاسلام للّه به اسلام، و إنكاره خروج من الاسلام، و هو الذى يجب أن يكون معقد الارتباط الاسلامى و واسطة الوحدة الاسلامية و ما كان دون ذلك فى الثبوت و درجة العلم فموكول إلى اجتهاد المجتهدين، و لا يصح أن يكون شىء من ذلك مثار اختلاف فى الدين.

زاد الاستاذ هنا بخطه عند قولنا «اجتهاد المجتهدين» ما نصه أو ذوق العارفين، أو ثقة الناقلين بما نقلوا عنه ليكون معتمدهم فيما يعتقدون بعد التحرى و التمحيص، و ليس لهؤلاء أن يلزموا غيرهم ما ثبت عندهم، فإن ثقة الناقل بمن ينقل عنه حالة خاصة به لا يمكن لغيره أن يعشر بها حتى يكون له مع المنقول عنه فى الحال مثل ما للناقل معه فلا بد أن يكون عارفا بأحواله و اخلاقه و دخائل نفسه و نحو ذلك عما يطول شرحه، و تحصل الثقة للنفس بما يقول القائل:

و أقول:

معنى هـذا أن بعض أحـاديث الآحاد تكون حجـة على من ثبتت عنـده و اطمأن قلبه بها و لا تكون حجـة على غيره يلزمه العمل بها- و لـذلك لم يكن الصـحابة رضـى اللّه عنهم يكتبون جميع ما سـمعوا من الاحاديث و يدعون إليها مع دعوتهم إلى اتباع القرآن و العمل به، و بالسنة العلمية المتبعة المبينة له إلا

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۲

قليلا من بيان السنة كصحيفة على كرم اللّه وجهه المشتملة على بعض الاحكام كالدية و فكاك الاسير و تحريم المدينة كمكة.

و لـم يرض الامـام مالـك من الخليفـتين: المنصـور و الرشـيد أن حملا النـاس على العمـل بكتبه حـتى- «الموطأ» و انمـا يجب العمل بأحاديث الآحاد على من وثق بها روايـة و دلالـة، و على من وثق بروايـة أحد و فهمه لشـىء منها أن يأخذه عنه، و لكن لا يجعل ذلك تشـريعا عامـا، و أما ذوق العارفين فلا يـدخل شـىء منه فى الـدين، و لا يعـد حجـة شـرعية بالاجماع إلا ما كان من اسـتفتاء القلب فى الشبهات و الاحتياط فى تعارض البيانات.

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۳

تفسير ابن باديس

و ابن باديس هو عبد الحميد بن محمد المصـطفى بن مكى بن باديس، ولد فى أسـرة صـنهاجية من اعرق الاسـر فى العلم و النسب، و مكانة الاسرة فى العلم يصف جانبا منها ابن خلدون حينما يقول:

انه اجتمع اربعون عمامة من أسرة باديس فى وقت واحد فى التدريس و الافتاء و الوظائف الدينية.

و هذا العدد فى أسرة واحدة فى وقت واحد دليل كاف على صلتها الوثيقة بالعلم و الاسرة تنحدر عن الصنهاجيين الذين كانوا ملوكا و حكاما، و كان من انبهم المعز بن باديس.

ولد ابن باديس فى سنة ۱۳۰۸ ه ۱۸۸۹ م ميلادية و أخذ منذ الطفولة فى التعليم بحفظ القرآن الكريم كما ألف الوسط الذى يعيش فيه من بدئهم بحفظ القرآن الكريم، ثم أخذ يتزود من علوم العربية و علوم الاسلام.

ثم شـد الرحال الى جامع الزيتونـة بتونس الذى كان مزدهرا بالعلم و العلماء، ارتحل الى الزيتونة و هو كبير السن و قد تزود بقسط وافر من العلوم، و انتهت دراسـته بها سنة ۱۹۱۲ ثم سافر الى الحـج و الزيارة، و هناك التقى ببعض الجزائريين النابهين، منهم الشـيخ البشـير الابراهيمى، و اخـذوا يتـدارسون الوضع السياسـى فى الجزائر و الاحتلال الفرنسـى الجـاثم على صـدرها، يـدبر الامر فى عنف لجعلها فرنسـية لغـة و ثقافـة، و اتفقوا على أن النهضـات المسـتقرة الناجحـة انما تقوم على اساس من الايمان الوثيق، و بـدون الايمان لا تنجح نهضة فى الشرق الاسلامى و لا تستقر.

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۴

و من هنا كان السر فى انشاء «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» سنة ۱۹۳۱ م و كانت سن ابن باديس اذ ذاك ۴۲ عاما.

و كان ابن باديس حلقـة فى سلسـلة معينـة من التيار الفكرى الـذى ينتسب اليه كثير من الـذين يتجهون الى الاصـلاح على نهـج جمال الدين الافغانى.

و فى ذلك يقول الشيخ البشير الابراهيمى رحمه اللّه:

«ان هذه النهضة المباركة المنتشرة اليوم فى الاقطار الاسلامية بشير خير، بقرب رجوع المسلمين الى هذه الهداية، لان هذه النهضة بنيت اصولها على الـدعوة الى كتاب اللّه و تفهمه و العمل به» و قـد كان من بواكير ثمار هـذه النهضـة فى باب التأليف: تفسـير الامام النقاد: «محمود الآلوسى» على ما فيه من تشدد فى المذهبية. و تفسير الامير «صديق حسن خان».

ثم جاء إمام النهضة بلا منازع، و فارس الحلبة بلا مدافع الاسـتاذ الامام «محمد عبده» فجلا بدرسه فى تفسير كتاب اللّه عن حقائقه التى

حام حولها من سبقه و لم يقع عليها و كانت تلك الدروس آية على أن القرآن لا يفسر الا بلسانين:

«لسان العرب، و لسان الزمان».

و به و بشيخه «جمال الدين» استحكمت هذه النهضة و استمر مريرها.

ثم جاء الشيخ «محمد رشيد رضا» جاريا على ذلك النهج الذى نهجه محمد عبده فى تفسير القرآن، كما جاء شارحا لآرائه و حكمته و فلسفته فى الدين و الاخلاق و الاجتماع.

ثم جاء اخونا و صديقنا الاستاذ الشيخ «عبد الحميد بن باديس» قائد تلك النهضة بالجزائر، بتفسيره لكلام اللّه على تلك الطريقة و هو ممن لا يقصر عمن ذكرناهم فى استكمال و سائلها من ملكة بيانية راسخة، وسعة اطلاع

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۵

على السنة و تفقه فيها و غوص على اسرارها، و احاطة و باع مديد فى علم الاجتماع البشرى و عوارضه، و المام بمنتجات العقول و مستحدثات الاختراع ... و مستجدات العمران، يمد ذلك قوة خطابية قليلة النظير، و قلم كاتب لا تفل له شباة.

و لقد مكث ابن باديس يدرس تفسير القرآن الكريم فى مدى خمسة و عشرين عاما دون فتور أو انقطاع، و حينما اتمه كان يوم عيد فى الجزائر و عن ذلك يقول الشيخ البشير «بارك اللّه فى عمر الاستاذ فأتم تفسير كتاب اللّه ببيانه المشرق فى خمس و عشرين عاما، من غير ان تختل اعماله العلمية الكثيرة، و لا أعماله المستغرقة لدقائقه فى سبيل النهضة.

و عرفت الامة الجزائرية قيمة ما اتم اللّه على يد الاستاذ فاحتفلت بهذا الختم كأعظم ما تحتفل أمة ناهضة باثر ناجح من جهودها.

و كان من الاحسان فى هذا العمل العظيم و من الاحسان للنهضة أن تسجل من هذا الاحتفال صورة منبهة على حقيقته فصدر عدد من (الشباب) و هو لسان حال هذه النهضة- خاصا بهذه المنقبة، مخلدا لهذا الاثر، مسجلا لبعض أوصافه و ما قيل فيه.

و نحن بمالنا من الصلة الوثيقة بهذه النهضة، و من العمل النزر فيها نغتبط بهذه الخطوة السديدة، و هذه المرحلة الجديدة، التى تمت بختم التفسير.

و عن ابن باديس يقول الدكتور: محمد البهى:

«و الامام عبد الحميد بن باديس» رئيس جمعية العلماء بالجزائر، و باعث النهضة الاسلامية العربية فيها، و قائد الثورة ضد الاستعمار الفرنسى فى هذه البلاد العزيزة، واحد العلماء المصلحين المفكرين الرواد فى الوطن الاسلامى و العربى، و هم- مع الاسف- لم يكونوا كثرة فى العدد و ان كانوا قوة فى الاثر».

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۶

و دخل بن باديس فى صراع لا هوادة فيه مع الاستعمار و المستعمرين، و من طريف ما يرويه فى ذلك قوله:

«اذكر اننى- ابن باديس- لما زرت المدينة المنورة، و اتصلت فيها بشيخى الاستاذ أحمد الونيسى، و شيخى أحمد الهندى، أشار على الاول بالهجرة الى المدينة، و قطع كل علاقة لى بالوطن و أشار على الثانى، و كان عالما حكيما بالعودة الى الوطن و خدمة الاسلام و العربية فيه بقدر الجهد فحقق اللّه رأى الشيخ الثانى و رجعنا الى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حراس الاسلام و العربية و القومية فى هذا الوطن.

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۷

تفسير جزء تبارک للشيخ عبد القادر المغربى

من فضلاء العلماء فى هذا القرن: الشيخ عبد القادر المغربى الأديب العالم المتضلع من علوم اللغة و معارف الدين.

كان له نشاط مشكور فى الحركة العلمية و الادبية فى عصره، اذ ضم الى حسن المحاضرة- و فرة المعلومات، و غزارة الافكار، و دقة

الفهم، و عمق التحرى فيما يتحدث عنه.

و قد تولى عضوية المجلس العلمى بدمشق، و المجمع اللغوى بمصر، و ظل يتنقل بين القطرين مع امتداد رحلته الى غيرهما من الأقطار.

و كان له معرفة بفضلاء عصره، يسمعهم و يستفيد منهم، و يقدم لهم ما عنده من العلم و يفيدهم و هو فى كل ذلك لا يهدأ عن الحركة، و لا يتوقف عن العمل.

و من روائع كتبه، فضلا عن هذا التفسير، كتابه عن جمال الدين الافغانى الذى اشتمل على ذكريات نادرة محببة، فيها كشف لجوانب طيبة ممتعه عن جمال الدين، كما كان له آراء جيدة،- و مواقف علمية سديدة فيما يتصل بمباحث اللغة و مشكلاتها.

أما عن تفسيره لجزء تبارك، فقد كان له أسباب بعث عليه، و أمور و جهت نحوه، و يتحدث هو عن ذلك فى مقدمة تفسيره، فيقول:

أما بعد: فان جزءى «عم» و «تبارك» من أكثر الاجزاء شيوعا بين طلاب المدارس، و تداولا بين عامة المسلمين، و أيدى صغارهم، و آياتهما أشد علوقا بالنفس، و ترديدا فى الافواه، من سائر آيات الكتاب، فمن ثم

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۸

كانا جديرين بأن يفسر كل منهما تفسيرا حسن الوضع، صحيح الاسلوب، يقرب من أذهان العامة و لا تتجافى عنه عقول الخاصة فيقتصر فيه من القول على ما يكشف الغموض عن الآيات من جهة اللغة و الاعراب، ثم يشرح فيه المعنى المتبادر شرحا وسطا مجردا عن التنطع بالمشاغبات و ايراد الخلافات و الخرافات.

و قد وضع مولانا الاستاذ الشيخ محمد عبده رحمه اللّه تفسيرا لجزء «عم توخى فيه هذا النمط و الاسلوب، فجاء من خير الكتب وفاء بالغرض، و اصابة لمواضع الحاجة، فلا غرو اذا تناولته الالسنة بالثناء و تلقته القلوب بالقبول.

و قد رغب الى بعض الفضلاء فى أثناء اقامتى بمصر بين سنتى ۱۳۲۳، ۱۳۲۷ ه (۱۹۰۵- ۱۹۰۸ م) أن أضع تفسيرا الجزء «تبارك» أتوخى فيه طريقة استاذنا الجليل فيما علقه على جزء «عم» من جهتى الصحة فى التعبير، و الاقتصار على المفيد من القول، فقلت له: بلغنى أن الاستاذ رحمه اللّه قد فسر جزء «تبارك» و هو ما زال فى تساويد مبعثرة محفوظة عند صديقة المرحوم «حسن باشا عاصم».

و بعد البحث عن تلك التساويد، علمنا أن الاستاذ لم يشرع فى تفسير جزء «تبارك» بالفعل و إنما كان هيأ صحائف بيضاء رقم فى رءوسها آيات ذلك الجزء، و تركها غفلا من الكتابة على أمل أن- يصطحبها معه فى بعض اسفاره، و يملأها تفسيرا و تعليقا، كما كان من أمره فى تفسير و تعليقا، كما كان من أمره فى تفسير جزء «عم» الذى ألفه فى غضون سفره الى البلاد المغربية، لكنه اخترمته منيته قبل أن تتحقق أمنيته.

ثم كان ذلك الصديق الفاضل كلما زارنى أو صادفنى سألنى عن التفسير و ألحّ على بالشروع فيه، فكنت أعتذر اليه بنقص الكفاية، و صعوبة الامر، و فقد الاداة اللازمة لسلوك هذا الطريق الوعر، و لا سيما أن تفسيرى لجزء «تبارك» لا ينظر اليه الناظرون لذاته، من حيث نسبته الى صاحبه، و انما تنعمد فيه

مناهج المفسرين، ص: ۳۲۹

الموازنة بينه و بين ما كتبه الاستاذ على جزء «عم» فيحط قدره فى عيون القراء، و ينسخ ظلامه بالضياء و بضدها تتميز الاشياء.

ثم ضرب الدهر ضربا، فكان من أمره أن نزلت دمشق أول سنى الحرب الاولى نزولا حسبته لما ما، فاذا هو قد استتلى شهورا و أعواما، فتجددت لى و أنا فيها دواع حفزتنى لتحقيق الامل. و مباشرة ما كلفت من العمل، فوضعت هذا التفسير مستعينا بحول اللّه و قوته، و أكملته على مثال تفسير شيخنا و طريقته.

بيد أنى رأيت أن أتوسع قليلا فى التعليق و التفسير و الاستشهاد و التنظير- و لا سيما فى المباحث اللغوية- بأكثر مما فعله الاستاذ رحمه اللّه فى تفسير جزء «عم» مراعيا فى ذلك حال قراء جزء «تبارك» و مقدرا فى نفسى أنهم سيكونون أكبر سنا، و أتم استعدادا، و أشد

اهتماما بالتحصيل من قراء جزء «عم» و قد قمت فى تفسيرى هذا بفعل ما أطيق و أملك: من تحرى الحق و الصواب فيما أولت و فسرت، و بسط العبارة و تهديها فيما أنشأت و حررت و تصحيح النية و جعلها خالصة لوجهة الكريم فيما اخترت و رجحت.

و قد و فى الشيخ بما وعد به فى مقدمة تفسيره، و يتضح ذلك بذكر نموذج منه:

قال اللّه تعالى:

وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ، وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ، وَ إِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكافِرِينَ، وَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ، فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ» (سورة الحاقة: ۴۸، ۴۹، ۵۰، ۵۱، ۵۲) جعل ختام السورة كنتيجة للكلام السابق، مرتبطة به أشد ارتباط، فهو يقول:

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۰

اذا ثبت أن القرآن وحى من اللّه، لم يتقوله محمد صلّى اللّه عليه و سلم على ربه- كان هذا القرآن تذكرة و عظة ينتفع بها المتقون.

فضمير «و انه» يرجع الى القرآن الذى ان لم يتقدم له ذكر صريح، فقد تقدم ما يعينه و يومئ اليه، فان قوله تعالى:

وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ لم يرد به الا القرآن الذى كان يزعم المشركون أنه أقاويل و أساطير، و اللّه نفى ذلك و احتج على كذبهم و صدق القرآن.

و قوله «للمتقين» يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم عن كدورات الاوهام، و خلصت من شوائب الجمود و التقليد، و مالت بفطرتها الى قبول الحق، و الاذعان له تنفى بذلك سخط خالقها، و تحذر عقابه، أمثال هؤلاء هم الذين استعدت نفوسهم لقبول القرآن و الاستهداء به، أما أولئك المكذبون الجامدون على ما ورثوه من آبائهم، فان اللّه توعدهم بقوله:

وَ إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ و ليس المراد به افادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط، بل المراد أنه تعالى محيط بهم، راصد لهم، غير تارك عقابهم، فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة، يقال: «أنا أعرف المحسن منكم و المسىء «أى لا يخفى على ذلك منكم و لا أغفل عن مقابلة كل بما يستحقه، و منه قول ابن الفارض:

«روحى فداك عرفت أم لم تعرف» أى كافيتنى بالحسنى أم لم تكافنى.

فهؤلاء المكذبون الذين يعلم اللّه، و هو من ورائهم، كيف يكون حالهم فى مستقبل الايام فى الدنيا، اذا أظهر اللّه نبيه، و نصر حزبه، و فى الآخرة اذا أزيح الستار و بطلت الاعذار؟ لا جرم أن تكذيبهم سيكون عليهم حسرة، و هذا معنى قوله تعالى:

«و انه لحسرة على الكافرين» فضمير «انه» يرجع الى التكذيب المفهوم

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۱

من قوله «المكذبين» و مراده «بالكافرين» نفس المكذبين المذكورين قبله، و كان الظاهر الاضمار، أى أن يقول «و انه لحسرة عليهم» لكنه أتى بالاسم الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهؤلاء المكذبين و هو كونهم كافرين و يحتمل أن يرجع ضمير «و انه» الى القرآن أى القرآن سيكون حسرة على المكذبين فى الدنيا اذا ظهرت تعاليمه و انتشر فى الخافقين نوره، أو فى الآخرة اذا رأوا نجاة المصدقين به، المتمسكين بحبله، و عود ضمير «و انه لحسرة» على القرآن أنسب، و بذلك ينتظم شمله مع ضمير «و انه لتذكره» الذى قبله و ضمير، «و انه لحق اليقين» الذى بعده فانهما للقرآن.

و معنى «و انه لحق اليقين» ان القرآن هو اليقين، أى الحق الثابت الذى لا شبهه فيه و لا ريب، و الجملة من مقوله تعالى، يثبت بمضمونها قلب نبيه صلّى اللّه عليه و سلم، فلا يلين فى الدعوة و لا يضعف عزمه لتكذيب أولئك المكذبين و رميهم له بمختلف التهم و ملفق الدعاوى.

و معنى «فسبح باسم ربك العظيم» اذا كان من عاقبة المكذبين ما ستعلمه يا محمد و سيعلمونه هم، و كان القرآن و حيا من اللّه يقينا لم يبق الا ثباتك فى أمرك و مضيك فى ما ندبت له من تبليغ رسالتك، و استعن على مهمتك هذه بتسبيح ربك، و الشكر له، على أن اختصك بكرامة النبوة، و علو المرتبة، فهو ربك الذى أحاطك بعنايته، و العظيم الذى يصغر كل شىء اذا قيس بعظمته، و هو

تعالى وحده الذى يجب أن تسبحه و تشكر له، و ترجوه و تخافه، و دع عنك أولئك المكذبين جانبا».

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۳

التحرير و التنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور

و الشيخ المفسر توفى منذ عامين تقريبا، و هو من بيت عريق فى العلم و النسب فى ضواحى تونس العاصمة.

تعلم فى ضاحيته التى نشأ فيها القرآن حفظا و تجويدا و قراءات، و تعلم شيئا من العربية ثم التحق بالزيتونة، و الزيتونة تنافس الازهر فيما مر بها من قرون، و هى مسجد من المساجد العتيقة التى نشرت العلم على نطاق واسع، و التى علت فيها كلمة اللّه فى مختلف العصور.

التحق الشيخ محمد الطاهر بالزيتونة فى أوائل هذا القرن الهجرى، و نبغ فى العلوم الاسلامية على مختلف الوانها، و استمر حتى انتهى من الدراسة فى ارقى مستوياتها و تخرج من الزيتونة ليعمل فى مختلف المناصب الدينية.

و لم يكن عمله فى هذه المناصب عن حاجة مادية، و إنما كان عمله رسالة آمن بها، و قد أسس نفسه لها تأسيسا اصيلا، و ساعده على ذلك هذه المكتبة الضخمة التى تضم نوادر المخطوطات و نفائس المطبوعات، فى مختلف الفنون الاسلامية، و كانت ميراث اجيال من ذوى العلم فى أسرته و هى من المكتبات المشهورة فى العالم.

و قد أسهم الشيخ رحمه اللّه اسهاما فعالا فى الحركة الوطنية بتونس، و كان زميلا من زملاء الجهاد مع الشيخ الأكبر محمد الخضر حسين التونسى الذى تولى مشيخة الأزهر بمصر ..

كلاهما كان عالما ممتازا، و على ايمان قوى، و دخلا السجن، و نالا من المتاعب فى سبيل وطنهما و دينهما الكثير ..

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۴

و لم تكن هذه المتاعب من المستعمر فحسب، و انما كانت أيضا من الذين يصطنعهم المستعمر و الذين يوجدون فى كل قطر من ذوى النفوس الخسيسة، و لكن اللّه كان معهما، فقد هيأ سبحانه للشيخ الخضر مشيخة الاسلام فى مصر، و هيأ للشيخ الطاهر مشيخة الاسلام فى تونس و كان قد تولى قبلها القضاء ثم تولى الافتاء.

و لكن الشيخ الطاهر اضطرته الظروف للالتحام فى معركة من معارك الرأى الاسلامى فى تونس مع ذوى الرئاسة اذ ذاك:- لقد انتصر لدينه قوة، و انتصر فى أمر هو من أصول الدين و من بدهياته و أعلن الشيخ رأى الدين فى صراحة، و فى وضوح، و فى قوة، لم يدار، و لم يداهن و لم يتملق.

فلما رأى الحاكمون أنه لم تجد معه الرهبة، و لم تفد معه الرغبة، أصبح أهل تونس يرون فى الصحف أنه أخرج من مشيخة الاسلام.

و كان هذا أقل ما يتوقع بالنسبة له ..

فالتزم بيته يدرس و يكتب، و يستمتع بالنفائس التى تضمها مكتبة الأسرة، و كان يفكر منذ زمن بعيد أن يكتب تفسيرا، و فى ذلك يقول:- كان أكبر امنيتى منذ أمد بعيد تفسير الكتاب المجيد، الجامع لصالح الدنيا و الدين ..

و يقول:- و لكنى كنت على كلفى بذلك اتجهم التقحم على هذا المجال، و احجم عن الزج فى هذا النضال، اتقاء ما عسى أن يعرض له المرء نفسه من متاعب تنوء بالقوة و فلتات سهام الفهم و أن بلغ ساعد الذهن كمال الفتوة، فبقيت اسوف النفس مرة و مرة، اسومها زجرا، فان رأيت منها تصميما احلتها على فرصة أخرى، و أنا آمل ان يمنح من التيسير ما يشجع على قصد هذا الغرض العسير ..

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۵

و فيما انا بين اقدام و احجام، أتخيل هذا الحقل مرة القتاد و أخرى الثمام، اذا انا باملى قد خيل الى أنه تباعد أو انقضى، اذ قدر ان تسند الى خطة القضا، فبقيت متلهفا و لات حيت مناص، و اضمرت تحقيق هاته الامنية متى اجمل اللّه الخلاص.

و كنت احادث بذلك الاصحاب و الاخوان، و اضرب المثل بأبى الوليد بن رشد فى كتاب البيان و لم ازل كلما مضت مدة يزداد التمنى و ارجو انجازه، الى أن اوشك ان تمضى عليه مدة الحيازة فاذا اللّه قد من بالنقلة الى خطة الفتيا، و أصبحت الهمة مصروفة الى ما تنصرف اليه الهمم العليا، فتحول الى الرجاء ذلك الياس، و طمعت أن أكون ممن أوتى الحكمة فهو يقضى بها و يعلمها الناس ..

هنالك عقدت العزم على تحقيق ما كنت اضمرته، و استعنت باللّه تعالى و استخرته، و علمت أن ما يهول من توقع كلل أو غلط، لا ينبغى أن يحول بينى و بين نسج هذا النمط، اذا بذلت الوسع من الاجتهاد، و توخيت طرق الصواب و السداد ..

اقدمت على هذا المهم اقدام الشجاع على وادى السباع، متوسطا فى معترك انظار الناظرين ..

و يتحدث المؤلف عن التفاسير التى تقدمت تفسيره، فيتحدث عن أخذ بعضها من بعض و يقول:

و التفاسير- و أن كانت كثيرة- فانك لا- تجد الكثير منها الاعالة على كلام سابق بحيث لاحظ لمؤلفه الا الجمع على تفاوت بين اختصار و تطويل.

و ان أهم التفاسير تفسير الكشاف، و المحرر الوجيز لابن عطية، و مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازى، و تفسير البيضاوى الملخص من الكشاف و من مفاتيح الغيب بتحقيق بديع و تفسير الشهاب الآلوسى، و ما كتبه الطيبى و القزوينى و القطب و التفتازانى على الكشاف و ما كتبه الخفاجى على تفسير

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۶

البيضاوى، و تفسير ابى السعود، و تفسير القرطبى و الموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسى من تقييد تلميذه الآبى، و هو بكونه تعليقا على تفسير ابن عطية اشبه منه بالتفسير، لذلك لا يأتى على جميع اى القرآن و تفاسير الاحكام، و تفسير الامام محمد بن جرير .. الطبرى و كتاب درة التنزيل، المنسوب لفخر الدين الرازى، و ربما ينسب للراغب الاصفهانى ..

و يتحدث المؤلف عما يمتاز به تفسيره فيقول:

فجعلت حقا على أن أبدى فى تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقنى اليها، و أن اقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها، و آونة عليها .. فان الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذى ماله من نفاد ..

لقد رأيت الناس حول كلام الاقدمين أحد رجلين:- رجل معتكف فيما شاده الاقدمون، و آخر أخذ بمعوله فى هدم ما مضت عليه القرون و فى كلتا الحالتين ضرر كثير ..

و هنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير، و هى أن تعمد الى ما أشاده الاقدمون فنهذبه و نزيده، و حاشا ان ننقضه أو نبيده، عالما بأن غض فضلهم كفران للنعمة، و جحد مزايا سلفها من حميد خصال الأمة، فالحمد للّه الذى صدق الامل، و يسر الى هذا الخير و دل ..

و لقد اهتم فى تفسيره فضلا عن ذلك ببيان وجوه الاعجاز، و نكت البلاغة العربية و أساليب الاستعمال.

و اهتم أيضا ببيان تناسب اتصال الآى بعضها ببعض، و هو منزع جليل قد عنى به فخر الدين الرازى، و الف فيه برهان الدين البقاعى كتابه المسمى «نظم الدرر» فى تناسب الآى و السور الا أنهما لم ياتيا فى كثير من الآى بما فيه مقنع، فلم تزل انظار المتأملين لفصل القول تتطلع أما البحث عن تناسب مواقع السور بعضها اثر بعض فلا اراه حقا على المفسر.

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۷

و لم اغادر سورة الا بينت ما احيط به من اغراضها لئلا يكون الناظر فى تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته، و معانى جمله، كأنها فقر متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، و تحجب عنه روائع جماله ..

و اهتمت بتبين معانى المفردات فى اللغة العربية بضبط و تحقيق ما خلت عن ضبط كثير من قواميس اللغة.

و عسى ان يجد فيه المطالع تحقيق مراده، و يتناول منه فوائد و نكتا على قدر استعداده، فانى بذلت الجهد فى الكشف عن نكت من

معانى القرآن و اعجازه خلت عنها التفاسير و من أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو اليه النحارير، بحيث ساوى هذا التفسير على اختصاره مطولات القماطير، ففيه أحسن ما فى التفاسير، و فيه أحسن مما فى التفاسير ..

اما اسم التفسير فإنه يقول عنه:

و سميته تحرير المعنى السديد، و تنوير العقل الجديد؛ من تفسير الكتاب المجيد.

و اختصرت هذا الاسم باسم التحرير و التنوير من التفسير.

و من نماذج هذا التفسير ما يلى:- قوله تعالى: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ (سورة البقرة: ۴۳) امر بالتلبس بشعار الاسلام عقب الامر باعتقاد عقيدة الاسلام، فقوله:

(و آمنوا بما أنزلت) الآية راجع الى الايمان بالنبى صلّى اللّه عليه و سلم، و ما هو وسيلة ذلك و ما هو غايته ..

فالوسيلة: اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ- الى- فَارْهَبُونِ و المقصد: وَ آمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۸

و الغاية: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ و قد تخلف ذلك نهى عن مفاسد تصدهم عن المامورات، مناسبات للاوامر، فقوله (و اقيموا الصلاة) الخ ... أمر باعظم القواعد الاسلامية بعد الايمان و النطق بكلمة الاسلام و فيه تعريض بحسن الظن بإجابتهم، و امتثالهم للاوامر السالفة، و انهم كملت لهم الامور المطلوبة ..

و فى هذا الامر تعريض بالمنافقين، ذلك أن الايمان عقد قلبى لا يدل عليه الا النطق، و النطق اللسانى امر سهل قد يقتحمه من لم يعتقد اذا لم يكن ذا غلو فى دينه، فلا يتحرج أن ينطق بكلام يخالف الدين، اذا كان غير معتقد مدلوله، كما قال تعالى: وَ إِذا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قالُوا آمَنَّا (سورة البقرة: ۱۴) و لذلك امروا بالصلاة و الزكاة، لان الاولى عمل يدل على تعظيم الخالق و السجود اليه و خلع الآلهة، و مثل هذا الفعل لا يفعله المشرك لانه يغيظ آلهته بالفعل و يقول: اللّه اكبر و لا يفعله الكتابى لانه يخالف عبادته، و لان الزكاة انفاق المال و هو عزيز على النفس فلا يبذله المرء فى غير ما ينفعه الا عن اعتقاد نفع أخروى لا سيما اذا كان المال ينفق على العدو فى الدين فلذلك عقب الامر بالايمان بالامر بإقامة الصلاة و ايتاء الزكاة، لانهما لا يتجشمها الا مؤمن صادق، و لذلك جاء فى المنافقين: وَ إِذا قامُوا إِلَى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى (سورة النساء: ۱۴۲) و قوله: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ ساهُونَ .. (سورة الماعون: ۴، ۵) و فى الصحيح أن صلاة العشاء اثقل صلاة على المنافقين ..

و قوله وَ ارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ تاكيد لمعنى الصلاة، لان لليهود صلاة لا ركوع فيها، فلكى لا يقولوا إننا نقيم صلاتنا دفع هذا التوهم بقوله:

و اركعوا مع الراكعين ...

مناهج المفسرين، ص: ۳۳۹

الشيخ المراغى و تفسيره

ان المفسر الذى نتحدث عنه ليس هو المرحوم الشيخ احمد مصطفى المراغى صاحب التفسير الكامل للقرآن الكريم المسمى: «تفسير المراغى».

و انما هو الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الازهر الاسبق، و قاضى قضاة السودان الاسبق، و قد ولد رحمه اللّه تعالى بقرية «المراغة» سنة ۱۲۹۸ ه- و ذلك يوافق سنة ۱۸۸۱ م، و اخذ يتعلم القرآن و شيئا من العربية فى قريته، و لما استأهل لأن ينتسب الى الازهر سافر الى مصر و التحق بالأزهر.

و اظهر نبوغا و ذكاء و جدا فى التحصيل و الدرس و لازم دروس الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده، و نهل من معينه، و هو يعد من

مدرسته.

و نال شهادة العالمية فى سنة ۱۹۰۴ على حداثة سنه، فلم تكن العادة فى الأزهر أن ينال الانسان العالمية فى سن الخامسة و العشرين، و ربما كان اذ ذاك اصغر من نال شهادة العالمية.

و فى السنة نفسها عين قاضيا فى السودان فى بلدة «دنقلة» و اخذ ينتقل فى مناصب القضاء فى السودان حتى عين قاضى قضاة السودان.

و كان الشيخ فى هذا المنصب الذى يعتبر اكبر منصب دينى فى السودان يحتفظ للمنصب بكرامته و للاسلام بعزته.

و لقد كان الانجليز اذ ذاك متصرفين فى السودان فى كل كبيرة و صغيرة، و كان مندوبهم الانجليزى اكبر شخصية هناك.

و فى يوم من الايام اقيم احتفال دينى، و كانت العادة ان يجلس قاضى القضاة على يمين المعتمد الانجليزى و يتصدر المعتمد الحفل، و لكن الشيخ

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۰

المراغى اتى الى الحفل و تصدر المجلس و لم يكن هناك بد من أن يجلس المعتمد على يمينه او ان ينسحب الشيخ الجليل فتحدث ثورة الانجليز فى غنى عنها.

و جلس المعتمد البريطانى فى المكان الثانى و احتفظ الشيخ بكرامته كقاضى القضاة و قد ظل الشيخ فى منصب قاضى القضاة حتى سنة ۱۹۱۹ ثم جاء الى مصر و عين فى سنة ۱۹۲۰ رئيسا للمحكمة الشرعية العليا.

و جاء حدث فى اثناء تولية رئاسة المحكمة ان قضية ميراث ضخمة عرضت على المحكمة و درسها الشيخ بما تستحق من عناية و دقة، سهر فيها ليلا و اطال النظر فيها نهارا حتى استبان له الحق من الباطل، و الزيف من الصواب، و علم اهل الباطل اتجاه الشيخ فارادوا عرقلة ذهابه الى المحكمة فرشوه و هو فى طريقه الى المحكمة بماء الناس، و قدر اللّه ان تكون المسأله خفيفة فاصر الشيخ على الذهاب الى المحكمة معارضا كل ما اراده اصدقاؤه من عدم الذهاب و حكم الشيخ بما رآه الحق.

و للشيخ امثال هذا كثير.

و فى مايو سنة ۱۹۲۸ عين شيخا للازهر، عين و سنه ثمانية و اربعون عاما فكان اصغر شيخ عين شيخا للازهر.

و بدأ الشيخ فى قوة يعلن عن مبادئه فى الاصلاح بمذكرة مدوية اثارت الكثير من الجدل و النقاش و المعارضة، و اشتد الامر حتى لقد آثر الشيخ ان يدع العمل و بقى قرابة ست سنوات بعيدا عن الازهر حتى عاد إليه مكرما معززا فى سنة ۱۹۳۵ و استمر به حتى وافاه القدر المحتوم فى رمضان سنة ۱۳۶۴ ه.

و التفسير الذى نعنيه هنا ليس تفسيرا متكاملا، و انما هو تفسير السور او لاجزاء من بعض السور، و نشر عدة مرات فى الازهر، و فى أحد اعداد كتاب الهلال.

و ها هو نموذج من التفسير:

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۱

وَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنا هَبْ لَنا مِنْ أَزْواجِنا وَ ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وَ اجْعَلْنا لِلْمُتَّقِينَ إِماماً. (الفرقان: ۷۴) قرّة العين: هى السرور و الفرح، مصدر من قرت عينك قرة، اى فرحت و سررت، لأن الفرح يجعل العين قارة، او لأن دمعة العين من السرور باردة.

و الامام: الحجة المقتدى به و وحدت لانها مصدر، و لا تكاد العرب تجمع المصادر و وحد الامام لانه ذهب به مذهب الاسم لا الصفة، و اذا ذهب به هذا المذهب وحد، و يكون معناه: حجة، تقول: هم امام- اى حجة، كما تقول: هم بينة، و قال بعضهم: ان الامام جمع آم، كصيام فى جمع صائم.

بعث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لأمة جاهلة، على اشد حالة بعث عليها نبى فى فترة، ما يرون دينا افضل من عبادة الاوثان، فجاء بفرقان فرق بين الحق و الباطل، و فرق بين الوالد و ولده، حتى كان الرجل يرى ولده و والديه و اخاه كافرا و قد فتح اللّه قلبه للاسلام،

و هو يعلم انه ان مات قريب له من هؤلاء دخل النار، فلا تقر عينه و هو يعلم ان حبيبه فى النار، لذلك كان المسلمون يطلبون من اللّه ان يهب لهم من ذرياتهم و زوجاتهم من يطيع اللّه و يعبده لتقر عينهم بهذا، و من الطبيعى فى النفوس ان يحب الشخص لذريته و اهله ما يحب لنفسه، و ان يتمنى الا- تكون البيئة التى هو فيها تجعل العيش مريرا، و تذهب بالفكر و تقسمه، فلا يستقيم عيش، و لا تتجه النفس اتجاها كاملا الى الخيرات و العبادات و النفع العام. مناهج المفسرين ۳۴۱ الشيخ المراغى و تفسيره

صفات عباد الرحمن ان يطلبوا ذرية صالحة مؤمنة و ازواجا مؤمنات، و من صفاتهم ان يطلبوا من اللّه زوجات عاليات فى التقوى و الطاعة يشار اليها:

أُوْلئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِما صَبَرُوا وَ يُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَ سَلاماً

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۲

خالِدِينَ فِيها حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَ مُقاماً (سورة الفرقان: ۷۵ و ۷۶) الغرفة: العلية، و كل بناء عال فهو غرفة، و قد ذكرت الغرفة واحدة و المراد الغرفات، لدلالة الواحدة على الجنس بدليل قوله سبحانه:

وَ هُمْ فِى الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (سورة سبأ: ۸۷) و قوله: لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِها غُرَفٌ (سورة الزمر: ۲۰) و المراد بها الدرجات العالية فى الجنة و التحية: الدعاء بالتعمير، و السلام: الدعاء بالسلامة.

بين اللّه سبحانه انه اعد لعباده الموصوفين بالصفات السابقة جميعها جزاء على صالح اعمالهم هو الدرجات العالية فى الجنة، و فيها تتلقاهم الملائكة بالتحية و السلام فيدعون لهم بالتعمير و الخلود، و يدعون لهم بالسلامة، هذه الدرجات استحقها هؤلاء بصبرهم على الطاعات و على ترك الشهوات، و على اذى الكفار و مجاهدتهم، و على الفقر و المصائب، و غير ذلك مما يعرض للمؤمن من المكروه، و هذا دليل على ان المؤمنين يستحقون الجنة باعمالهم، و هذا الاستحقاق بوعد اللّه سبحانه، و هو صاحب الفضل فى وعد عباده بالجنة و بهذا الوعد استحقت الجنة.

يقول تعالى: مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (سورة الحديد: ۱۱) القرض: ما يدفع من المال على شرط رده، و اذا وصف اللّه بالكرم فمعناه احسانه و انعامه الظاهران.

و اذا وصف الانسان بالكرم فهو اسم للافعال و الاخلاق المحمودة التى تظهر عليه، و لا- يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه، و كل شىء شرف فى بابه يقال له كريم.

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۳

سمى اللّه سبحانه قرضا ما ينفق فى سبيله و فى وجوه الخير ابتغاء مرضاته.

و القرض- كما سبق بيانه- ما يعطى على شرط الرد، ففى ذلك دلالة على انه سيرده الى المنفق، ثم ذكر صراحة انه سيعطيه اجرا كريما و انه سيضاعف هذا الاجر الكريم، و لا يوجد ما هو ابلغ فى الحث على الصدقة و الاحسان من هذا التعبير يقول اللّه سبحانه: هذه يدى بسطتها اريد قرضا سارده و سأجزى عليه لكل كريما مضاعفا، فمن يسمع هذا و لا يبادر الى الاجابة و يتمم عقد القرض مع اللّه؟

فالجملة مسوقة مساق التمثيل، و اثرها ظاهر فى النفس، و هى ابلغ من كل عبارة تقال فى الحث على الصدقة، و قد ذكروا ان يهوديا قال عند نزول هذه الآية: ما استقرض اله محمد حتى افتقر، فلطمه ابو بكر، فشكا اليهودى الى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال لأبى بكر: ما اردت بهذا؟ قال: ما ملكت نفسى ان لطمته، و لم يقلها اليهودى الا استهزاء و حمقا و جهلا.

و قد ذكروا فى شروط القرض الحسن وجوها:

ان يكون حلالا- فان اللّه طيب لا- يقبل الا- الطيب، و ان لا- يكون رديئا و ان يعطى للاحوج فالاحوج، و ان يكتم الصدقة و لا يتبعها المن و الاذى، و ان يقصد بها وجه اللّه دون الرياء، و ان لا يستكثرها و ان كانت كثيرة، و ان تكون من المال المحجوب عنده و ان لا

يرى لنفسه عزة الغنى و يرى للفقير ذلة الفقر، و ان يكون الانفاق فى حال رجاء الحياة و طول الامل.

و قد اكثر اللّه سبحانه فى القرآن من الحث على الصدقات و باساليب مختلفة، و فى سورة البقرة طائفة من الآيات نورد بعضها هنا تتمة لموضوع الصدقة.

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَ لا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۴

هُمْ يَحْزَنُونَ، قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ.

وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ، وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّباتِ ما كَسَبْتُمْ وَ مِمَّا أَخْرَجْنا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَ لا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَ لَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ، وَ إِنْ تُخْفُوها وَ تُؤْتُوها الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ.

وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَ ما تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغاءَ وَجْهِ اللَّهِ، وَ ما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ.

(سورة البقرة: ۲۶۲، ۲۶۳، ۲۶۵، ۲۶۷، ۲۷۱، ۲۷۲) ففى هذه الآيات ترغيب فى النفقة، و فيها شروط القرض الحسن التى، مر ذكرها و هناك احاديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مرغبة فى الصدقة، و كل هذا يدل على روح الاسلام و انه وجه للتعاون و التناصر، تحقيقا للوحدة التى يبتغيها، و تزهيدا فى المال اذا وجدت مصارفه، و بان موضوع الحق فيه.

و هذا يدل على قيمة المال، و على ان له قدرا عظيما، فإنه وسيلة الى تحصيل الاجر العظيم من اللّه، و وسيلة الى ان يعقد المؤمن مع اللّه قروضا،

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۵

و هو وسيلة فى اعزاز البلاد و اعزاز الدين اذا ما تعرض المسلم للجهاد، فلا يجوز التزهيد فى المال على معنى عدم طلبه و عدم جمعه و انما يكون التزهيد فيه على معنى عدم جمعه و حبه الحب الموجب للادخار و كيف يزهد فى المال مع ان اللّه وعد منفقه بالاجر العظيم، و بالامن و المسرة حيث قال: فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لا هُمْ يَحْزَنُونَ.

استمر السلف الصالح يفهمون هذه الآيات و يعملون بها، فصانوا بلادهم و انفسهم و ايدوا الوحدة الاسلامية و التضامن بين افراد الامة و قويت الروابط بينهم، فلم يحقد الفقراء على الاغنياء و لم ينظر الاغنياء الى الفقراء نظر المدل الفخور.

ثم نسى ذلك و قست القلوب، فظلم الناس فى جمع المال، و ظلموا فى ادخاره، و لا سبيل الا بالرجوع الى اللّه و كتابه، و لا فلاح الا بالايمان و التقوى و الانفاق فى سبيل اللّه.

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۷

تفسير الشيخ محمود شلتوت

كان الشيخ شلتوت رحمه اللّه من الشخصيات التى لا تهدأ: كان حركة و بحثا و انتاجا و جدلا هنا و هناك.

و كان لا يحب الروتين فى عمله، و كان يتسم دائما بسمة التجديد، و الناس حينما يألفون شيئا يعتقدون أنه حقيقة و يستكينون إليه، و يرضون به، فاذا ما انسان خطأ بعض مفاهيمهم، و قلب بعض الأوضاع التى يسيرون عليها، فأنهم لا يسكتون عنه و إنما يشتبكون معه فى جدال و نقاش، قد يكون أحيانا حادا عنيفا، كذلك كان الامر مع الشيخ شلتوت و قد اشتبك فى معارك علمية كثيرة و هاجم و دافع و كان له أنصار و كان له خصوم.

و لم تكن حياته بسبب ذلك هادئة رخاء، فقد فصل فى يوم من الأيام من الأزهر لأنه مجدد و مخرج، و ثائر على الأوضاع المعروفة، و

استمر فصله مدة طويلة، ثم اعيد إلى الازهر من جديد فلم يترك منهجه فى السلوك.

و هو أول من اقترح على الاذاعة أحاديث الدين الصباحية، و رأى القائمون على الاذاعة وجاهة الاقتراح فعهدوا إليه بالامر فترة طويلة من الزمن، و كان صوته يجلجل كل صباح متسما بالحيوية القوية، و الاسلوب الطيب، و الفكرة الجديرة بأن تسمع.

و اشترك مع غيره من علماء الدين النابهين فى التقديم للقرآن الكريم حينما يتلى فى الاذاعة و كان هذا تجديدا أيضا فى برامج الاذاعة و كان هذا التقديم متتابعا متتاليا يقدم الربع من القرآن الكريم، ثم يقرأ القارئ فيكون المستمع على علم بمضمون ما يسمع من التلاوة.

و كان مركز الشيخ شلتوت يقوى و يتركز يوما فيوما حتى وصل به الامر إلى مشيخة الأزهر.

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۸

و ولد الامام الاكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الازهر الاسبق فى قرية منية بنى منصور بمحافظة البحيرة سنة ۱۸۹۳ و درس العلم بمعهد الاسكندرية الدينى .. و استمر فى طريق التعليم مرحلة بعد مرحلة حتى نال شهادة العالمية النظامية سنة ۱۹۱۸.

هذا عن تعليمه:

أما عن تدرجه فى الاعمال فقد عمل مدرسا بمعهد الاسكندرية، ثم انتقل إلى التدريس بالقسم العالى .. و عمل بعض الفترات بالمحاماة، ثم نال عضوية جماعة كبار العلماء سنة ۱۹۴۲ و تدرج فى مناصب الازهر حتى اختير شيخا للازهر سنة ۱۹۵۸.

و كان له نشاط بارز فى البحوث الدينية و المؤتمرات العلمية و مجال التأليف الذى كان أنضج ثمراته تفسير القرآن الكريم.

و يمثل تفسير الشيخ شلتوت الدراسة العلمية الموضوعية التى تجعل القرآن اصلا للبحث و أساسا للتشريع، فيجمع إلى الآية التى يقصد تفسيرها ما يناسبها من آيات و ما يرتبط بها من موضوعات العلوم، ثم يعالج موضوع الآية معالجة عامة شاملة تبرز موقف القرآن بل الدين عامة من هذا الموضوع.

و يمتاز هذا التفسير بوضوح الفكرة و سهولة الاسلوب و جمال التنظيم.

و قد اعتبره مؤلفه مظهرا من مظاهر نشاط المسلمين فى خدمة القرآن الكريم و قد تحدث فى مقدمته عن جهود المسلمين فى خدمة القرآن فقال:

«لا نكاد نعرف علما من العلوم التى اشتغل بها المسلمون فى تاريخهم الطويل إلا كان الباعث عليه هو خدمة القرآن الكريم من ناحية ذلك العلم:

فالنحو الذى يقوم اللسان و يعصمه من الخطأ أريد به خدمة النطق الصحيح للقرآن و علوم البلاغة التى تبرز خصائص اللغة العربية و جمالها أريد بها بيان نواحى الاعجاز فى القرآن و الكشف عن اسراره الادبية و تتبع مفردات

مناهج المفسرين، ص: ۳۴۹

اللغة و التماس شواردها و شواهدها و ضبط الفاظها و تحديد معانيها، أريد بها صيانة الفاظ القرآن و معانيه أن تعدوا عليها عوامل التحريف و الغموض.

و التجويد، و القراءات لضبط اداء القرآن، و حفظ لهجاته.

و التفسير لبيان معانيه و الكشف عن مراميه.

و الفقه لاستنباط احكامه.

و الأصول لبيان قواعد تشريعه العام و طريقة الاستنباط منه.

و علم الكلام لبيان ما جاء به من العقائد و اسلوبه فى الاستدلال عليها.

و قل مثل ذلك فى التاريخ الذى يستدل به المسلمون تحقيقا لما أوحى به الكتاب الكريم فى مثل قوله:

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ (يوسف: ۳) وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ (هود: ۱۲۰) وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (القمر: ۴) و قل مثل هذا أيضا فى علوم تقويم البلدان و تخطيط الاقاليم الذى يوحى به مثل قوله تعالى:

فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ (آل عمران: ۱۳۷) فَامْشُوا فِي مَناكِبِها (الملك: ۱۵) و فى علوم الكائنات التى يوحى بها مثل قوله:

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ كانَتا رَتْقاً فَفَتَقْناهُما وَ جَعَلْنا مِنَ الْماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ (الانبياء: ۳۰)

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۰

أَ لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَ يُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبالٍ فِيها مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ وَ يَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاءُ يَكادُ سَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصارِ، يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ (النور: ۴۳) و هكذا علوم الفلك و النجوم و الطب، و علوم الحيوان و النبات و غير ذلك من علوم الانسان لا يخلو علم منها أن يكون الاشتغال به فى نظر من اشتغل به من المسلمين مقصودا به خدمة القرآن، أو تحقيق إيحاء أوحى به القرآن.

حتى الشعر انما اشتغلوا به ترقية لأذواقهم، و تربية لملكاتهم، و اعدادا لها كى تفهم القرآن و تدرك جمال القرآن.

و حتى العروض من أسباب عنايتهم به أنه وسيلة لمعرفة بطلان قول المشركين أن محمدا شاعر و أن ما جاء به شعر.

و انتقل الشيخ شلتوت إلى بيان مناهج المفسرين و الوان تفسيرهم و منها ما يغلب عليه بيان نواحى البلاغة و الاعجاز.

و منها ما يهتم بالفقه و التشريع و بيان أصول الاحكام .. و هكذا.

ثم علق على ذلك بقوله:

لهذا كله اعتقد أنى لا أتجاوز حد القصد و الاعتدال اذا قلت: أنه لم يظفر كتاب من الكتب سماويا كان أو أرضيا فى آية أمة من الأمم قديمها و حديثها بمثل ما ظفر به القرآن على أيدى المسلمين و من شارك فى علوم المسلمين .. و لعل هذا يفسر لنا جانبا من الرعاية الالهية لهذا الكتاب الكريم الذى تكفل اللّه بحفظه و تخليده فى قوله:

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۱

«إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ».

فما كان الحفظ و التخليد بمجرد بقاء الفاظه و كلماته مكتوبة فى المصاحف مقروءة بالألسنة متعبدا بها فى المساجد و المحاريب، و إنما الحفظ و الخلود بهذه العظمة التى شغلت الناس و ملأت الدنيا، و كانت مثارا لأكبر حركة فكرية اجتماعية عرفها البشر.

و لم يقتصر الشيخ شلتوت على عرض الجهود، و كشف مظاهر خدمة المسلمين للقرآن بل نبه إلى أشياء ينبغى تنزيه القرآن عنها، فقال:

و إذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب اللّه بهذه العناية، و اشتغلوا به على هذا النحو الذى افادت منه العلوم و الفنون، فان هناك مع الأسف الشديد ناحيتين كان من الخير أن يظل القرآن بعيدا عنهما، احتفاظا بقدسيته و جلاله، هاتان الناحيتان هما:

ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق و الخلافات المذهبية.

و ناحية استنباط العلوم الكونية و المعارف النظرية الحديثة منه.

و يهمنا هنا تفصيل الناحية الثانية و تتمثل فيما يرى الشيخ شلتوت فى طائفة المثقفين الذين أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة و يقيسون آيات القرآن على مقتضاها.

و من الامثلة على ذلك أن يفسر بعض الناظرين فى القرآن الكريم قوله تعالى:- فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ، يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (الدخان: ۱۰، ۱۱) بما ظهر فى هذا العصر من الغازات السامة و الغازات الخانقة التى انتجها العقل البشرى فيما أنتج من وسائل التخريب و التدمير، يفسرون الآية بهذا و يغفلون عن قوله تعالى:

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۲

رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ، أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَ قَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ، ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ، وَ قالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ.

(الدخان: ۱۲، ۱۳، ۱۴) ثم يقول: و لسنا نستبعد- اذا راجت عند الناس فى يوم ما نظرية داروين مثلا- أن يأتى إلينا مفسر من هؤلاء المفسرين الحديثين فيقول:

«ان نظرية داروين قد قال بها القرآن منذ مئات السنين» و هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، لأن اللّه لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم، و دقائق الفنون، و أنواع المعارف.

و هى خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها و المغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الاعجاز و لا يسيغه الذوق السليم.

و هى خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان و مكان و العلوم لا- تعرف الثبات و لا- القرار و لا الرأى الاخير، فقد يصح اليوم فى نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات.

فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها و تحمل تبعات الخطأ فيها و لا وقفنا انفسنا بذلك موقفا حرجا فى الدفاع عنه.

و حسبنا أن القرآن و لم يصادم- و لن يصادم- حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول و لا يتأتى أن ننقل نموذجا كاملا من هذا التفسير لاعتماده على الناحية الموضوعية و اسهابه فى الكلام عما يتعرض له من آيات.

و عن قوله تعالى: لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْواهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ، وَ مَنْ يَفْعَلْ ذلِكَ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (النساء: ۱۱۴)

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۳

يشير إلى أن الاعمال و خاصة ما ذكر فى الآية يكون لصاحبها الاجر العظيم اذا فعلها خالصة بها نيته مبتغيا بها مرضاة ربه.

هذا هو الاساس فى فهم الفضيلة: ترسم أوامر اللّه و تنفيذها ابتغاء مرضاة اللّه و من هنا جهد المؤمنون باللّه فى سبيل اللّه بأموالهم و أنفسهم، و أهليهم و عشيرتهم، و كان ذلك فى نظرهم الحياة الخالدة، و الغنى الدائم و السعادة الابدية.

و هناك فريق من الناس يرون أن اساس الفضيلة هو تلبية الضمير فيما يعتقدون خيّرا للمجتمع و يرون ان هذا كاف لسعادة الانسان و مد الضمير كفيل بتقدير الخير و معرفته دون الرجوع إلى اللّه، و ما يرسم لعباده من شرع و خلق، و أنهم بهذا ليسوا فى حاجة إلى الوحى و ان الوحى إذا كان قائما يحتاج إليه لإرشاد من ليسوا أرباب الضمائر الحية المستيقظة.

و قد فات هؤلاء أن فهم ما ينفع الهيئة الاجتماعية و ما لا ينفعها كثيرا ما تختلف فيه الانظار و الآراء و قلما تجد فى تاريخ هذه النظرية قديمة و حديثة- اتفاقا على نفع جزئية معينة أو ضرر جزئية معينة و فاتهم أيضا أن النظر الواحد أو الضمير الواحد كما يعبرون كثيرا ما يتغير فى معرفة الخير و الفضيلة.

و قد عدل كثير من الفلاسفة عن آرائهم الاولى و استحدثوا آراء أخرى جديدة .. و لهذا تعترك فى عصرنا الحاضر المذاهب الاجتماعية، من ديمقراطية و فاشية و نازية و شيوعية و اشتراكية بل يتنازع أرباب المذهب الواحد، بل يتناقض الفرد الواحد مع نفسه و رأيه، فى وقتين مختلفين و كل هؤلاء يتحاكمون إلى الضمير أو يتحاكمون إلى الادراك البشرى و فى معرفة الفضيلة و هو تحاكم- كما نرى- إلى أساس غير ثابت و لا منضبط و لا مأمون العاقبة.

و هو فى الوقت ذاته سير بالنفس و بالعالم فى طريق محفوفة بالمخاطر تهدد العالم فى امنه و استقراره و تشعل فيما بين جوانبه نار الحروب و التدمير.

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۴

و لا سبيل إلى الاستقرار فى هذا العالم، و سلامته من أثر الآراء المشتجرة بالا بالرجوع إلى أساس ثابت منضبط، صادر عن عليم بطيات

النفوس، و نزعات البشرية، يبصرهم ذلك الاساس بالخير و الفضيلة التى ارتسمت فى لوح الوجود الحق الذى لا يكتبه إلا خالق الوجود و مدبر الكون على ما يعلم فيه من سنن و شئون، و ليس ذلك المبصر إلا وحى العليم الحكيم:

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً.

(الإسراء: ۹)

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۵

تاج التفاسير لكلام الملك الكبير للامام محمد عثمان الميرغنى

انه تفسير فى جزءين، كل منهما يقرب من ستمائة صحيفة، و هو مؤلف على سبيل الايجاز على غرار تفسير الامامين الجليلين: جلال الدين المحلى، و جلال الدين السيوطى.

أما مؤلف هذا التفسير الجليل: فهو امام من كبار الائمة فى العصر الحديث و كان له أثر كبير فى نشر الدعوة الاسلامية فى افريقيا، و كان من أثر تبشيره أن اعتنق الاسلام على يديه عشرات الألوف من الوثنيين.

و لقد اتخذ الاسلوب الموفق للدعوة و ذلك أنه كان صوفيا قد تجرد من الطمع و الشره و اخذ الاجر على دعوته.

كان متواضعا، رفيقا، زاهدا، عابدا، ذاكرا صاحب اوراد و حضرات، فكان بذلك يجذب العدد الكثير إلى الاسلام.

ولد رضى اللّه عنه فى الطائف فى سنة ۱۳۰۸ هجرية، و فقد والديه صغيرا فكفله عمه، و أخذ الامام فى الدراسة و التعليم، فحفظ القرآن و تعلم العلم و أصبح فى مكانة علمية مرموقة و دفعته نزعته الدينية و شعوره الروحى الفطرى أن يتلمس الطريق إلى اللّه على مذهب التصوف و بعد دراسة علمية عند هؤلاء و أولئك استقر به المقام عند الشيخ أحمد بن ادريس الفاسى الذى كان يتخذ من مكة مقاما، و هو الذى وجهه إلى الرحلة التبشيرية.

سافر الامام إلى مصر و الحبشة و اريتريا، و توقف فى اريتريا فترة من الزمن هاديا مرشدا، و قد كان يسكن جبال اريتريا كثير من القبائل الوثنية فانغمس فيهم، و لما رأوا النور فيه و الاشراق تابعوه و أخذوا عليه العهد، و لما اطمأن إلى خلفائه فى اريتريا ذهب إلى صعيد مصر، و مكث فترة سافر بعدها إلى السودان

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۶

متنقلا بين سهوله و جباله شرقا و غربا، و لما وصل كردفان أسس فيها مسجدا كعادته فى كل مكان يطيل فيه الاقامة السنية التى تسمى الآن الختمية. أما مدينة سواكن فإنه أسس بها ثلاثة مساجد.

و من الطريف أنه أسس فى هذه المدينة مدرسة لتعليم المرأة فكانت أول مدرسة أسست للمرأة فى السودان، و من هذه المسألة تبين افقه الواسع و فكره الثاقب.

و فى أثناء هذه الرحلات الكثيرة كان يؤلف فى المسائل التى تعرض له أثناء سياحته.

ان مشاكل المجتمعات كثيرة، و لا بد لها من حل فكان الامام كلما عرضت له مشكلة ألف فيها حتى لا تكون فتواه كلاما ينسى على مر الزمن.

و من مؤلفاته، و ربما كان اهمها كتابه «تاج التفاسير» الفه فى الربع الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى، يقول بعض من كتبوا عنه:

«و قد امتاز تفسيره بوضوح الاسلوب و الخلوص من مصطلحات العلوم و الفنون، فهو يتناول الآيات الكريمة و يفسرها تفسيرا يقوم على الدلالات اللغوية و ربطها بما ترمى إليه من المعانى الشرعية و الروحية فى أسلوب مبين، و عبارة موجزة واضحة لا لبس فيها و لا غموض.

و قد خلا هذا الكتاب من الاسرائيليات و من الاسهاب فى القصص التاريخى، و التزم بما جاء فى أوائل السور المرموزة من التفسير

الاشارى، و ان كان لا يتعرض اليه- فيما عدا ذلك- إلا قليلا مما لا يتعارض مع ما يرمى اليه النظام الحكيم- هذا مع العناية بالقراءات فى غير اسهاب و لا تطويل، بالاضافة إلى ذكر الاحاديث النبوية الواردة فى فضائل السور.

أما المؤلف نفسه فإنه يقول فى تواضع جم:

«لقد رسخ فى الخاطر الغائر منذ سنوات مع التماس بعض الاحباب

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۷

الاكابر، و الاخلاء أصحاب الخاطر العاطر، تأليف تفسير لكلام من لا يحيط بعلوم سواه، و لا يعلم اجمال و تفصيل ما به العلوم غير مصطفاه، و لكن عبر كل و بحسب ما اقتبس من مشكاة بحر انواره، فافتقيت الاثر، و استمددت منه و من كتب أخباره المستمدين منه فوضعت هذا التفسير و اختصرته الاختصار الذى لا يفيد دونه الصغار و لا الكبار و جعلته فى عبارة سهلة يفهمها العوام و الخواص و مزجه بالسنة الغراء» أ. ه.

و هاك نموذجا من تفسيره .. يقول تعالى:

إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ، وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ، قالَ اللَّهُ هذا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ، لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ، ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (المائدة: ۱۱۸، ۱۱۹) يقول: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ أى تعذب من كفر منهم فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ لا شريك لك فيهم وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ أى تغفر لمن آمن منهم، فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ القادر على الثواب و العقاب الْحَكِيمُ فى تنزيل كل أحد منزله.

و فى الصحيحين: عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال: قام فينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بموعظة فقال:

«يا أيها الناس انكم تحشرون إلى اللّه حفاة عراة غرلا، كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين، ألا و ان أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم صلّى اللّه عليه و سلم الا و انه يجاء يوم القيامة برجال من أمتى فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابى فيقال: انك لا تدرى ما أحدثوا بعدك؟ فأقول كما قال العبد الصالح: «و كنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم و أنت على كل شيء شهيد، ان تعذبهم فإنهم عبادك، و ان

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۸

تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم» فيقال لى: «انهم لم يزالوا مرتدين على اعقابهم منذ فارقتهم».

و فى الحديث أنه قام صلّى اللّه عليه و سلم ليلة كاملة بآية، و الآية: إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ، وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

قال اللّه هذا يوم، و قرئ يوم، أى يوم القيامة «ينفع الصادقين» الذين صدقوا فى معاملة اللّه «صدقهم».

و فى الحديث عنه صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: «عليكم بالصدق، فإنه باب من أبواب الجنة و إياكم و الكذب فإنه باب من أبواب النار».

«لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار» محتوية على أشرف النعم بفضل الغفار «خالدين» فيها أبدا «لا يخرجون منها» رضى اللّه عنهم «و أحلهم بحبوحة رضاه» و رضوا عنه حيث أولاهم نعماه و دخول حماه، و شهود محياه.

ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ و كيف لا و قد احتوى على النظر لوجه اللّه الكريم» أ. ه.

و نموذج آخر من تفسيره: يقول اللّه تعالى:

إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الْحَبِّ وَ النَّوى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَ مُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ، ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ.

فالِقُ الْإِصْباحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ حُسْباناً ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِها فِى ظُلُماتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ. قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَ هُوَ الَّذِى أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَ مُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ

يَفْقَهُونَ.

مناهج المفسرين، ص: ۳۵۹

وَ هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ نَباتَ کُلِّ شَیْءٍ فَأَخْرَجْنا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَراکِباً وَ مِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِیَةٌ، وَ جَنَّاتٍ مِنْ أَعْنابٍ وَ الزَّیْتُونَ وَ الرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَ غَیْرَ مُتَشابِهٍ، انْظُرُوا إِلی ثَمَرِهِ إِذا أَثْمَرَ وَ یَنْعِهِ إِنَّ فِی ذلِکُمْ لَآیاتٍ لِقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ. (الأنعام: ۹۷، ۹۸، ۹۹) یقول:

«إن اللّه فالق» شاق «الحب» بالنبات «و النوی» من النخل «یخرج الحی کالإنسان و الطیر» من المیت «کالنطفة و البیضة» و مخرج المیت «کالنطفة و البیضة» من الحی «من الإنسان و الطیر» ذلکم اللّه «هو القادر علی ذلک» فانی «فکیف» «تؤفکون» تصرفون عن توحیده، مع هذه الدلائل الواضحة- «فالق الإصباح» شاق عمود الصبح عن ظلمة اللیل- و قرئ الأصباح بفتح الهمزة، فالق بالنصف «و جعل اللیل سکنا» یسکن فیه الخلق من التعب، لأن فیه النوم، و النوم به الراحة، و قرئ .. و جعل الشمس و القمر و قرئ بالجر، و قرئ بالرفع «حسبانا» تحسب بهما الأوقات «ذلک» تسییرهما بالحساب «تقدیر العزیز» مقدرة لهما علی السیر المطلوب منهما العلیم بکیفیة سیرهما «و هو الذی جعل» خلق «لکم النجوم» رحمة منه لتهتدوا بها «فی سیرکم» فی ظلمات البر و البحر و تعرفوا بها الجهات «قد فصلنا» بیّنا الآیات الدالات علی کمال قدرتنا «لقوم یعلمون» و فی ذلک یتفکرون، و فی الخبر قال صلّی اللّه علیه و سلم: «تعلموا من النجوم ما تهتدون به فی ظلمات البر و البحر، ثم انتهوا» أخرجه ابن مردویه فی تفسیره «و هو الذی انشأکم» خلقکم «من نفس واحدة» أی آدم «فمستقر» فی الاصلاب و مستودع فی الارحام، «قد فصلنا الآیات» بیناها «لقوم یفقهون» و عن اللّه یفهمون «و هو الذی أنزل من السماء» لإغاثة عباده «ماء» مطرا «فأخرجنا» لرزق عباده «به» الضمیر للماء «نبات» نبت کل شیء من أصناف المنبت «فأخرجنا منه» أی من النبات «خضرا»

مناهج المفسرین، ص: ۳۶۰

شیئا أخضر «نخرج منه» الضمیر للخضر «حبا متراکبا» سنابل «و من النخل» من طلعها و هو أول ما یخرج منها «قنوان» عراجی «دانیة» قریب بعضها من بعض «و جنات» بساتین «من أعناب» أی من عنب و هو من أشرف الفواکه و أحسنها و ألطفها، و فیه یقول اللّه لموسی فی مکالمته: «یا موسی لو کنت آکلا لأکلت الخبز بالعنب» و فی الجاف منه یقول النبی صلّی اللّه علیه و سلم: «علیکم بالزبیب فإنه یکشف المرة و یذهب بالبلغم، و یشد العصب، و یذهب العیاء، و یحسن الخلق، و یطیب النفس و یذهب الهم» رواه أبو نعیم.

«و الزیتون» هو شجر أیضا شریف فیه برکة کثیرة «و الرمان» و هو من ألطف الفواکه و أحسنها «مشتبها و غیر متشابه» فی الألوان و الطعوم «انظروا» معتبرین «إلی ثمره إذا أثمر» کیف یثمر ضعیفا کأنه لا ینتفع به «و ینعه» کیف یعود ضخما ینفع و یلذ «ان فی ذلکم» من الأشیاء المذکورة «لآیات» تدل علی کمال قدرة الحق «لقوم یؤمنون» فإن نور الإیمان هو الذی به یهتدی.

مناهج المفسرین، ص: ۳۶۱

ضیاء الاکوان للشیخ احمد سعد العقاد

حینما تحدث علماء التفسیر عن شروط المفسر فإنهم رأوا أن من بینها:

أن یکون المفسر تقیا. و ما من شک أن التقوی من مصادر الالهام و الفهم الصافی، حینما تتوافر الشروط الاخری فی المفسر، و قد نشأ مؤلفنا فی بیئة دینیة صالحة تقیة. فقد کان من سلالة علماء صالحین اتقیاء.

ولد بمدینة الفیوم عام ۱۳۰۷ ه و توفی عام ۱۳۷۳ ه.

و بعد أن درس فی بلدته القرآن حفظا و تجویدا و أخذ حظا من علوم العربیة، أخذ أهبته إلی مرکز النور و المعرفة: الأزهر- الذی کان محط أنظار الطامعین المؤمنین و اجتهد فی الدراسة فکان مرموقا لجده و ذکائه.

و أرادت العنايـة الالهيـة به أن يلتقى بالعارف باللّه السـيد محمد ماضـى أبو العزائم فوجهه نحو الاسـتقامة التى نشأ فى رحابها مؤلفنا و أصبحت الاستقامة بالنسبة له فطرة و تعليما، سلوكا و دراسة، و نشأ مؤلفنا اذن نشأة الشاب الذى لا صبوة له.

و لمـا انتهت الدراسـة بالأزهر عينته وزارة الأوقاف أماما و خطيبا فى مسـجد من كبار المساجـد فاشـتغل فيه بالتـدريس للعامـة و شـرح كتـاب اللّـه و تعليـم الفقـه و غير ذلـك من العلـوم، و كـان يقيـد مـا يـدرس فخرج من ذلـك بمجموعـة كـبيرة من الكتب فى العلـوم الإسلامية.

منها ما طبع، و منها ما زال مخطوطا، لم يطبع:

۱- الدين النصيحة.

۲- كنوز العارفين فى ميراث الأنبياء و المرسلين.

۳- كتاب الهجرة النبوية.

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۲

۴- كتاب مواهب الإنسان.

۵- الأنوار القدسية فى شرح أسماء اللّه الحسنى.

۶- السعادة فى الدخول من باب التوبة.

و من كتبه التى ما زالت مخطوطة:

۱- الفقه على المذاهب الأربعة.

۲- ريحان العارفين فى حكمة أحكام الدين.

۳- الشرف الأعلى فى اسراء من «دنا فتدلى».

۴- الإنسان الكامل.

۵- مقامات أهل اليقين.

و أجل كتبه هو ما تقدمه اليوم: «ضياء الأكوان فى تفسير القرآن».

يقول فى مقدمته:

«فقد عزمت بحول اللّه تعالى و قوته على كتابة تفسير للقرآن الكريم يكون سـهل العبارة ريق الإشارة يجمع بين جمال تفسيره و أسرار تأويله، متحريا فى ذلك الصحيح من الأقوال مجتنبا الحشو و التطويل.

و ان الكثير من التفاسير فيه أقوال ضعيفة و تواريخ مكذوبة، و آراء متعارضة، و سأتحرى بمشيئة اللّه ما يوافق الشرع و يتمشى مع العقل.

و قد وضع المؤلف لكتابه مقدمة: «تكشف لقارئها بعض أسرار القرآن».

و من هذه المقدمة يقول تحت عنوان: «الآيات القرآنية»:

كل آية فى القرآن بمنزلة دواء مستقل أو كنز للسعادة، منها آيات يخاطب اللّه بها العقول على قدرها بقوله:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (الروم: ۲۴) و العقل هو الذى يتقبل الآيات بالموازين و القوانين و يحكم على الأشياء بقدر ما وهب له من الاستعداد النورانى، و يخاطب اللّه الألباب بقوله:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَ النَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الْأَلْبابِ.

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۳

و اللب هنا هو الروح التى بها حياة القلب التى بها الاستعداد للتلقى عن اللّه، و منها آيات يخاطب اللّه بها الفكر فى قوله تعالى:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الروم: ۲۱) و الفكر قوة تتجول فى الآثار و ترجع بالمعلومات و تعرضها على العقل فيثبت منها ما شاء فهو وزير العقل.

و من الآيات ما يخاطب اللّه به القوة الذاكرة، و هى المعبر عنها بالحافظة فى قوله: إنّ فى ذلك لآيات لقوم يتذكّرون.

و الذاكرة قوة تبحث عن معلوماتها الأولية التى اشتغلت عنها بالمظاهر الحسية، فبالتذكر يصل العبد إلى ذكر العهود الأولية، و ذكر النعم الالهية الظاهرة و الباطنة.

و لم ترد آية فى القرآن تقول: إن فى ذلك لآيات لقوم يتخيلون أو لقوم يتوهمون فما أوقع الناس فى التيه و الغرور الا شيطان الوهم و زخارف الخيال و القرآن يتكلم فى صميم الحقائق و الرجل من تباعد عن الخيالات و الأوهام و تمسك بالحقائق الناصعة.

و من الآيات ما يخاطب بها أهل العلم و العرفان بقوله:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِينَ (الروم: ۲۲) و يخاطب أهل الإيمان بقوله:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الروم: ۳۷) و الإيمان قوة فى القلب تفتح له عيونا يشرف بها على معانى الهيبة الالهية و الجلال فيؤمن بالغيب و يرى أن كل السمعيات التى وردت عن الشارع الحكيم كأنها مشهودة أمامه و يخاطب اللّه أهل السمع بقوله:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (الروم: ۲۳)

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۴

و السمع الحقيقى اذن واعية فى القلب صاغية لنداء الرب، و الاذن الحسية بمنزلة السماعة التى توصل للقلب الخطاب.

و من الآيات ما يخاطب اللّه بها أهل الكشف النورانى و الذوق الروحانى بقوله: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (الحجر: ۷۵) و المتوسم هو الذى يعرف العوالم بسيماهم و يكشف ما وراء استار المادة بالنور الالهى فى ضميره.

و من لآيات ما يخاطب اللّه بها أهل اليقين بقوله:

إنّ فى ذلك لآيات لقوم يوقنون.

و اليقين قوة الهية تكسب العبد رسوخا و ثباتا و تكشف عنه الحجب.

و يخاطب اللّه المحسنين: و الإحسان قوة فى القلب تجعل العبد يحسن ألفاظه و أعماله و نيته، و يلاحظ أن اللّه معه بسمعه و يراه. قال تعالى:

إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (آخر أية فى سورة العنكبوت) و يخاطب اللّه أولى الأبصار بقوله:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصارِ.

و البصر ما يدرك ظواهر الكون و يوصلها الى حدقة عين القلب، و البصيرة ما تدرك الأمور الخافية و لا يكمل العبد إلا إذا كان يتدبر فى الآيات الظاهرة و يتجول فى الآيات الباطنة.

فإذا قال اللّه إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ فإنه يقول:

يا أهل العقول اننى أتحدث معكم الآن فتدبروا و اعتبروا، و إذا قال:

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (الروم: ۳۷) كأنه يقول: يا أهل الإيمان سلموا تسعدوا، و إذا قال لقوم يتفكرون قال: يا أهل التفكير تجولوا فى الآثار فتغنموا، فانزل كل آية فى رتبتها الخاصة و تناول دواءها الخاص حتى تعرف الأدوية الروحية القرآنية «و اللّه أعلم» ا. ه.

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۵

و الآن نأتى بنموذج من تفسيره:

قوله: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ (البقرة: ۴۵) أراد الحق تعالى أن يصف دواء نافعا للامراض القلبية فبين دواء مركبا من عنصرين:

الأول: الصبر، و هو حبس النفس عن شهواتها طلبا للثواب من اللّه تعالى، و الصبر أساس كل فضيلة، و ما وصل إنسان إلى المعالى الاعلى معراج الصبر، و الصبر أقسام:

- صبر على طاعة اللّه و جهاد النفس، و صبر عن معصية اللّه و محارمه.

- و هناك صبر مذموم و هو الصبر عن حبيبك و هو اللّه تعالى فتنساه و تتسلى بغيره ...

و متى تعود العبد الصبر و تخلق به صار صبورا و الصابر يعطى أجره بغير حساب. قال تعالى: إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ.

و الصوم من الصبر لأنه يمنع النفس عن شهواتها.

قوله: «و الصلاة» هى الخضوع و الخشوع للّه بالقلب و الجوارح، و متى تمكن العبد من الصبر فى طوايا نفسه و الخشوع فى ضميره و جوارحه فقد استعان على تزكية نفسه و تطهيرها و اقبالها على اللّه، و كأن النفس و حظوظها كجيش محارب و السلاح الذى يقهرها هو الاستعانة التى وصى بها اللّه بالصبر و الصلاة.

قوله: وَ إِنَّها لَكَبِيرَةٌ يعنى الصلاة كبيرة يعنى ثقلية على النفوس.

قوله: إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ يعنى الاستعانة بالصلاة سهلة لذيذة على أهل الخشوع و هم الذين عرفوا اللّه و طلبوا رضاه و اعتقدوا أن الدنيا دار سفر فصبروا على مشاقها و أن الصلاة قرة أعينهم لأنها تدخلهم فى حضرة مولاهم و تؤنسهم بجنابه، أ. ه و تنبهت القلوب و كأنها قالت: يا رب بين أهل الخشوع لنعرفهم. فقال تعالى:

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۶

الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ (البقرة: ۴۶) يعنى يوقنون و يعلمون علم يقين أنهم سيلقون الرب تعالى و معنى لقاءه تعالى- هو كشف الستائر الحاجبة للعبد عن اللّه فيراه قريبا مجيبا محيطا، العارفون باللّه يكرمهم اللّه بلقائه هنا، فتشهد عيون أرواحهم أنوار وجهه الجميل، و أسرار تجلياته فيأنسون به فى كل مشهد و مظهر، و إنما عبر هنا بيظنون و لم يقل يوقنون رحمة بعباده فإنهم يشهدون من تجلياته على قدرهم، و الحقيقة فى غيب الغيب و الحق تعالى يقول فى الحديث القدسى:

«أنا عند حسن ظن عبدى بى» فالظن منك فى شهود الأنوار يقين عند اللّه و اليقين هو كشف الأمر على ما هو عليه و هو لا يتمكن منه أى مخلوق عند مواجهة الحقيقة و لقاء اللّه الحق عند الخاصة يكون كرامة لهم هنا بعيون الروح لا بعيون الرأس، و فى الآخرة يكون بالعينين.

قال تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ.

(القيامة: ۲۲، ۲۳) قوله: وَ أَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ يعنى بالموت و مفارقة الحياة:

ينسلخون من الغواشى و الهيكل و تتخلص أرواحهم من الظلمات و ترجع إلى أصلها، و هو النور فيتجلى لها النور جل جلاله، أ. ه.

و نموذج آخر:

وَ إِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ (البقرة: ۱۲۴) سبق فى علمه تعالى أن يبتلى العباد، و الابتلاء هو الاختيار و الامتحان الذى يكشف مكنون النفوس و يوضح غوامض الضمائر و لم يكن الامتحان لتجديد علم بل الحق تعالى يعلم ضمائر الخلق، و يرى الملبى و المخالف و لكن قدر ذلك لتظهر تلك الحقائق مشهودة للخلق فتكون شرفا للمطيع و حجة و سندا للمؤمن و تكون بلية على العاصى و إظهارا للكامن فى نفسه من الخبث و القساوة

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۷

و الجحود و الامتحان قدره اللّه على الملائكة فى خلق آدم و على ابليس فى السجود لآدم و على الأنبياء فى تحمل البلايا، و على الأولياء فى القيام بالجهاد الشديد للنفس و الدنيا و قدره على بنى الإنسان أجمع ليقف كل إنسان عند حده فلا يدعى الولاية الشديدة مخالف و لا يدعى التقوى عاص، حكمة بالغة، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: «أشدكم بلاء الأنبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل،

فالامثل» و الذى يثبت فى الامتحان و ينال شهادة من اللّه بها رفعة شأنه و علو قدره و احترامه فى الدنيا و الآخرة و الكلمات هى الأوامر الالهية التى كلف اللّه بها خليله و قدرها عليه فصبر و ثبت و رضى، فمن ذلك: ابتلاه بالرمى فى النار، و من ذلك ابتلاه بأخذ السيدة هاجر و ابنها إسماعيل و التوجه بهما إلى أرض الحجاز بجوار الكعبة حيث لا ماء و لا ظل و لا أنيس، فثبت و سلم ولده و زوجته للّه تعالى فهو أرحم من إبراهيم بولده و زوجته، و من ذلك ابتلاه بذبح ولده إسماعيل و كلفه ببناء البيت و القيام بإرشاد الحق له بأعمال الفطرة الحنيفة فنفذ الخليل كل ذلك، فشهد له الحق بقوله (فاتمهن) يعنى قام بالواجب بصدر رحب و عزم صادق فلما و فى نال مقام الوفاء فمنحه اللّه مقام الصفاء و أعلى ذكره فى القرآن و بشره بعد الثبات فى الامتحان بقوله: «قال إنى جاعلك للناس إماما» يعنى صيرتك قدوة للعباد، و السيد إبراهيم محبوب عند كل طوائف الامم و معناه أب رحيم و هو من ذرية سام ابن نوح عليه السلام، و كأن الحق تعالى يقول إننى لم أمنح خليلى رتبة التقدم و الامامة إلا بعد الامتحان و النجاح فيه و قد امتحن اللّه المؤمنين بقوله:

أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَ هُمْ لا يُفْتَنُونَ.

(العنكبوت: ۲) و لما بسط الحق بساط الانس و المال للخليل و بشره بالبشرى التى تشرح الصدور بقوله إِنِّى جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً طمع الخليل فى وسعة الحق و كرمه فطلب منه نفحة لذريته بقوله قالَ: وَ مِنْ ذُرِّيَّتِى يعنى اجعلهم ائمة للعالم، فقال الحق قالَ: لا يَنالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (البقرة:

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۸

۲۴) يعنى لا- يدعوك تلطفى معك و أنك بعطفى أن أغير شيئا مما فى علمى فاجعل الظالم مقدما محترما فإن كل مخالف من ذريتك لا ينال عهدى يعنى مودتى و كرمى و رحمتى و نعمى، و فى هذا الرد على الخليل من الحق ما يجعل قلوب العارفين تخشع و تمتلئ بالهيبة من جلال الحق، و قد قال العارفون: اذ انبسط لك الحق بجماله فانقبض و تأدب معه و إذا تجلى لك بجلاله فانهض و افرح، فى حضرته فمهما أعطاك فكن على حذر فالسيد الخليل مع جلالة قدره طلب لذريته مطالب فأجابه فى البعض و لم يجبه فى الآخر فلا تركن الى أبيك و شرفه و مجده و انظر هل أنت ظالم لنفسك أم عادل؟

مناهج المفسرين، ص: ۳۶۹

تفسير محمد فريد وجدى

اشارة

مفسرنا هو الاستاذ الجليل محمد فريد بن مصطفى وجدى، من أعلام العصر الحديث و من مشاهير العلماء و الفلاسفة و رجال الصحافة.

برز نشاطه فى كل مجال من المجالات، و ثبتت أقدامه على طريق الحياة الطويل فى دنيا الفكر و التأليف الذى قضى فيه ما يزيد على الخمسين عاما.

ولد الاستاذ وجدى بمدينة الاسكندرية، و انتقل منها إلى دمياط فامضى بها فترة الشباب، ثم انتقل إلى السويس فأصدر بها مجلة الحياة، ثم انتقل إلى القاهرة فأنشأ مطبعة فى حياة البحث و التأليف حتى انتهت به الحياة.

كان حار الدفاع عن الحق، شديد التمسك بما يعتقده صوابا، سلس الأسلوب واضح الفكرة، بعيدا بهدفه فى الحياة. و لقد تحدث عن العوامل التى أثرت فى فكره، و رسمت معالم شخصيته فقال:

كنت فى سن السادسة عشرة، طالبا بالمدرسة التحضيرية، و كان أبى (مصطفى وجدى) موظفا فى الحكومة المصرية، و حدث أن اختير وكيلا لمحافظة دمياط، فكان لا بدّ من انتقالى مع عائلتى إلى هذه المدينة التى اشتهر أهلها الدماثة لا خلاق و التفقه فى الدين.

و لما نزلنا هذه البلدة مع أبى أقبل علماؤها و كبار أهلها يرحبون به، فكان يجتمع فى دارنا عدد كبير منهم و كنت إذا ناقشت أحد العلماء فى مسألة تتعلق بالكون و الخلق أسرع إلى قفل باب المناقشة، و أمرنى الا- أخوض فى المسائل الدينية أو أبدى فيها رأيا فامتعضت لذلك و قلت فى نفسى،: لا بدّ أن يكون ما يدرسونه من الكتب عقيما و من هنا تزلزلت عقيدتى، و شرع الشك يتسرب إلى نفسى حتى صرت لا أرتاح إلى رأى واحد يتضمنه كتاب، و لا انتصر على

مناهج المفسرين، ص: ۳۷۰

فكرة معينة يجتهد بعض العلماء فى اثباتها بما أدلى من قوة الحجة و ساطع البرهان.

و جعلت أتناول بالقراءة و الدرس جميع الكتب الدينية و الكونية و الاجتماعية و سائر ما يتعلق منها بعلم النفس، و اكببت على ذلك عدة سنين، فاكتسبت علما غزيرا، و اتسع أمامى نطاق الحياة، و جال نظرى فى الكائنات جولات أفادتنى فيما أتناوله بالحديث و الدرس حتى صرت لا- أقتنع بفكرة دون أن أعتنى بدرسها و تمحيصها معتمدا فى ذلك على تجاربى الذهنية التى مرت بى، و قد أفادنى هذا استقلالا فى الفكر و اعتمادا على النفس، و رغبة فى استيعاب ما يقع بين يدى من الكتب على اختلاف أنواعها بمصر كما افادنى دقة فى البحث حتى ازال الشك عنى و ارتاحت نفسى إلى عقيدة ثابتة.

و بدأ طريق الحياة العلمية الجادة على أسس قوية من العقل و الروية و التفكير و فى سنة ۱۹۰۱ م اصدر كتابه «الاسلام فى عصر العلم» و هو كتاب فى جزءين مناسبين فى وضوح أن الاسلام حث على العلم و أشاد به، و دفع المسلمين إليه و أنه لا- تعارض مطلقا بين الاسلام و العلم و ما وصل إليه العلم فى العصر الحاضر من آفاق مادية و حضارة صناعية، فان ذلك كله لا يتعارض منه شىء مع الاسلام، بل أن ذلك كله يؤيده الاسلام و كلما تقدم العلم كان تأييدا للاسلام.

و تفرغ للبحث و التأليف فغطى الصحف اليومية الشهيرة بمقالات و بحوث، و من أبرز هذه الصحف: الاهرام، و الجهاد، ثم اشتغل بتحرير مجلة الأزهر و ظل رئيسا لتحريرها حتى وافاه الموت فى فبراير سنة ۱۹۵۴ م سنة ۱۳۷۳ ه.

و الناظر فى حياة مفسرنا الجليل يجد أن نشاطه العلمى كان يمثل تيارا دافقا بالحياة، و أنه قضى حياته الطويلة يدافع عن اهداف محدودة يوضحها و يشرحها و يدفع عنها كل تحريف أو اتهام. و هذه الاهداف: هى الاسلام، و الدين، و الروحية.

مناهج المفسرين، ص: ۳۷۱

و لعل أهم ما شغل فكره و ظهر فى نتاجه الكبير قضية الروحية و المادية و الدفاع عن الروحية تجاه المادية، و اقامة الادلة على الروح، و ما إلى ذلك مما هو نابض فى كل مؤلف من مؤلفاته.

و لقد استطاع تطويع اللغة العربية للتعبير عن النواحى الفلسفية و الافكار العلمية بأسلوب بارع رشيق، حتى لقد صاغ بعض أفكاره و مناقشاته فى صورة مقامات كمعلقات بديع الزمان الهمذانى و مقامات أبى القاسم الحريرى و غيرهم، و قد جمعت تلك المقامات فى كتاب باسم الوجديات، و قال فى مقدمته بعد أن ذكر بعض من كتب بهذا الاسلوب من الادباء و العلماء فرأينا أن نحتذى مسالكهم و نترسم خطواتهم بوضع مقامات أدبية ترمى لاغراض تعليمية و زدنا على متقدمينا بأن جعلنا الصفة الفلسفية فيها تغلب على سواها حرصا منا على الغرض الرئيسى الذى حدانا لنشرها.

و يبين غرضه من تأليفها فيقول:

تصوير مثل عليا للحياة الفاضلة، و امداد النفوس بالقوى الادبية الضرورية لها.

و قد أثمر كفاحه العلمى الطويل عدة مؤلفات قيمة من ابرزها:

۱- دائرة معارف القرن العشرين فى عشرين مجلدا، و أتمها فيما يقرب من ثلاث سنين و هو عمل تنوء به طائفة كثيرة من العلماء، و لكنه يدل على هذه العزيمة القوية النادرة التى تحلى بها وجدى و على ما تحلى به أيضا من تنظيم دقيق لوقته و على ما تحلى به من ذاكرة واعية لما يقرأ و من حسن تصرف فيما يقرأ و قدرة على الانتفاع به إلى أكبر مدى من الانتفاع.

۲- السيرة المحمدية تحت ضوء العلم و الفلسفة و هو كتاب جميل حاول به فريد وجدى أن يقرب حقائق السيرة إلى اذهان شبابنا و أن يحببهم فيها ليتخذوها مثلا أعلى يحتذونه و هذا هدف شريف، و لقد قام به فى أسلوب رصين، و فى دراسة تتسم بروح العصر و بأسلوبه.

مناهج المفسرين، ص: ۳۷۲

۳- «الاسلام دين عام خالد» بين فيه الاسس و الاصول و المبادئ التى قام عليها الاسلام فى صورة من الاسلوب الرائع و العرض السهل.

۴- نقد كتاب فى الشعر الجاهلى للدكتور طه حسين.

۵- فضلا عن العديد من الابحاث و المقالات فى كثير من الجرائد و المجلات، و قد ترجم كتاب على اطلال المذهب المادى، و هو إن كان ترجم اجمل و أدق ما تكون الترجمة فإنه احتوى على كثير من آراء فريد وجدى الشخصية تعليقا و شرحا. بل ان الكتاب كله يمثل رأى فريد وجدى نفسه و تسرى روحه فى كل جزء منه.

۶- و كان تفسيره صفوة العرفان فى تفسير القرآن المعروف بالمصحف الميسر من أعماله السامية.

ملامح من حياته

: عاش وجدى ما يزيد على خمسة و سبعين عاما، قضى أكثرها فى البحث و التأليف، و قد امتاز فى حياته بالجدية و متانة الخلق و وضوح الهدف و التأنى فى تحقيقه.

حكى الاستاذ العقاد أنه عطل جريدة الدستور لعسر حالته، و باع آلاتها لتسديد أجور العمال مليما بمليم، و رفض فى نفس الوقت عرضا سخيا من حكومة تركيا الفتاة ليكون لسان حالها و ناشرا لافكارها فى بلاد الشرق.

و كان معتنيا بصحته، مراعيا لسلامة الجسم و النفس عاملا بما يقول:

نموذجا طيبا بسلوكه كما كان نموذجا طيبا فى تفكيره و تأليفه و كان نباتيا.

و كانت وفاته بعد حياة حافلة ۱۹۵۴، سنة ۱۹۷۳ ه بمصر.

و لقد دخل فريد وجدى فى الحياة الفكرية الاسلامية فى عصره دخولا حكيما.

مناهج المفسرين، ص: ۳۷۳

لقد درس مشكلات العصر و كتب فى الكثير منها كتابات مستفيضة سواء تعلقت بإصلاح المجتمع أو المسائل الفلسفية أو أو الجوانب الروحية.

و لقد اضطره ذلك إلى أن يدخل فى جدل مستفيض مع الذين يرى أنهم ليسوا على الحق لقد دخل فى جدل طويل مع المرحوم الشيخ رشيد رضا، و استمر النزاع بينهما فترة طويلة من الزمن و دخل فى جدل مع المرحوم الشيخ عبد الواحد يحيى الذى كان يرى أن تحضير الارواح تعامل مع الجن، أو مع كائنات أخرى، من كائنات لا صلة لها بالارواح حقيقة، و ثار نزاع و نقاش بينهما فى المجلة التى كانت تصدر فى سنة ثلاثين بعنوان «المعرفة».

و لم يهدأ فريد وجدى طيلة حياته بحثا و عرضا لآرائه و مناقشة لخصومه و بيانا لوجهة نظره التى يرى أنها الحق.

و كان من عاداته الجميلة أنه كان يستقبل زائريه كل ليلة فى بيته بعد صلاة المغرب مباشرة إلى وقت صلاة العشاء. يجيب عن استفساراتهم و يوضح مشكلاتهم، و يبين الحق فيما يثور من جدل فى الصحف و المجلات.

و لو قيض اللّه سبحانه و تعالى لهذه الجلسات من سجلها لا بانت عن كثير من الحقائق فى مسائل مختلفة من العلم و الاجتماع.

و بعد: فان فريد وجدى يقول:

«يجب على أن أنبه إلى أنى استخلصت هذا التفسير من الآراء المجمع عليها لدى أئمة المفسرين و أقطاب أهل السنة فلم أخرج به عن

سنتهم قيد شعرة ليوافق مذهبا من المذاهب أو يؤيد رأيا من الآراء الفردية، و لو اضطرنى الكلام ببعض الآيات على أن أورد لى، أو لاحد من غير أهل السنة نبهت إليه و عزوته لقائله حتى يكون القارئ على بينه من أمره».

و هذا النهج الذى أتبعه فريد وجدى هو النهج المستقيم الذى يجب اتباعه فيما يتعلق بالتفسير.

مناهج المفسرين، ص: ۳۷۴

و المنهج الذى ذكره وجدى للتفسير حاول تحقيقه خصوصا فيما يتعلق بسهولة التعبير و يسر الشرح و العناية بمعانى الالفاظ، و كل صحيفة من القرآن فى هذا التفسير يحيط بها هامشان أحدها للمعنى و الآخر للالفاظ، و خير لهذا التفسير أن نأتى بصحيفة كاملة من القرآن الكريم توضح لنا فى صورة دقيقة منهجه و طريقته.

و قد طبع هذا التفسير عدة طبعات و ظن الناس أن فريد وجدى لم يقم فى تفسير القرآن و بيان اهدافه الا بهذا الكتاب الذى بين أيديهم.

و هذه الفكرة ليست بصواب، و هى تصوير خطأ لعمل فريد وجدى فى تفسير القرآن و ذلك أن فريد وجدى قبل أن يفسر القرآن كتب مقدمة مستفيضة تعتبر وحدها كتابا نفسيا، بين هذه المقدمة المستفيضة ما يستفيض فيه الباحثون من مسائل القرآن كالبعث مثلا و الجنة و النار، و الالوهية و النبوة، يقول فريد وجدى عنها:

هذه المقدمة طبعها فريد وجدى من عشرات السنين و نفدت طبعتها من زمن بعيد و لم يطبعها الذين طبعوا المصحف المفسر، فاعتقد الناس أن هذا هو العمل الوحيد لفريد وجدى فيما يتعلق بتفسير القرآن.

و الواقع أن هذه المقدمة ضرورية لكل قارئ لتفسير وجدى، و أنها هى و التفسير عمل متكامل و نرجو اللّه سبحانه و تعالى أن يشرح صدور الطابعين لهذا التفسير لطبع المقدمة معه فى الطبعات التالية.

أما ما يؤخذ على تفسير وجدى و على وجدى نفسه، فهو أن صلته بالحديث لم تكن وثيقة، و من أجل ذلك نجد فى كتاباته من آن لآخر، و على قلة الأحاديث الضعيفة، و كنا نتمنى أن لو كانت صلته بالحديث أوثق.

كما أنه لم يخل فى كتاباته من أن يوطئ بعض النواحى الدينية للتيارات الفلسفية فيحاول فى رفق شرحها بحسب الوضع الفلسفى، و الوضع الفلسفى وضع بشرى لا يثبت على حال.

مناهج المفسرين، ص: ۳۷۵

و من نماذجه

: يقول اللّه تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ ما فِى السَّماواتِ وَ ما فِى الْأَرْضِ وَ لَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ، يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَ ما يَخْرُجُ مِنْها وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَ ما يَعْرُجُ فِيها وَ هُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ، وَ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ، قُلْ بَلى وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِى السَّماواتِ وَ لا فِى الْأَرْضِ وَ لا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَ لا أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتابٍ مُبِينٍ. (سورة سبأ الآيات ۱- ۲)

تفسير الألفاظ

: ما يَلِجُ فِى الْأَرْضِ أى ما يدخل فى الأرض يقال: ولج يلج ولوجا، أى دخل، و الذى يلج فى الأرض هو الغيث و ما يدفن فيها من مقتنيات و موتى.

وَ ما يَخْرُجُ مِنْها كالنباتات و المعادن و العيون .. وَ ما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ كالملائكة و الوحى و الأرزاق.

وَ ما يَعْرُجُ فِيها كالملائكة و أعمال العباد .. الخ يقال: عرج يعرج عروجا، أى صعد.

«بلی» حرف جواب قد تأتی رد النفی کما فی هذه الآیة أو جوابا لسؤال منفی نحو قوله تعالی: «أَ لَسْتُ بِرَبِّکُمْ؟ قالُوا: بَلی»: «لا یَعْزُبُ» أی لا یغیب یقال: عزب عنه الشیء یعزب، و یعزب عزوبا بعد و غاب و خفی، أما عزب الرجل یعزب عزبة و عزوبة، فمعناه صار عزبا، أی بلا زوج «فی کتاب» هو اللوح المحفوظ الذی فیه ما کان و یکون إلی یوم القیامة.

مناهج المفسرین، ص: ۳۷۶

تفسیر المعانی

: الحمد اللّه الذی له ما فی السموات و الأرض خلقا و إبداعا، و له الحمد فی الآخرة علی جمیل احسانه و رحمته و هو الحکیم الخبیر، یعلم ما یدخل فی جوف الأرض و ما یخرج منها، و ما یهبط من السماء و ما یصعد إلیها، لا تخفی علیه صغیرة و لا کبیرة مما یحصل فی ملکه الذی لا ینتهی إلی حد و هو الرحیم و الغفور.

و أنکر الذین کفروا مجیء یوم القیامة، قل: بلی و اللّه عالم الغیب، لتجیئنکم لا یخفی علیه ثقل ذرة من هباء فی السموات و الأرض، و لا أصغر و لا أکبر منها، إلا فی کتاب مبین هو اللوح المحفوظ. ا ه.

مناهج المفسرین، ص: ۳۷۷

التفسیر الواضح للشیخ محمد محمود حجازی

اشارة

رحم اللّه الشیخ محمد حجازی- لقد عرفناه و احببناه، احببناه لخلقه السمح و ادبه الجم. و علمه الغزیر، اما عن خلقه فإنه کان سمحا صفوحا لا تستثیره المهاترات: انه کان یعرض عنها و کان قلبه طاهرا طهر الماء الصافی لا بجمل حقدا لاحد، و لا ضغینة لانسان و کان من الذین اذا مروا باللغو مروا کراما، و لذلک قل اعداؤه و انکمش هؤلاء الذین ینفسون علی العالم علمه و علی المؤلف تألیفه، و عاش حیاته فی هدوء نسبی متفرغا للعلم، دائبا علی الدراسة.

ولد الشیخ فی محافظة الشرقیة عام ۱۹۱۴ و درس العلم فی معهد الزقازیق و کان مثالا للطالب المجد الذی لا شأن له یغیر ما قدم الیه و هو العلم، و لم تکن مغریات الحیاة قد انتشرت فی مدینة الزقازیق، فلم تجذبه زینة الحیاة الدنیا، و کان المعهد یأخذ طلبته بالجد الصارم فانصرف الطالب الی التحصیل.

و لما انتهی من دراسته فی معهد الزقازیق یمم وجهه شطر القاهرة دارسا بکلیة اللغة العربیة، و لم یشغله زخرف القاهرة فجد حتی نال العالمیة، ثم عین مدرسا بمعهد الزقازیق الذی تخرج منه و القریب من بلده.

لقد عاد الی المعهد الذی درس فیه طالبا: عاد الیه شیخا مدرسا و کانت سعادته عظیمة و فرحته لا تحد حین مشی بسمته الازهری الجمیل فی فناء هذا المعهد، و اخذت عیناه تفحصان الأمکنة التی مشی فیها، او جری نحوها، او لعب فیها، او تلقی الدرس فی رحابها و ها هو یتحدث سعیدا مع بعض طلبة المعهد من بلدته، الذین کانوا قد انتسبوا الی المعهد حین اوشک هو علی مغادرته، او الذین انتسبوا الیه من بعده، لقد کان ابناء بلدته یعتزون به، و یعتز هو بهم، فیوجه الیهم النصح فی صورة صدیق و فی صورة أخ اکبر.

مناهج المفسرین، ص: ۳۷۸

و کانوا یحمدون فیه تواضعه و عاطفته الجیاشة بحب الازهر و یحب ابناء بلدته.

و اخذ فی السنوات الاولی من التخرج یعد نفسه لمستقبل علمی زاهر، و اتجه علی الخصوص الی التفسیر.

کتب الشیخ حجازی تفسیره و هو ما زال مدرسا بمعهد الزقازیق، و کان طموحه ان یکون بین اعلام اساتذة کلیة اصول الدین، فاخذ

يعد رسالة لنيل الدكتوراة و اختار لها موضوعا دقيقا عميقا، هو: «الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم».

و لعل اختياره لهذا الموضوع لم يكن اختيارا بالمعنى العادى للكلمة، و ذلك انه يشبه ان يكون قد فرض نفسه، انه يقول فى مقدمة رسالة الدكتوراة:

«و لقد راعنى و انا اكتب «التفسير الواضح» هذا النسق العجيب فى سور القرآن و ترتيبها فى المصحف، فهذه سورة مدنية بجوار سورة مكية، و هذه سورة مدنية وسط عدد من السور المكية و هكذا.

ثم اذا نظرت الى نفس السورة و آياتها تجد العجب العجاب، تجد السورة و قد جمعت آيات متعددة، و إن تكن متناسبة و متلائمة، و لكنك تجد السورة تتحدث من موضوع خاص، فما ذا قرأت غيرها تجدها تحدثت هى الأخرى عن نفس الموضوع، و لكن بشكل خاص و نسق يلتئم مع جو السورة التى قيل فيها، هذه ظاهرة استرعت البحث و النظر، اما السابقون فتخلصوا من هذا بالقول بالنسخ فالآية المتأخرة نسخت التقدمة و هكذا.

و اما نحن فقد هدانا اللّه الى القول بنظرية «الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم».

لهذا كانت تلك النظرية جديدة على الاسماع فرفضها البعض و حاول منع نقاشها بجامعة الازهر، و لكن الحق يظهر دائما و لا بد ان يبدو الصبح لذى

مناهج المفسرين، ص: ۳۷۹

عينين و اما المنصفون و المعتدلون فطالبوا بالدليل، و البيان، و ضرب الامثلة، مع الحجة و البرهان.

ثم هم بعد ذلك طالبونى بتعميم الفائدة، و نشر هذه الرسالة فاجبت الطلب و اللّه المستعان.

ثم يقول فى تواضع جم:

و بعد: فهذه رسالة أتقدم بها الى كلية اصول الدين بجامعة الازهر لنيل الدكتوراة و عنوانها: (الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم).

و الحق يقال: إننى لست من رجال هذه الابحاث الدقيقة العميقة المتصلة بالقرآن الكريم، و لكنها محاولة، دفعنى اليها حب البحث فى كل ما يتعلق بكتاب اللّه، فان اصبت فذلك الفضل من اللّه و الا فهى محاولة.

و الله يهدى الى الحق و هو نعم النصير أ. ه.

اما عن التفسير فإنه بعد محاولات عدة و تجارب فى الوان التفسير استقر رأيه على كتابة تفسير للقرآن يكون مختصرا واضحا متأسيا فى ذلك بما كان الامر عليه فى الصدر الأول للإسلام و ذلك ان المسلمين فى الصدر الأول من الإسلام كانوا يختصرون فى التفسير الى درجة انهم كانوا يقتصرون تقريبا على تفسير الكلمة او على تفسير الآية بكلمات قليلة او تفسيرها بحديث من الاحاديث الشريفة او بأثر عن صحابى جليل.

و اثر الشيخ محمد حجازى هذا المنهج و اقتنع بحكمة القدماء فى ترك القرآن دائما غضا نضرا تتفهم النفس منه مباشرة الهداية و الرشاد، و ترتفع معه النفس الى الافق السامى الذى احبه اللّه للمسلمين و بينه فى القرآن الكريم، و قد اهدى التفسير الى: «الى الذين اذا ذكروا اللّه وجلت قلوبهم، و اذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا الى الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه، الى اخواننا المسلمين فى مشارق الارض و مغاربها اهدى هذا و احسب اجرى عند اللّه أ. ه.

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۰

و يقول فى مقدمته للطبعة الاولى:

«و بعد فهذا هو القرآن الكريم بل هذا هو الهدى و النور، كتاب شرحه بلغة سهلة واضحة لا- تعمق فيها و لا- ابعاد، خالية من المصطلحات العلمية الفنية تفسر للشعب كل ما فيه من صوغ المعنى الاجمالى للآية، بلغة العصر مع البعد عن الحشو و التطويل و الخرافات الإسرائيلية و الاعتدال فى الرأى، فلم يهدم كل قديم، و لم يرفع كل جديد، و ان يكن لكل فارس كبوة.

و لا طاقة للناس الآن بالاطالة فيما لا شأن له باصل الغرض من التفسير اذ لهم ان يفهم القرآن اكبر عدد ممكن من المسلمين.

أ لم يأن للحق ان يدحض الباطل كما دحضه فى صدر الاسلام، و قد يكون ما تراه من الجمعيات الاسلامية و المؤاخاة الدينية جذوة فيها ضوء يسطع ليبصر من اراد ان يسعد عاجلته و آجلته و فيها نار تحرق هؤلاء الشياطين الذين لم يستمعوا من اللّه، و لا من الحق فجعلوا من جاههم و نفوذهم حربا على الاسلام ابقاء على زخرف كاذب و فرارا من حقوق اخوانهم فى الدين و الانسانية قبلهم.

و ها نحن الآن قد عزمنا «و العون من اللّه وحده» على الكتابة فى التفسير على ان يخرج الجزء الاول ثم الذى يليه و هكذا. فان كان للعمر بقية و من اللّه تأييد، ثم هذا العمل الذى نقصد به وجه اللّه.

و لا انكر انه عمل ضخم ليس لمثلى ان يتعرض له و لكن:-

و اكذب النفس اذا حدثتهاان صدق النفس يزرى بالامل و سنظل و الحمد للّه ندفع بايدينا و بالسنتنا و باقلامنا عن حمى هذا الدين حتى يظهره اللّه او نهلك دونه، و لن يضيعنا اللّه.

و صدق اللّه اذ يقول: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (محمد: ۷)

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۱

و يقول فى مقدمة الطبعة الثانية: «حمدا يا رب حمدا»:

لقد طوقت جهدى بفيض توفيقك، و غمرتنى بنور هداك، فمضيت احوم حول فرآنك الابدى الخالد و دستورك السليم القويم، على اظفر بما يجلو و يوضح فخامته، لا يثنينى وصب و لا نصب حتى تنفس للمتردد صبح، و انبلج للسارى نور، و بدت معانيه لمن حرموا التعمق لتراكم اثقال الحياة عليهم، او فاتهم ركب العلم سهلة واضحة تبين لهم عن رحيب قدرتك، و واسع و شامخ عظمتك و شكرا ايها الحافلون بجهدى شكرا.

لقد شجعنى اقبالكم فدست الاشواك، و اقتحمت المصاعب و مضيت غير عابئ بتعب او مال غايتى وجه اللّه فى افهام ما ينطوى عليه القرآن من معنى ظاهر باوجز لفظ و ايسر عبارة و اسهل اسلوب ليغزو شعاعه كل قلب، و يعمر هداه كل نفس فيزدادوا ايمانا على ايمانهم و تسكن نفوسهم بنور ربهم و قد احسست ان حقا واجبا فى عنقى لمن افلتت من ايديهم الاعداد الاولى من: «التفسير الواضح» لن تبرأ منه الذمة حتى استجيب لرغباتهم الملحة الهاتفة.

و ها أنا ذا البى بحمد اللّه و عونه، و اتيح الفرصة لمن فاتتهم الفرصة فاضع بين ايديهم الطبعة الثانية.

و ان فيها لاعتصارا جديدا لجهدى، و فى سبيل اللّه يهون الاعتصار، و انها ايها الاخوان لمحققة مدققة فيها الكثير فاستدركت ما زلت به سرعة الطباعة، و استودعتها ما وقفت عليه من جديد.

و اللّه ارجو ان يرضى به عملا، ان يهيئ من لدنه القوة و السداد حتى اتم ما بدأ انه لنعم النصير و الظهير، و هو ولى التوفيق.

يقول اللّه تعالى: حافِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَ الصَّلاةِ الْوُسْطى وَ قُومُوا لِلَّهِ قانِتِينَ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجالًا أَوْ رُكْباناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۲

اللَّهَ كَما عَلَّمَكُمْ ما لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

(سورة البقرة: ۲۳۸، ۲۳۹)

المفردات

: «حافظوا» داوموا عليها باتقان (الوسطى) المتوسطة او الفضلى و المراد بها صلاة العصر على الاصح (قانتين) ذاكرين اللّه فى القيام مداومين على الضراعة و الخشوع.

المعنى

: الصلاة عماد الدين و الركن العملى الاول الذى يكرر فى اليوم خمس مرات لما لها من الاثر الفعال فى تطهير النفس و هى كالبئر يغتسل منه المصلى خمس مرات فى اليوم و الليلة فهل يبقى عليه من درن؟

و لهذا كله امرنا بالمحافظة عليها و وضعها بين الاحكام التى تتعلق بالبيوت و الاسر إشارة الى انه يجب الا تشغلنا البيوت و ما فيها و لا انفسنا عن الصلاة و للاشارة الى ان الصلاة و الاتصال بالله مما يصفى الروح و يزيل كدرتها التى كثيرا ما تكون سببا فى ازمات تقع فى الاسرة.

وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ، حافظوا على الصلاة مطلقا يحفظكم من كل هم و غم و يحفظكم من الفحشاء و المنكر خاصة الصلاة الوسطى و هى العصر لقوله صلّى اللّه عليه و سلم يوم الاحزاب:

«شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر».

و وقت صلاة العصر كما يقولون وقت وسط بين وقتى الظهر و المغرب فهى متوسطة بهذا المعنى، و قوموا للّه خاشعين ذاكرين اللّه دون سواه.

و للاشارة الى خطر الصلاة و انه لا يصح لمسلم ان يتركها لعذر قيل ما معناه لا عذر فى ترك الصلاة حتى فى مجال الخوف على النفس او المال او العرض بل صلوا على اى كيفية راكبين او ماشين سائرين او

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۳

واقفين، على اى وضع كان، فاذا زال الخوف فاذكروا اللّه فى الصلاة كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون من كيفية الصلاة فى حال الامن و الخوف.

و نموذج آخر

: يقول اللّه تعالى: وَ إِذا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ، وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْآصالِ وَ لا تَكُنْ مِنَ الْغافِلِينَ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ.

(سورة الاعراف: ۲۰۴)

المفردات

: فَاسْتَمِعُوا الاستماع يزيد عن السمع بالاتصال و القصد و النية.

تَضَرُّعاً من الضراعة و الذلة و الخضوع وَ خِيفَةً خائفين بِالْغُدُوِّ الغدو جمع غدوة و هى ما بين صلاة الفجر الى طلوع الشمس وَ الْآصالِ جمع اصيل و هو ما بعد العصر الى الغروب.

المعنى

: اذ قرئ القرآن الكريم فاستمعوا له بانصات و ادب و قصد مع السكون و الخشوع رجاء ان ترحموا من اللّه فإنه لا يستمع لكلامه بادب و حسن استماع الا المخلصون الذين فى قلوبهم نور الايمان و برد اليقين اما من اهمتهم الدنيا و اقضت مضاجعهم حتى اصبحت قلوبهم خلوا من نور الايمان تراهم عند سماع القرآن لا ينصتون ابدا بل و يتكلمون فى توافه الامور.

و الآية عامة فى الصلاة و الخطبة و غيرهما، ايليق بالمسلم ان يتكلم الله فلا

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۴

يستمع و يتكلم جاره فيستمع؟

و اذكر ربك فى نفسك و ذلك بذكر اسمائه و صفاته و شكره و استغفاره و المهم التذكر بالقلب الا بذكر اللّه تطمئن القلوب.

اذكره ضارعا متذللا خاضعا خائفا راجيا ثوابه، مع إتمام الاسم و عدم استعمال ما يخل اذكره بلسانك و قلبك ذكرا دون الجهر و فوق السر اى اذكره وسطا بين هذا و ذاك «و لا تجهر بصلاتك و لا تخافت بها و ابتغ بين ذلك سبيلا».

و انسب الأوقات للذكر وقت الصباح و المساء و بقية النهار و تحصيل الرزق و إياك أيها المسلم ان تكون من الغافلين عن ذكر اللّه بقلبك، و اعلم ان الذين عند ربك من الملائكة و المقربين لا- يستكبرون عن عبادته و يسبحونه فى الليل و النهار، و له وحده يسجدون فكيف بك؟

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۵

المنتخب فى تفسير القرآن

اشارة

ان الحاجة الماسة فى العصر الحاضر تدعو الى ترجمة معانى القرآن الكريم ترجمة دقيقة بقدر الاستطاعة. و ذلك ان الترجمات الموجودة فى الاغلب الاعم منها، تقصر عن الترجمة الدقيقة فى بعض الآيات و تضل فى البعض الآخر.

و ذلك لقصور المترجمين فى احدى اللغتين المترجم منها، او المترجم اليها، او لقصورهم فى بعض العلوم التى تتصل بالقرآن الكريم اتصالا وثيقا كالاحاديث النبوية الشريفة، او اسباب النزول، او السيرة النبوية.

من اجل ذلك لا تمثل الاغلبية من هذه الترجمات المعنى القرآنى تمثيلا صحيحا.

و هذا التمثيل الصحيح ضرورى لنشر الدعوة و لبيان المبادئ الاسلامية للغرب. و لكل من لا يعرف اللغة العربية بيانا صادقا.

و لكن المجلس الاعلى للشئون الاسلامية فى جد للقيام بهذا العلم، و هيأ له كل وسائل النجاح، و جمع مجموعة ضخمة من العلماء، و أبان لهم الفكرة، و وضع لهؤلاء العلماء منهجا فيما بينهم، و بدءوا، و رأى المشرفون على العمل من العلماء أنفسهم ان هناك تفاوتا بين مفسر و آخر، و بين الاطالة و الايجاز، و رأوا المشارب تختلف و تتعدد، و هذا امر طبيعى، و لكن كان من الضرورى ان يكون هناك نوع من الانسجام التقارب الوثيق اذا لم يتأت اتحاد المنهج اتحادا تاما، فؤلفت لجنة من كبار العلماء سميت لجنة التنسيق و أخذت تنسق ما يأتيها من موارد التفسير حتى يكون المنهج و الطابع منسجما متقاربا.

و حينما قطعت لجنة التنسيق شوطا لا بأس به فى العمل و اصبح المنهج و الطابع مفهوما واضحا، انقسمت اللجنة إلى ثلاث لجان، و ذلك للتمكن من السرعة فى انهاء هذا العمل الجليل.

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۶

و فى هذه الاثناء كان الخبراء فى الفنون المختلفة كالفلك، و الاحياء، و الطب يدرسون الآيات المتصلة بعلومهم فى القرآن الكريم و يضعون عليها تعليقات موجزة، و كانت لجنة التنسيق تنظر فى كل ذلك حتى انتهت من العمل على خير اسلوب و اصبح العمل معدا اعدادا متقنا للترجمة.

و لكن شاءت المقادير ان يكون هذا العمل الذى اعد اولا و قبل كل شىء للترجمة يصبح تفسيرا للقرآن الكريم يتهافت عليه الناس من مختلف الهيئات و البيئات و يصبح اكثر التفاسير القرآنية رواجا.

لانه فى متناول كل الناس على مختلف ثقافاتهم.

و لانه موجز يتناسب مع طابع السرعة فى العصر الحاضر، و لانه حقيقة الامر قد هيأ اللّه سبحانه و تعالى له الدقة و التركيز و السهولة.

و هو تفسير يجمع إلى ايجاز العبارة: الوفاء بالمعنى المراد، بعيدا عن التعقيد قريبا من الهدف الذى يرجى من القرآن، و هو انتفاع المسلم العادى بما فى كتاب اللّه مما فيه صلاح دينه و دنياه و آخرته من اقرب طريق، فكان هذا التفسير الذى اسهم فى اخراجه جمع من العلماء فى المجلس الاعلى للشئون الاسلامية.

مميزات هذا التفسير

: ۱- يمتاز هذا التفسير بانه وضع باسلوب عصرى سهل واضح العبارة و جيز لا يخل و لا يمل.

۲- يخلو هذا التفسير مما كثر فى تفاسير السابقين من:

الخلافات المذهبية، و المصطلحات الفنية، و الحشو، و التعقيدات اللفظية.

۳- يخلو هذا التفسير من كثير مما فى تفاسير السابقين من قصص أو ما يشبه الاساطير و الحكايات و الاخبار الإسرائيلية.

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۷

۴- روعى فى هذا التفسير ان يكون فى مقدور العلماء باللغات الاجنبية من ابناء العربية نقل معانى القرآن و ترجمتها الى تلك اللغات الاجنبية حتى تظل رسالة المسلم هى التبليغ دائما امرا بالمعروف و نهيا عن المنكر و عملا بموجب كتاب اللّه سبحانه.

۵- كل آية فى هذا التفسير وضع لها تفسيرها بازائها حسب الارقام الواردة فى المصحف فالآية رقم (۱) تفسيرها تحت نفس الرقم (۲) تفسيرها تحت هذا الرقم (۲) و هكذا.

۶- قد يلحق بتفسير بعض الآيات اشارات بالهامش تتعلق بالمعنى العام للآية او لإيضاح لفظ او لبيان مسألة من المسائل تترتب على المعنى المفهوم من اللفظ او الآية على وجه العموم.

نماذج من هذا التفسير:

فى قوله تعالى من سورة البقرة:

قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَ مَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً، وَ اللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ- (۲۶۳) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الْأَذى، كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النَّاسِ، وَ لا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ، فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً، لا يَقْدِرُونَ عَلى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا، وَ اللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ- (۲۶۴) وَ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمُ ابْتِغاءَ مَرْضاتِ اللَّهِ وَ تَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصابَها وابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَها ضِعْفَيْنِ،

مناهج المفسرين، ص: ۳۸۸

فَإِنْ لَمْ يُصِبْها وابِلٌ فَطَلٌّ، وَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ- (۲۶۵) الآية (۲۶۳) تفسيرها:

قول تطيب به النفوس، و تستر معه حال الفقير، فلا تذكر لغيره، خير من عطاء يتبعه ايذاء بالقول أو الفعل، و اللّه سبحانه و تعالى غنى عن كل عطاء مصحوب بالأذى و يمكن الفقراء من الرزق الطيب.

الآية (۲۶۴) تفسيرها:

لا تضيعوا ثواب صدقاتكم أيها المؤمنون بإظهار فضلكم على المحتاجين و ايذائهم فتكونوا كالذين ينفقون أموالهم بدافع الرغبة فى الشهرة، و حب الثناء من الناس و هم لا يؤمنون باللّه و لا باليوم الآخر، فإن حال المرائى فى نفقته كحال حجر املس عليه تراب، هطل عليه مطر شديد فأزال ما عليه من تراب فكما إن المطر العزير يزيل التراب الخصب المنتج من الحجر الأملس، فكذلك المن و الأذى و الرياء تبطل ثواب الصدقات فلا ينتفع المنتفعون بشىء منها، و تلك صفات الكفار فتجنبوها، لأن اللّه لا يوفق الكافرين إلى الخير و الارشاد.

الآية (۲۶۵) تفسيرها:

حال الذين ينفقون أموالهم طلبا لمرضاة اللّه و تثبيتا لأنفسهم على الإيمان، كحال: صاحب بستان بأرض خصبة مرتفعة، يفيده كثير الماء و قليلة، فإن أصابه مطر غزير أثمر مثلين و إن لم يصبه المطر الكثير بل القليل فإنه يكفى لاثماره لجودة الأرض و طيبها فهو مثمر فى الحالتين، فالمؤمنون المخلصون لا تبور اعمالهم. و اللّه لا يخفى عليه شىء من اعمالكم.

نرجو اللّه سبحانه و تعالى أن يجزى الذين قاموا به خير الجزاء تم بحمد اللّه

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹